عبد الرحيم بلغنامي

أسطورة أثمد

(الميراث الأبدي)

الجزاء الثاني

رواية

خيال

أسطورة أقمد

دار خيال للنشر والترجمة ©
تجزئة 53 قطعة. رقم 27. بليمور
برج بوعريريج – الجزائر–
0668779826
Khayaleditions@gmail.com
ردمك : 978-9931-06-068-0
الإيداع القانوني : السداسي الأول 2020

.

عبد الرحيم بلغنامي

إهداء

إلى الّذين يجيدون السّباحة فوق السّطور والغرق بين الكلمات والإبصار في الأعماق.

إلى الّذين تحفلُ السّعادة بعيشهم.

إلى الّذين يسبّبون الموتَ والحياة بموتهم.

وإلى أولئك الّذين لم يحظوا بحكايات قبلَ النّوم يوما...

أعتذر على الحزن الّذي قد أسببه لكم، ولنأمل معا بقادم يعوّضنا معا...

صديقي القارئ،

في بداية الأمر كنتُ أنوي إثارة فضولك بتركك محتارا بشأن حكاية أقمد، هل هي قصّة شعبيّة تُروى في بعض مناطق القبائل حقيقة؟ وهل كلّ هذه التّواريخ والشّخصيّات حقيقة أم زيف؟ في الواقع كلّ ما كتبته كانَ حقيقيّا حينَها وأقصد بحينها أثناءَ كتابتِه، لكنْ معايير الحقيقة النّسبيّة هذه لا تناسب حديثَنا إن شئنا التّكلّم بمنطقيّة، لذلك سأضطرّ إلى الردّ بالإجابة الّتي من الممكن أن تغيظك على عكسي أنا الّذي قرّرتُ سلفا أنّها لا تناسبُ الحقيقة الخاصّة بي وستغيظني بالتّأكيد، معظم ما ذكرتُه هو من تأليفي لذلك هو ليسَ حقيقيّا بالنّسبة لمعظم البشر، قد تتساءل عن سبب هذا التخبّط الّذي أعيشُه أمامك وقد كانَ بوسعي أن أعيشَه بعيدا عن هذه الصّفحة تاركا إياك تمرّ بسلام، والإجابة هي "يسرى" نعم يسرى، فتاة افتراضيّة لا وجودَ لها لكنّها إحدى أبطال قصّتي، تخيّل أنّها في آخر لحظاتِها سعتْ لاكتشاف أمرٍ وحيد على سعة الدّنيا وكثرة الأمور الّتي قد يرغبُ فيها شخص في آخر حياتِه، أرادتْ أن تعرفَ هل القصّة الّتي رواها الكاتب والموسومة بـ "جواب بين نظرتين" حقيقيّة أم لا، جعلتني هذه الفتاة أفضحُ أحدَ الأسرار الّتي بنيتُ عليها كتابتي وهي الاحتفاظ بهكذا أسرار لي خالصة، لا أدري إن كانَ هذا سينقصُ من استمتاعك بالرّواية، لكنّه يجعلني بالتّأكيد أشعرُ بالارتياح وأنا أبرء ذمّتي من كلّ بادرة تبدرُ ببالك لنقلِ الشّخصيات أو الأحداث من فضاء الورق إلى فضاء الواقع أو اتّهام ذاتي الحقيقيّة بناء على تفكير الرّاوي وأحاديث الشّخصيّات، وإن كنتُ لا أنكِرُ استحالة أن يكونَ المرءُ موضوعيّا حتّى بمخالفتِه آراءه الخاصّة ليدحض الذّاتيّة والتّجلّي، إنّما أعملُ على انتزاع الحجّة منك كي لا تقيمَها فحسب حتّى وإن كنتَ على حقّ.

كانَ الهدفُ من الرّواية هو أن أسقيك من القدح الّتي ستتعرّف عليها وأنت تخوض تقلّبات الحكاية الّتي أتمنّى منكَ أن تُطلعَ غيركَ عليها إن حازتْ إعجابك أو أثارت فيك شعورا غريبا أو مقيتا حتّى، وأتمنّى أن تجدَ الحوارات جذّابة وتفكير أصحابها معرّيّا لبعضِ جوانب حقيقتك أو حقيقة أشخاص تعرفُهم بحيثُ تتكشّف أمامك من جديد كفكرٍ أو عقدةٍ أو كسلوكٍ مشتركٍ لدى الكثيرين وتعزّز قناعتكَ أنّ كلّ البشر سواء، كلّهم لديهم ذاك الجانبُ المهوس والمجنون والجبان والمرتاب والفرق يكمنُ في التقبّل والتّعامل معهُ ثمّ توجيهه، وأن يساعدك هذا أخيرا على فهمٍ أعمق للآخرين ثمّ لنفسِكَ بناءً على الفروقات بينكم.

لو لم يجمع الغصنُ الأوراقَ ذاتَ يومٍ، هل كانتْ لتؤمن أنّ ثمتَ ما يجمَعُها بعدَ أن تلتقي على الأرض؟ ربّما نحنُ كالأوراق لكنّنا لا نلتقي إلّا بعدَ سقوطِنا في خطّة القدر واستسلامنا لها، حينَها فقط نجدُ ما يجمعنا!

أراقب الحزن

سبتمبر2005، افترقنا لأول مرّة بعدَ ثلاث عشر سنة درسنا فيها معا، كانت البداية يوم الخامس من سبتمبر **1992** بساحة المدرسة الابتدائية لحيّ قوراي "غازي حسين" المقابلة للرّمال العالية المزيّنة بالنّخيل المريض أين اقتسمت معي لمحتَها، بعد ذلك لم نفترق طوال الأعوام القادمة، كنّا محظوظين بدراستنا في القسم نفسه عند انتقالنا إلى متوسّطة الحيّ "بن عيّاد خليفة" في الخامس من سبتمبر سنة **1998** ثمّ صِرنا ملحّين حين غيّرتُ قسمي لأدرس مجدّدا معها عند انتقالِنا إلى ثانويّة "أبي الحسن الأشعري" في الخامس من سبتمبر سنة **2002**، كنّا مصرّين على المواصلة ولم يكنْ أحدٌ ليحول بيننا سوى معدّلات البكالوريا، كانَ معدّلها جيّدا فاختارت الصّيدلة وكانَ معدّلي سيئا فاختارني تخصّص "العلوم والتكنولوجيا".

في الخامس من سبتمبر سبتمبر**2005**، دخلتُ جامعة بشّار كأيّ طالب جديد على عكس الطّلبة القدامى الّذين يعطون أنفسهم أسبوعين أو ثلاث كعطلة إضافيّة، اختارت إيمان الرّحيل إلى العاصمة لتدرس الصّيدلة بجامعة "بن يوسف بن خدّة" المسمّاة بجامعة الجزائر**1** والواقعة بشارع "ديدوش مراد"، كنتُ حريصا على تفويت حصصي بين الفينة والأخرى والسّفر إلى العاصمة، عادة ما كانَ يحدثُ ذلك بعشيّة الأربعاء، تستغرقُ الرّحلة من بشّار إلى العاصمة حوالي خمس عشر ساعة بالحافلة ما يعني وصولي صباحا، اعتدتُ الحجز بأحد النّزل بحيّ القصبة لأنّ ثمنه كان ملائما لي... لم أكنْ بحاجة إلى النّقودِ أيّامها لكنّي لمْ أرَ داعيا لنفقات غير ضروريّة ولم أهتمّ حقّا بالرّفاهيّة، حظيتُ بحرّيّة التّنقّل والغياب وفعل ما أشاء مقابل ثمنٍ باهظ دفعتُه قبل سنة وبضعة شهور من دخولي الجامعة، كنت ألتقي إيمان ثم نذهبُ حيثُ شاءت أن نذهب طيلة ثلاثة أيام، لكنّ أحبّ الأماكن إلينا كانَ الشّاطئ... شاطئ كيتاني! قمت بهذا لمدّة سنتين ونصف أي إلى غاية سنة **2008**دون ملل، حتّى أصبحتْ الطّريق بين العاصمة وبشّار تبدو أقصر في نظري.

أخبرتني إيمان ذاتَ يومٍ ونحنُ جلوسٌ على حجر كبير بشاطئ البحر:

"المغيبُ لا يعني الغياب، بل يعني أنّ شيئا ما سبقكَ وتوارى في منحدر ما، أمامك خياران: أنْ تلحقَ به أو أن تنتظرَ قدومَه".

تجمّدت الشّمسُ في هذه اللّحظات على أفق البحر، حُمرتها تنعكسُ على وجهِ إيمان المشرق، عيناها تتلألآن كما فعلتا دائما، مهما اقتربتُ منها لم أشعر أنّي قريبٌ بالقدر الكافي ليزولَ شوقي، كأنّي امرأة حنونة تلاعبُ طفلا جميلا لدرجة تشعر فيها بالرّغبة في عضّه ثمّ ترغبُ في قضمِ لحمه الغضّ بعدَ أن تنغرس أسنانها فيه وتستلذّ طراوته، لا أحدَ سوانا هنا... لم يكن حضور غيرنا ليشكّل فارقا فأنا لم أستطع أن أرفع عينيّ عنها، أحاول تقييد هذه اللّحظة إلى الأبد، النّسيم يلاعب تلك الشّعيرات الّتي تسللّت من خمارها والأمواجُ تنتحرُ على الشّاطئ بهدوء، كنّا نسمع صرخاتِها الأخيرة ونطربُ بها، أرادتْ أن تخبرنا بشيء ما لكنّنا كنّا مفتونين ببعضنا بقوّة منعتنا من الإنصات، كنّا ننظرُ إلى بعضِنا فحسب، كلّ لحظة هي لحظة أخيرة، هذا ما تعلّمتُه من عينيها الواسعتين الخضراوين حين ترمشانِ؛ ويقطع انفتاحُهما مجددا حسرتي على غيابهما، إن اعتبرناها مجرّد لحظات ستخسرُ قدسيّتها، تدوينُ تفاصيلها إذنْ على ورقة وإخفاؤها جيدا سيكون مقبولا، يشبه هذا ابتياع صندوق رديء بمئة دينار لنضع فيه قطعة ذهبيّة بملايين الدنانير، نحنُ

سنندمُ في كلّ الأحوال على اللّحظات، لكن دعنا لا نعطي الحزنَ سببا ليكونَ محقّا، دعهُ يكون ظالما في حقّنا فلعلّ ذلك سيمنحنا بعض الرّاحة.

لقد تعوّدنا على الحزنِ بحيثُ أصبحت السّعادة السّهلة تفاجئنا وتشعرنا بالانزعاج لأنّ أمرا ما ليسَ طبيعيا، هو على طبيعته لكن... ليسَ على طبيعتنا، بتنا مدركين بأنّ السّعادة طُعم بصنّارة الأيّام، لكنّ ذلك علّمنا أمرا واحدا:

"فلنستمتع بهذا الطّعم إلى منتهاه أو منتهانا، على المرء قبولُ الهدايا."

الحزنُ زنزانة حين نُسجنُ فيها طويلا، نُصاب بحساسية من النّور بعدَ أن نخرج منها مجدّدا، ما يجعلنا نفضلّ العودة إليها والموتَ فيها أحيانا. سألتني الحبيبة إيمان:

– لم عليك أن تحملَ هذا الألم في عينيك في هنيهات السّعادة؟

–الألم مبدأ يا إيمان!

–ماذا تعني؟

–تتألّمُ الأشجار لنعبر البحار ونوقد النّار ونعمّر الدّيار، تتألم القطعان لنأكل ونلبس وتتألّم أمّهاتنا لنولد، الألم كيسٌ يحملنا ويحملُ كلّ شيء إلّا أنّ أسفَلهُ ثقبا يسمّى السّعادة يتسرّب عبرَه كلّ ما نعرفُه من الأمور الّتي ترضينا، إنّ الألم يحيط بنا، يمكنك رؤيته وسماعُه في كلّ شيء، لكنّنا نتناساه لأنّه يزعجنا، إنّه الهواء الّذي نتنفّسه، نعلمُ أنّه موجود حتّى ونحن لا نراه، إنّه الحدود الّتي ندّعي نسيانها، لولا الحدود لما كانَ للمعبر المفتوحِ فيها معنى في قواميسنا.

–حدود ماذا؟

–حدود الحزن والسّعادة والحياة والموت! ينبتُ الضّرس بفكّ الرّضيع فيتألّم مع ذلك نعتبره أمرا يسعدنا؛ ويُنتزع الضّرس منه بعدَ سنواتٍ فيتألّم من جديد ونحزن لذلك، الألم يا إيمان ليسَ بذاك السّوء، هو كالملاك الّذي يفعَلُ ما أمِر به، وظيفتهُ تسعد البعض وتحزن الآخر وفي كلا الحالتين الأمر ليسَ شخصيّا يا إيمان.

–وهل هذا مبرّر لجعلي أراه دائما في عينيك؟

–لا أقصد هذا لكنّه يحصل لأنّي أراقبه.

– لم أفهم ما تقصده.

–أنت تراقبين الشّمس الآن وها هي تنعكس على عينيك ثمّ تنظرينَ إليّ فأنعكسُ عليهما أيضا... العينان لا تكذبان، هما مرآة عاكسة لما نراه فحسب.

–ولمَ تراقب الألم؟

–كي لا يفاجئني!

ابتسمت إيمان كأنّها تتحسّر على عدم رؤيتي حقيقة الأمر وقالت:

–يا لك من غبيّ! الألم كالنّوم، يفاجئك دائما ولا تذكر متى نمت بالتّحديد.

–على الأقل سأذكر آخر شيء رأيتُه قبلَ إغماضِ عينيّ.

–مم... يبدو أنّك تعرف الكثير عن الألم، أخبرني بالمزيد عنه!

-حسنا... يأتي الألم ثلاث مرّات، مرّة وأنت لم تعرفيه ولا تدرين كيف تتحملينه ومرة حين تظنّين أنك تستطيعين ذلك ومرّة حين توقنين أنّك لن تستطيعي تحمل المزيد منه، في الاولى تتعلمين الصمود وفي الثانية تتعلمين الخيبة وفي المرّة الثالثة تفاجئين نفسك.

-واو... كم أنتَ بارع، لا بدّ أنّك قرأت هذا في مكان ما... اعترف!

-نعم أقرأ كلّ ما أخبرك به هنا!

أشرتُ في هذه الأثناء إلى عينيها اللّتين تلبّدتا بالدّموع، إيمان الفتاة الواسعة القلب الحسّاسة الّتي من شأن كلمة حنونة أن تجري سيلَ دموعِها لدقائق، كانتْ تقدّر كلّ ما أقول، بلغَ بها الأمرُ إلى تقدير نظراتي وفهمِها، تذكّرني بذاك الحلّاق الّذي كانَ رقيقا في تعاملِه مع شعري، في بداية الأمر عزفتُ عنهُ لأنّه أصلع، حلّاق وأصلع! كيفَ له أن يقدّر شعري ويعاملَه كما يجب؟ لكنّي حينَ اضطررتُ إلى الجلوس تحتَ رحمة مقصّه، جعلني أسلّمه رأسي وذقني في كلّ مرّة، كانَ لطيفا مع شعري لأنّه عرفَ قيمتَه حينَ فقدَه... على عكسه لم تنتظر إيمان فقداني، عاملتني كمفقودٍ وجدتْهُ منذُ قليل طيلة الفترة الّتي عشناها معا، قبلَ أن تهربَ فجأة وتتركني أكتبُ هذه الكلمات وأمحوها كلّ يومٍ على هذا الشّاطئ الحزين، كانتْ محقّة... الألم دائما يفاجئنا كالنّعاس وكنتُ محقّا أيضا؛ فلازلتُ أذكرُ آخر مرّة رأيتُها فيها قبل أن يحدثَ ما حدث.

آخر لقاء مع إيمان على الشاطئ، يوم: 31/الشهر السعيد/سنة ألفٍ وتسعمئة وتسعة وتسعين حزنا

أمور لا يمكن بلوغها

ردّ "عليّ" على الهاتفِ في المرّة الثّالثة بعدَ أن ترَكَهُ يرنُّ مرّتين، لن يقبلَ بأقلّ من ذلك، لم يكن محبّا للثّرثرة ولا مستعدّا للردّ على المكالمات غير المهمّ منها خاصّة في لحظاتِ السّكينة هاته الّتي توفّرها له الموسيقى الهادئة للموسيقي "مايكل أورتيغا"، كانت بعنوان (te amo) أي "أحبّك"... ترك الهاتف يرنّ كطفلٍ جائعٍ يئنّ في دار الأيتام ليلا، من يحتاجُه سيتّصلُ مرّة ومرّتين وربّما أكثر:

-كانَ بإمكانِكَ الردّ بشكلٍ أسرع!

-كنتُ مشغولا... أعتذر يا أريام.

-أظنّني أزعجك باتّصالي.

-كنتُ مشغولا فحسب، لا تؤوّلي الأمر كثيرا.

رغمَ بداية قصّتهِما القويّة قبيل سنة، كانتْ علاقة عليّ وأريام تتخبّط لتجدَ طريقَها إلى سابقِ عهدِها، كانتْ ذكيّة بالقدر الّذي أدخَل الشكّ إلى قلبِها، الشكّ في أنّها مجرّد قطعة أخرى من مجموعَة اللّوحات والآثار الّتي يحتفظ بها في البيت.

أمّا عليّ فقد كان محبّا للسفر وأغرب أقرانه عن أرضه، سعيدا بغربته... غريبا بانتمائه، بالنسبة له كان الوطن طائرة أو قطارا أو بدرجة أقل حافلة في أدنى حالات الانتماء، شدّته المعالم الأثريّة بقوّة، تجوّل بشوارع القصبة بالعاصمة، وزار قلعة بني حمّاد التي تأسست قبل إحدى عشر قرنا بالمسيلة واستمَع إلى حكاية الرّيح الّتي تعبر نوافذها كأنّها حلقٌ يغيّر تواترَها لتغدو حروفا وكلمات، زار مدينة تيمقاد بتلال جبال الأوراس بولاية باتنة وأحبّ بقيّة حضارة الرّومان هناك، زار تيبازة ومدينة جميلة الأثريّة بسطيف، زار تاغيت بمدينة بشّار وجبال الهقار بتمنراست... أحبّ الغموض والحكايات الّتي يلفّها، أحبّ التناسق وبلغ به الشغف حبَّ الخطأ الذي جعل برج بيزا يميل ولا يسقط، غريب أمرُه! لقد أحبّ الخطأَ نفسَه...بقدر حبّه للتّناسق الّذي جعل برج إيفل يصمُد على حاله، ذلك لن يجعَلَ منهُ صوابا بل يعطيه جوازَ سفرٍ يعبُرُ به بوّابة الضّمير فحسب، ربّما هو نفسُه ما قصده البيتان اللّذان تردّدا في الحين داخله:

يا خيفتي من ذي عيوبٍ عندهم   مـا فيه عيبٌ قد أراهُ يُعابُ

فـالحـقّ في عين الخطيئة باطلٌ   والإثمُ في عين المحبّ صوابُ[2]

وقف عليّ أمام البرج متحدّيّا إيّاه بقامتِه الطّويلة ونظراتِ عينيه السّوداوين الكبيرتين قائلا: "ستهوي يوما ما على كلّ حال!"

حينها أدرك أنّ النّقص الذي يجعل من الأشياء فانية يمنحها روحا، يحُدّها بأجل ويقربها إلى الإنسانية أكثر... أحَبَّ العمران وأخطاء العمران وأحبّ الجمال أينما وُجد: "من منّا لا يحبّ الجمال؟ "، تساءَل محاوِلا تعميمَ منظورِه وإلباسَهُ الجميع، كانَ يتمنّى أن يمنَح العالمَ مُقلتيه ليبصرَ بهما ما تعجَزُ عن نقلِه الكلمات.

---

[2] أبيات تعود للكاتب

كانَ حُبّه مختلفا وشاعريّا حتى بالنسبة له وهو الذي لم يحاول كتابة بيتٍ واحد في حياته، شاعريتُه غريزية... أخذتْ بجوارحه قبل قدميه إلى الجبال الشاهقة والأشجار الباسقة وإلى كل مكان ينبض بالحياة المختفية في روح الأشياء، كان عليّ ينظر إلى قرص الشمس في نهاية الدّرب ويسعى إليه.

-أليستِ الدّنيا مجرّد سعيٍ نحوَ أمورٍ تختلِفُ كلّ مرّة؟ نسعى إليها بجدّ وحينَ نبلُغُها يتملّكنا الضّجر ونواصل السّير نحو غيرها؟

تساءل ذاتَ يومٍ وأدّى به التّساؤل إلى السّير كلّ يومٍ نحو الشّمس.

"إذن سيكون من الأفضل السّعي إلى أمور لا يمكن بلوغها حتّى مع علمنا باستحالتها!"

سارَ إليها قبل المغيبِ كعادتِه لكنّه هذه المرّة لن يتعثر بالحجر المغروس على حافة الطريق، الحافة التي لا بدّ له أن يمرّ بها، هو وفيٌّ لروح المكان ككلّ الشُّعراء... هو شاعر أكثر من أولئك الذين أتقنوا البحور ولم يُصبهم مسُّ الطبيعة ولم تسكنهم شياطين الغسقْ... نجح هذه المرّة ولم يتعثّر بالحَجر، سيُقيم حفلة لدى عودتِه إلى البيت بهذه المناسبة التّافهة، سيُشغّل موسيقى هادئة ويدعو كلّ النجوم... حفلة صاخبة بالهدوء، مشعّة بظلام مكسور ومضيئة بعينيه المتلألئتين، الليلة سيبكي قليلا، لم يكن حزينا لكنّها الحقنة التي يحتاجها كلّ بضعة أيام ليظل قلبه طريّا ولكي لا يجفّ.

أحبَّ عليّ الجمال في كلّ شيء، لا بدّ أن تكون فتاته فاتنة... هو يحبّها دونَ شكّ، لكن كلاهُما كانَ يخشى أنْ يكونَ حبّا لهذا الفنّ العظيمِ وهذا الجمال الآسر الّذي يتجلّى في ملامِحِها، إن كانَ الأمر كذلك فقد يقايضها ذاتَ يومٍ بتحفة خشبيّة ما، دونَ أن يشُعرَ بالنّدم!

سأل نفسَهُ كلّ يوم:" هل هذا هو الحبّ؟"

لم تكنْ الإجابة صعبة، إنّما كانَ يتغافَلُ عنها، في بعض الأحيان نقنِعُ أنفسَنا أنّنا لم نسمَع تلكَ الصّرخة البعيدة المتلاشية في عنادنا وحماقتِنا والّتي حاولتْ إخبارَنا أنّنا نمضي في الاتّجاه الخطأ، ثمّ نتظاهرُ أمام أنفسِنا بالتفاجيء عند النّهاية، تلكَ الصّرخةُ الّتي تنطلقُ كالإنذار كلّ يومٍ من دواخِلنا، لكنّ ضجيج أفكارِنا المشوّشة ومشاعِرنا الهلعة الّتي تتوقُ إلى مكانٍ تستريحُ فيه يحُول دونَ سماعِنا إيّاها، الحبّ الّذي يوضَع محلّ شكٍّ بعدَ تأكيدِ وجودِه لم يسكن القلبَ يوما، بلْ كانَ قناعةً رآها العقلُ مناسبة له حينها، ثمّ أدركَ أنّها لا تناسبُه بعد ذلك... لأنّ القلب لا يتراجع!

الشّجاعة وحدَها لم تمكّنهُ من إنهاء العلاقة، تطلّب منه ذلك فتاة أخرى تدخُل حياتَه فجأة وتعرّفه معنى الحبّ، كانتْ جميلة بدورِها لكنّ ذلكَ كان مجرّد إضافة جميلة... أخيرا وجَدَ ذاكَ النّقصَ الّذي ينقصُه والضّعفَ الّذي يقوّيه، لعلّه المقصود من تلكَ العبارة الّتي قرأتها عليه محبوبتُه الجديدة "إيمان" من كتاب كيد الرّجال الّذي ألّفه حبيبها السّابق:

"كنتُ سائرا مختفيا بين الظّلال واكتشفتِني في رواقٍ مزدحِمٍ بالفارغين، نظرتُ إليكِ وبدوتِ شبيهةً بالنّقص الّذي ينقصني!"

حملتِ الأيّام كثيرا من الخيبات لأريام، كانَ عليّ أوّل رجلٍ فتَقَ قلبَها بالحبّ لذلك كانتِ الأيّامُ الّتي بَعدَه مظلمةً جدّا والشّهور الّتي تلتها مليئة بالمقارنات، كانَ بالنّسبة لها الوحدة الّتي يقاسُ بها كلّ الرّجال، رغبَ فيها الجميعُ ولم ترغبْ في أيّ منهم، كانتْ تنظرُ إليهم وتقولُ داخِلها:

-"هذا يساوي نصف عليّ وهذا جزءاً من عشرة..."

لكن لا واحدَ منهمْ كانَ يضاهيه في نظرها، هو الوحدة الأساسيّة والبقيّة أجزاؤها وليسَ له مضاعفاتٌ حتّى، ككلّ المحبّين بحقّ ستعيش طرحا من الدّهر رهينة المقارنات، تَورّد خدّاها الناصعان لفرط ما بكتْ كلّ يومٍ وحيدة في سريرِها، أصبح الطّعام بلا طعم والنّوم بلا راحة، لم يستطِع أحد أن يخفّف عن أريام الحزنَ الّذي تشعُرُ به إلى أن جاء ذاكَ اليومُ حينَ تلقّت تلك المكالمة الّتي حرّكتْ رياحَ حياتِها مجدّدا، ما كانَ عليها إلّا خفضُ أشرعتِها وتركها تأخذُها أينَ شاءت، الحياة هنا موحشة، في نظرِها ليس من الممكن أن تأخُذها إلى مكانٍ أسوء ممّا هي فيه، ردّت أريام على الهاتف مستبشرة بالخبر الجميل...

حملَ عليّ مشهدَ الفراق في ذاكرتِه أيّاما طويلةً بعدَها، لم يدعِ الحزنَ يؤثّر عليه مجدّدا وأن يصوّر ألمَ فراقِها على أنّه حبّ، عليه المضيّ قُدُما الآن. كانتْ تجمَعُه لقاءات بتلك الفتاة الأخرى "إيمان"، هو لا يفهَمُ ما يجذِبُه إليها، يا للغباء! من المؤكّد أنّه جمالُها، لكنّه كان يحظى بهكذا جمال أيضا قبل أيّام قليلة.

-أليستْ في المستوى نفسه من الجمال واللّطف والطيبة مع أريام؟

كانَ هذا السّؤالُ يُطرحُ باستمرار في عقلِه، لكنّه بعدَ عدّة لقاءات اكتشفَ أمورا جديدة، هذه الفتاة أرقّ قلبا وأضعف، هكذا هم الرّجال الأقوياء لا يقوى على هزيمَتِهم سوى الضّعف، عيناها أيضا تحملانِ كثيرا من البريق الباعث على الأمل، مليئة بطاقة الحياة، هذا النّوع من الجمال الّذي هانَ عليّ دوما أمامَه، اصطحَبَها معَهُ في رحلة عملِه إلى هانوفر بألمانيا وخلال ذلك خطفا سويّا زياراتٍ إلى بعضِ المعالم الجميلة هناك، نظر إليها وهي تراقبُ كاتدرائيّة كولونيا ليلا شامخة بين كلّ شيء والهواءُ يحنو على صفحة وجهها، تمكّن من تخيّل شعر إيمان يتطايرُ في اتّجاهِ هبّة الرّياح وهي تلملمُهُ بينَ أصابِعِها الرفيعة وتزيح خصلاتِه عن محيّاها، تمنّى لو كانَ فنّانا ليوثّق اللّحظة بلوحة أو ببيتٍ من الشّعر... استلَمَ هاتِفَها والتقطَ لها صورةً بجانب أضواء الكاتدرائيّة البيضاء، هكذا لن تُفلتَ منهُ هذه اللّحظات الاستثنائية، كانتْ بدورِها محتاجة إلى تجربة كهذه لتتغلّب على معاناتِها، ميدان الاحتفالات الّذي يحيط الكاتدرائيّة كان سُخرية صريحة بالنّسبة لإيمان، واستغربت كيف أنّ أحزانَها سادية إلى الحدّ الّذي استدرجتها به إلى هنا لتحتفل بانتصارها على حطامِها، أدركَ عليّ يومَها أمرا ما:

"الفاتنات أيضا يشعرنَ بالحزن!"

ختْمٌ مسروق

لم تكنْ تتوقّع عائلة "يسرى" أن تتحوّل فرحتهم بطفلتهم الجميلة إلى قلق مستمرّ، كانتْ تتّسمُ بالذّكاء في كلامِها والحكمة في صمتِها والعمقِ في نظراتِها، شفتاها مكتنزتان شيئا ما بشكل جميل، وشعرها الأسودُ حريريّ ومنسدلٌ بلطفٍ على جبهتها العريضة، نشأتْ مختلفة عن قريناتِها من الفتيات، جمعتْ ثقافتيْ والديها بتناغم مُعجزْ، عائلة أبيها من الطّبقة المثقّفة البرجوازية، تعيش أغلبُها في فرنسا، بينَما أمّها امرأة صحراوية أصيلة، ما أعطى يسرى مرونة و قدرة على الاندماج ومسايرة العقليات المختلفة الّتي تصادفُها كلّ يوم، لم يكن ذلك الأمر الوحيد الهجينَ فيها، فقد أخذت من وسامة أبيها وسحر أمّها، لعلّها لم تكنْ تُعتَبرُ من فتيات الطّبقة الأولى خلال مشوارها الدّراسي بسبب اعتزالِها تجمّعاتهم، لكنّها كانتْ تتربّع على عرشهنّ ما إن يتوغّلَ في أعماقِها أحدهم ويبادلَها الحديث، إنّها كالشّاهين في سباق للحمام، لا شيء يدفَعُها لمنافستهنّ فهي تثق بما هي عليه وأينَ يجبُ أن تكون، صفحاتٌ من المديحِ قد لا تفيها حقّها من الرّوعة، غيرَ أنّها لم تكنْ دوما بهذه المثالية، فقلبُها كانَ فارغا بقدرِ نظراتِها، لذلك لم يملأ عيونَها أحدٌ من الشّبان الّذين كلِفوا بها، رافقتْ بعضهم لأيامٍ وآخرَين لشهور بحثا عن حبّ يحشو قلبَها الأجوفَ بالصّدى القاتل، نهمُها إلى تجربة رومنسية لا يُشبعُه أحد، يوما بعد يوم غابت الغاية في التّكرار، ذابا في بعضِهما، استحالتْ مرافقة الشّبان غايتَها قبلَ أن تشعر بحدوث ذلك حتّى، لم تفقْ إلّا بعدَ أن تورّطت في الأمر، إنّها معضلة أزليّة صعبة المراوغة، هي حادثٌ لا يمكنُ تجنّبهُ من المرّة الأولى، لتفاديه على المرء الوقوعُ فيه أساسا، ذكّرها هذا بأحد الشّبّان السّابقين في حياتِها، كان يعينُ نفسَه بالعمل في كشك أينَ احتاجَ إلى الفكّة من أجل معاملاته التجارية خاصّة تلك ذات القيم الصغيرة، لذلك دأبَ على الاحتفاظ بأكبر قدرٍ منها وجمعِه من أجل تسهيل معاملاته مع الزّبائن، بمرور الأيّام أصبح هدفه جمعُ الفكّة بشكلٍ هوسيّ رغمَ عدم حاجته إليها بدلَ أن يكونَ مجرّد غاية تسهّل عمله، تعلّمتْ منه يسرى أيّامها ألّا تدعَ الأهدافَ تملي عليها منظورها لها أو أولويّاتها مجدّدا...

بالنّسبة ليسرى، البحثُ عن الحبّ استحالَ قتلا للوقتِ، ربّما بسبب عشرات المحاولات الفاشلة، اللّاوعيُ يخابر الأ لم ثمّ يتّفقان على استراتيجيّة يحبّذانِها في سرّيّة تامّة، كسكرتيرة تسرقُ خاتَم سيدِها وتُمضي عنه القرارات الّتي تخصّه وحينَ يُدركُ ما يحدث، يكونُ مجبرا على مسايرة الوضع لأنّ الأوان فاتَ على تصحيح الأمر، كثيرا ما كانتْ يسرى تقول لنفسِها مخاطبة قلبَها الموبوء:

" لن أتغيّر ما لم تتغيّر، سُحقا لك!"

اعتبرتْ نفسَها بلا قلب، ما فائدة قارورة الماء للظّمآن إن لم تكنْ بها قطرة ماء؟ في أعماقِها تمنّت حلّا سحريّا، تمنّت لو تستطيعُ انتزاع قلبِها فحسب وتغييره، يقالُ أنّه على المرء أن يكونَ حذِرا ممّا يتمنّاه... في سهوٍ مِنْها، تسرّبت نصفُ أمنيتِها إلى عنانِ السّماء تاركةً النّصف الآخر مرغَما في الأرض، حدث هذا لمّا ضجِرَ القلبُ من تبرّمها وشكواها المستميتة منه.

–قلبُها ضعيفٌ جدّا، لن يصمُدَ أكثرَ من بضعة شهور.

نزلَ الأمرُ كالصّاعقة على أهلِها.

–أرجوك ساعدها دكتور، ما الحلّ؟

-يجبُ أنْ نجدَ لها متبرّعا أساسا وتبقى مشكلةُ التّكاليف...

-لا تهمّ التّكاليف، سنتدبّر الأمر مهما كان...

قاطعتْ والدتُها الطّبيب في قلق وحماس وهي تتفحّص عينيه المتمرّستين في التمويهِ وصِدقَهما، كأنها تترّجاهُ أن يقولَ لها الحقيقة، عادة ما تنزَعُ الأمّهات إلى الشّعور أنّ الأطبّاء يخفونَ شيئا ما، ذلك لأنّهنّ يُردنَ التّحقّق من أنّهنّ يواجهنَ حقّا أسوء ما في الظّرف بغية حشدِ كلّ ما يتطلّبه الخطبُ من جلدٍ واستعداد، هذا أشبهُ برياضة جري الشّوارع، حيث على المتسابق معرفة موقِعهِ وبُعْدهِ عن الأرض ليستطيع القفز ثمّ الوقوع بشكل مناسب ويتجنّب ما يمكن تجنبه من ضرر، كانَ مستشفى مصطفى باشا مكانا لتدميرِ أحلامِ المرضى الوافدين من مكان بعيد، ليسَ لأنّه مليء بالأشرار وإنّما لأنّ مرضهمْ شرّيرٌ جدّا ما يستدعي إرسالَهم إليه كحلّ نهائيّ باعتبارهِ واحدا من أعرق المستشفيات الجامعيّة في الجزائر.

-سنبقى على اتّصال وسنعلمُكمْ بالأمرِ حينَ نجدُ متبرّعا ما!

يسرى الّتي لا قلب لها... تحتاجُ إلى قلب! أليست هذه أمنيتَها أساسا؟

اهتمّ بنفسك

شعرَ عليّ بالشّوقِ لأريام بعد فراقِهما، لكنّه شوقٌ إلى أمر اعتاد وجودَه بجانبِه كلّ يوم ثمّ اختفى فجأة، لم تتّصل به من يومِها ولم يتلقَّ منها رسائلا... أحبّتُه بقوّة، هي من ذلك النّوع من الفتيات اللّواتي يحببن بصدقٍ لكن كبرياؤهنّ أعظمُ من أنْ ينكسِرَ حينَ تنكسر قلوبهنّ، وقفا بحديقة الحامة في قلب العاصمة، حدّقا معا إلى سيقان البامبو القاسية كأنّهما يسمعان اللحن اللّين للفلوت الّذي يُصنع منها، قالَ لها حينَها وقد كانتْ أحاسيسُها ترتقِبُ هذ اللّحظة عاجلا أم آجلا:

-أريام... لديّ ما أريدُ إخبارك به...

-أعلم!

-ما الّذي تعلمينه؟

-أنّ قلبَكَ كفّ عن حبّي!

عليّ ليسَ شخصا سيّئا، كانَ صادقا جدّا فحسب، نظراتُ عينيه عميقةٌ جدّا كأنّهما تنظران إلى أغوار الأشياء، تصافِحُ القلوب وتقيسُ حرارة الأنفاس غيرَ أنّها تحمِلُ مسحة من الحزنِ الدّفين، لم تجرأ أريام على سؤالِه عن السّبب لاعتقادها بوجودِ سبب مؤلِم جدّا يجعَلُ عيونَ رجلٍ عظيمٍ كهذا تختزنُ كلّ هذا الوجع، ذكرياتُه لا تختلفُ عن هذه الحيوانات السّجينة خلف الأقفاص، تحنّ إلى الخروج لكن لا مكانَ لتفرّ إليه، لا بدّ أنّه عانى طويلا ليستطيع كتمَها كلّ يوم وكلّ دقيقة، لم يسبقْ له إخبارُها بشيء عنها... لهذه الدّرجة يؤلِمُهُ التذكّر! ربّما كانتْ تبحثُ له عن أعذار فحسب، فقدْ كانَ شحيح الكلمات وافر الصّمت وقليل الحديث عن ماضيه كأنّه تعوزه الثّقة اتّجاهها، لعلّ لا شيء من تصوّرها صحيح أ ليس كذلك؟ لعلّ حيوان الكسلان لا ينام لينسى بل إنّ سعادته في النّوم نفسِه.

كيفَ لها أن تتمالكَ نفسَها وهو ينظرُ إليها بهذا الشّكل؟ لا تستطيعُ إيلامَهُ أكثر، لا تستطيع أن تؤذي هذا المتشرّد التّائه في شوارعِ الأحزانَ العتيقة كما بدا لها، قبلَ قليلٍ انتابتْها رغبة في الانفجار في وجهه غاضبة باكية بكلّ الكلماتِ القاسية والتّهم الجارحة، رفعتْ رأسها ناشبة نظرتَها في مقلتيه، جمعتْ أنفاسَها لتصرخَ وحين أخرجتها أخيرا قالتْ:

-اهتمّ بنفسك حبيبي...

أدارت ظهرها وانهمرت الدّموع على خدّها كالأنهار، اقتربَ واضعا يدهُ على كتفها، لكنّها انزلقت منه كقطرة زئبق، لم يفهمْ حينَها هل كانَ ذلك كرها منها أن يرى ضُعفَها، أم أنّها طريقتُها لتسوّل بعضِ العطفِ منه، لم يدركْ أنّ نيّتها كانتْ مختلفة تماما، لم تردْ أن تؤذيه أكثر بدموعِها الّتي سترجِعه خطواتٍ إلى الخلف! بعدَ كلّ الفترة الّتي قضياها معا، لم يكن يعرفْ عنها شيئا... ربّما لأنّه لم يردْ ذلك فلطالما حصل على الأمور الّتي رغب فيها حقّا... ظنّ أنّ أريام وحدَها كانتْ تعرفُ الجواب، وظنّت أنّه وحدهُ من يمكنُه الحصول عليه بيد أنّه لم يُرد ذلك فحسب.

لم يستطع قولَ شيء وهو يراقبها تبتعد بنظراتِه الفارغة وحاجبيه الغليظين الّذين رسما أعتى مظاهر القهر والحزن، ارتجفا مستجيبين لدفق المشاعرِ الّتي انتابتْهُ حينَها، شعرَ بشيء اتجاهها مختلِفٍ عنّ كلّ ما شعَر به سابقا، همسَ قلبُهُ لها:

-هل أستطيع أن أرى وجهكِ مرّة أخيرة؟

حينها استدارت قليلا ثمّ أكملتْ سيرَها، اعتبرَها معجزة أو كرامة أو شيء ما من هذا القبيل، لو صرَخَ بأعلى صوتِه ما كانتْ لتسمَعَه، في بعض الأوقات نحتاجُ إلى من يهمسُ لنا بصدق لأنّ التردّدات العالية لا تبلغُ القلوب كما تراقصها تلك الهادئة، في حقيقة الأمر لم يكن يريدُ رؤية وجهِها لمرّة أخيرة فحسب بل أحسّ أنّه يحبّها فعلا، هل أيقظ هذا الموقفُ مشاعرَهُ السّابقة نحوَها؟ ربّما حبّه اتّجاهها هو من ذاك النّوع: الحالة رقم اثنين وأربعين!

أشخاصٌ مثلُه؟

لم تأبَه يسرى حقّا لحالتِها، هزلتْ أكثر من أيّ وقتٍ مضى، أنهكَها التّعب وشعرتْ أنّ قلبَها ينتقِمُ منها، يؤلِمُها لتعترِفَ بوجودِه، لم يزدْها ذلك إلّا إصرارا وتحدّيا له، لمْ تجِدْ متبرّعا وأيّامُها باتت معدودة، كانت تقضيها في مطالعة أمور جميلة تعبثُ برياحِ مشاعرِها، تبكيها وتضحكُها وتغضبها وهي على سطح المنزل الّذي تصلُ إليه بمساعدة أبيها، ترتاحُ برؤية الإطلالة الجميلة على الحيّ بسوسطارة ويشعرها الدّرج الإسمنتيّ المتآكل والجدران العتيقة الّتي تنازلُ الرّطوبة بكثير من الحنين... بزمن الثّورة ربّما، أحبّت الاستماع إلى الموسيقى الشّعبيّة "القصبة وأنا وليدها" للفنّان "عبد القادر شاعو" و "زوج حمامات" للفنّان "دحمان الحراشي" و"البارح" للفنّان "الهاشمي قروابي"...

ستكونُ يسرى بخير مادامتْ أمواجُها تتلاطم وتهدأ، الرّكود أكثرُ شيء قد يفسِدُ روحَها ومزاجَها في هذه الأيّام العصيبة. قرأت الكثير من الكُتب لتسلّي نفسها بطرق مختلفة وانتهى بها المطافُ بقراءة رواية "جواب بين نظرتين"، لم تستطع أن ترفعَ عينيها عنها إلى آخر حرف وتساءلت عن السّرّ خلف علامة الاستفهام الّتي وضعها في آخر الرّواية بعد كلمة النّهاية، أ لا يعلمُ وهو من كتبَ القصّة بنهايتِها؟ أمّ أنّه يريدُ جعلَها خالدة كأيّ قصّة مستمرّة ننتظر آخرها؟ أم أنّها حقيقيّة بهذا القدر ومستمرّة في آن واحد؟ تمكّنت الكلماتُ منها تماما، استطاعت أن تضحكها وأن تبكيها وأن تمدّها بكثير من الأمل، قرأتْ السّطور بتأنٍّ خوفا من انتهائها كقطعةِ جبنٍ متبّلة وشهيّة جدّا تعجلُ بها الشّراهة لقضم المزيد منها، ويتأنّى خافقُها مشفقا لِصغرِها وسرعة نفادها، تلبَّستها الكلماتُ شيئا فشيئا وحينَ قرأتْ عبارة: "شيء من أجلك" انفجرتْ عيناها بالدّموع، تمنّت لو أنّها صادفتْ شخصا يجعلُها تتمنّى أن تفعَل شيئا من أجلِه بكلّ هذه القوّة كما حدثَ مع بطلة القصّة المستلقية على سرير المستشفى وهي تخاطبُ حبيبها، تمنّت لقاء الكاتبِ وجها لوجه لتسأله:" هل ما كتبتَهُ حقيقيّ؟"، ما أكثرَ أمانيها في هذه اللّحظة وما أبعدَها... الآن فقط شعرتْ بالحزنِ على حياتِها، لأنّه صارتْ لها أمانٍ لم تكتمِل بعد... صار للموتِ أمورٌ يتلذّذُ بانتزاعِها منها.

-كيف حالكِ بنيّتي؟

-بخير يا أمّي.

-ماذا تقرئين؟

-إنّها رواية، تتكلّم عن الأشخاص الّذين يتغيّرون.

-جميل... أليسَ الجميع يتغيّر؟

-نعم لكنّهم لا يدركون كيف ومتى يحدث ذلك.

-وهل تساعدهم الرّواية في فهم هذا؟

-نعم... ما داموا يريدونَ مساعدة أنفسهم.

كانَتِ الرّواية ثاني مؤلّفٍ تقرأه للكاتب، لقد حفظتْ اسمَه، بحثتْ لهُ عن مؤلّفاتٍ غيرِها لكنّها لم تجدْ.

-أمّي، هل تعرفين هذا الكاتب؟ إنّه من الصّحراء مثلك!

قرأتْ أمّ يسرى الاسم وبعد لحظة أجابت بالنّفي ولكنّها أخبرتْها أن هذا اللّقب غير منتشر بمدينة مشرية مسقطِ رأسِها، لكنّها كانتْ تعرفُ إحدى الصّديقات القديمات من الّذين يحملون هذا الاسم بمدينة بشّار، بدتْ بعض الخيبة على ملامِحها لكن سلّاها حصرُ النّطاقُ الجغرافي لاحتمالات تواجده، شعرتْ يسرى بالانجذاب لشخصيّة البطل "أحمد"، إنّه شبيه بالرّجل الّذي تبحثُ عنه، هي تريدُ معرفة أمرٍ وحيد: "هل يوجدُ حقّا أشخاصٌ مثله؟"

شعرتْ بالامتنان لقراءتها رواية مماثلة قبلَ موتِها، أرسلتْ شكرَها للمؤلّف رغمَ درايتِها أنّه لن يصلَ إليه يوما، حينَها شعرتْ بأنّه ربّما لو التقتْ بالبطل "أحمد" لكانَ أحبَّها، تذكّرت المقطع الّذي يقول فيه:

" لطالما أحببتُ الأشخاص الذين يشكرون الآخرين على أيّ معروف ولو كانَ بسيطا، المرء السويّ يقدّر كلّ شيء بدءاً بما يبدو تافها."

شعرتْ أنّه يتحدّثُ عنها، أنّه يحبّها، يحبّ شخصا غير موجود في إدراكِه... في عالمِه الخاصّ.

بائع الحلوى

وسط هذا الفيض من الأحزان، تلقّت أريام مكالمة هاتفيّة من زوجةِ عمّها:

-لقد رزقنا بطفل فجرَ اليوم.

- مبارك لكم... غدا أسافر لرؤيتِها وإعانتِها.

ربّما من الأفضل السّفر، شيئا فشيئا أصبحت أريام شبيهة بكلّ شيء هنا في الغرفة الجامعية، بالكأس المرميّة على الأرض، بالفراش المبعثَر منذ أمد، بالنّافذة الّتي يغطّيها السّتار مانعا النّور من النّفاذ إليها... الغرفة مجرّد صورة مخفّفة عن الفوضى والرّكود الّذين يعمّان صدرها، بعدَ مراقبتِها لأيّام، أدركت أنّ السّرير في النّهاية لن يرتّب نفسه وأنّ الكأس لن تقومَ دونِ إرادة أحدِهم وتعتلي المائدة وأنّ النّور لن يدخلَ عنوة إلى الغرفة مزيحا السّتائر الدّاكنة، رتّبتْ كلّ شيء، تزيّنت ورشّت بخّة من عطر Scandal الّذي أهداها إيّاهُ عليّ رغم امتلاكِها ماركاتٍ أخرى لا تقلُّ طيبا، لم يكنْ ذلك وفاءً له... إنّما كانتْ تخشى أن تشمّ هذا العطر المشبّع بالذّكرى في الخارج فيؤذيها، إذا انقطعت عنه سيرتبط بالماضي لذلك سترشّه دوما لألّا ينتمي لحقبة كانَ يحكُمها عليّ، أريام أقوى من أن تهزمَها رائحة ما، بل قد تكون هذه الرّائحة قدَرا يقفُ إلى جانبِها ذاتَ يوم... كانتْ مقارنة به مجرّد طفلة يوم التقيا، أخذتِ الأقدار بيده إلى شارعٍ قريبٍ منها، كان محبّا للسّفر وانتهى به المطافُ متسلّقا قمّة "يمّا قوراية" ببجاية صيفا ثمّ معرّجا على بعضِ قرى تيزي وزّو، أريام كانتْ وقتَها في القسم النّهائي وقد اجتازت البكالوريا قبل شهر أو شهر ونصف سنة **2008**، سألها عن محطّة الحافلات فردّت بلطف:

-أ تنوي الرّحيل بهذه السّرعة؟

ضحك وردّ:

-في الواقع أنا هنا منذُ فترة.

-لا أظنّك أحطتَ بالأماكن الّتي يجبُ عليكَ زيارتُها حقّا..

أخبرَها حينَها بالأماكنِ الّتي زارَها واقترحتْ عليه أخرى مع كلّ السّبل الممكنة للوصول إليها، طلب منْها رقمَ هاتفِها للتّواصل معها في حينِ شكُل عليه الأمر ووافقت مع بعضِ التّردّد، في الواقع لم يكنْ طلبُه إلا محاولة ناجحة للمحافظة على التّواصل معها، كان من الواضح إعجابُه بلباقتها وجمالها الّذي أذكاه سطوعُ الشّمس الذهبيّة على عينيْها العسليّتين الواسعتين، بدت ضعيفة وهي ترفَعُ عينيها لتكلّمه... ضعيفة كما يليق بالأنثى القويّة!

أعجبا ببعضِهما بشدّة، قدّمت تضحيات كثيرة من أجله بعدَها خلال ما يفوق سنتين من علاقتهما، حتّى أنّها اختارتْ أن تسافِرَ أميالا لتكملَ دراسَتَها الجامعيّة في مكانٍ قريبٍ منه، كطفلٍ وعدَه أبواه بأخذه إلى بائع الحلوى الوحيد في المنطقة ذاتَ يوم وعندَ أخذه أخيرا ليشتري بعضَها وجده قد أقفلَ وارتحل، غيرَ أنّ عليّ عنى بالنّسبة لها أكثر بكثير ممّا تعنيه الحلوى بالنّسبة للطفل.

استقلّت أريام الحافلة متوجّهة إلى مدينة بشار، هناكَ أينَ ركبَ مقابلا لها شابٌّ وعجوز يستأنسان بالحديثِ إلى بعضِهما، اقتحمتْ حديثَهما بصمتِها، كانتْ عيناها تصوّبان مجانِبة إيّاهما لكنَّ سمعها يقطعُ مسار كلماتِهما، تذكّرت بيتَ ابن ربيعة حينَ قال في رائعته:

"إذا جِئتِ فَامنَح طَرفَ عَينَيكَ غَيرَنا لِكَي يَحسِبوا أَنَّ الهَوى حَيثُ تَنظُرُ"

-لا شيء يعجبُ في هذا الزّمن يا بنيّ، ذهبتِ الأخلاق وماتت الحرمة ورُفِعَ العلم ووُضِعَ الشّرف وعمّت الوقاحة...

-معكَ حقّ يا عمّي إلّا في أمرٍ وحيد، هذا زمنُ العلم!

-"آه؟ العلم؟ لي قرا قرا بكري يا ولدي..."

ردّ العجوز مستنكرا قولَ الشّابّ ثمّ واصل:

-كانَ مستوانا عاليّا جدّا مقارنة بهؤلاء الشّباب الأطفال الّذين لا يفقهون شيئا، شهادة السّادسة ابتدائي جيلنا تعادِلُ شهادة ليسانس هذا الجيل.

هنا بدا الانزعاج جليّا على وجه الشّاب، أريام كانتْ تتمالكُ نفسَها هي الأخرى كي لا تردّ على حماقات الرّجل العجوز، كلاهما تركاهُ يتكلّم إلى أن صمتَ بعد أن لم يجد تجاوبا، لكن هل يكتفي بهذا؟ طبعا لا، فبعدَ صمتٍ قصير تجاذب أطرافَ موضوعٍ لا يختلفُ فيه ذكران مهما كان سنّاهما:

-آاااه النّساء، سوقُهم خسارة ومشاورتهم فساد رأي.

ضحكَ الشّاب وهو يستمِعُ إلى العجوز الّذي رغمَ أنّ كلامه يبدو حماقات فهو خبير بالنّساء بعدَ تجربة عمر.

-اسمع يا بنيّ، المرأة مهما بلغَ ذكاؤها تبقى غبيّة...

هنا فقدت أريام تركيزَها ونظرتْ في استغراب إلى العجوز، حينَها أدركَ أنّه لعبَ على وترٍ حسّاس وأنّ هنالكَ جاسوسا يتنصّت على الحديث، استدرَك قائلا:

-لا أقصدك يا بنيّتي، من الواضح أنّك ذكيّة جدّا وجميلة.

ضحكتْ أريام كثيرا وانتعشت روحُها، حتّى أنّها كشفت عن بعض أضراسِها الّتي لم تبرز للغير منذ زمن بعيد، عندئذ التفتَ العجوز إلى الشّاب قائلا بصوتٍ خافت:

-أ لم أقل لك أنهنّ كلّهن غبيّات؟

تمكّنت أريام من سماعه، لكنّها لم تنزعج بل أضحكها ذلك، الأمر الوحيد الذي أزعجها بشكل طفيف هو الشّكّ، ظلّ الشكّ عالقا في رأسها:

"هل تعمّد العجوز أن يُسمعَني همسَه إلى الشّاب؟"

وحدَه العجوز يعرف الإجابة لكنّه ليسَ بالأمر الجلل، أريام من الأشخاص الّذين يحدّثون أنفسهم طوال الوقت ويناقشونَ كلّ أمرٍ مع ذواتهم، حينَ تخفضُ مستوى حديثك سيسمعك الجميع وكلّما علا مستواك قلّ عدد الّذين تتحدّث معهم، لذلك الحديث إلى النّفس أعلى درجات الفهم.

مضت ساعات عديدة من السّفر تورّمت أصابُعها القصيرة من طولِه، أخيرا وصلتْ، نزلت من الحافلة في "محطّة حمّادي" وأخذت شهيقا طويلا مادّةً ذراعيها كالمصلوب، ثم زفرت مستمتعة بهذا النّسيم الصّحراوي الصّافي، أجرتْ مكالمة لدار عمّها:

-لقد وصلت، أنا في المحطّة...

قلب وابتسامة

-البحر... أريدُ رؤية البحر!

أفاقتْ يسرى من نومها تهذي كأنّها رأتْ كابوسا، فجأة شعرتْ بشوقٍ شديد للقاء معه، البحر! كم قتلَ من نفسٍ وأحيا من روح، أمواجُهُ تذهبُ بالأسرار بعيدا جدّا لمن لا يسمعونَها وما كانتْ لتهمّهم لو سمعوها، لجّتُه تأتي برسائل في قوارير ربّما هلكَ أصحابُها، من الغريبِ أن يُرسِلَ شخصٌ في آخر لحظاتِه رسالة إلى غرباء بينَما عاش ما قبلَها من اللّحظاتِ بجوار أقرب النّاس إليه، من لا يعدُكَ بملازمتِك يسمّى غائبا لا راحلا... الّذين يعدونَ بالبقاء وحدَهم يرحَلون!

-ما بك يا بنيّتي؟

-أمّي... أريدُ رؤية البحر!

أحزنَ طلبُها أمّها كثيرا، ذلك لأنّها اختبرت ما يحدثُ من قبل، حينَ يستشعر المرء قربَ أجلِه يتمنّى أمورا فجأة، هو الوحيدُ الّذي يستطيعُ إبصار ما يراهُ فيها، فنحنُ باقترابنا من الموتِ يُرفَعُ حجابُ الدّنيا عن أعيننا ونرى حقائق يخالُها الآخرون هذيانا.

-أريدُ رؤيتَهُ عصرا!

قبّلت أمّ يسرى جبينَها النديّ:

-حسنا يا بنيّتي...

شخصٌ ما دقّ جرسَ الباب...

-أهلا بك، كيفَ حالُك يا ابنتي؟

-بخير الحمد لله، هل أستطيعُ رؤية يسرى؟

يبدو أنّ صديقتَها سلمى جاءت لرؤيتها، هي من القلّة الّتي لم تنقطع عنها، زال الصّحبُ بزوال الاهتمامات المشتركة وبقيَ الّذين يهتمّونَ بالآلام ويتشاركونَها.

-صديقتي حبيبتي... اشتقتُ إليك...

فرحتْ يسرى كثيرا وأبشرتْ برؤية سلمى الطيّبة.

-وأنا أكثر، كيفَ حالك؟

-دعينا من حالي وأخبريني عن حالِك.

-أنا بخير... الحمد لله.

-لقد قرأتُ الكتابَ الّذي أعرتِني إيّاه.

-وما رأيك؟

-من الصّعبِ وصف الأمر... وكأنّها... وكأنّها حياةٌ جديدة تعيشينَها وتندمجينَ فيها.

-وهذا رأيي، تظلّ عالقة بذهنك أيّاما بعدَ قراءتِها.

-سمعتُ أنّ الجزءَ الثّاني منها سيصدرُ خلالَ أشهر.

ارتسمتْ على وجهِ يسرى ملامحٌ حزينة، هي تعلَمُ صعوبة عيشها أشهرا أخرى، استطاعتْ ملاحظة ذلك من جسدِها المتثاقل وعضلاتها الّتي تهدّد بالضّمور أكثر في كلّ يوم جديد.

-أتمنّى لقاء الكاتب لبضع ثوانٍ فحسب.

-أ لهذه الدّرجة؟

-لا... لديّ سؤال أودّ أن أطرحَهُ عليه لا أكثر.

-ما هو السّؤال؟

-أريد أن أسألَهُ إن كانَ ما كتَبَهُ حقيقيّا.

-وهل يشكّل ذلك فرقا؟

-نعم، فرقا كبيرا... أريدُ أنْ أصدّقَ أنّ هنالكَ من يحبّ مثلَ أحمد ومن تضحّي حقّا مثل ميلين، أريدُ أن أستعيد الأمل في الحبّ، أن أبحثَ عنهُ... أن أسعى لعيشهِ ولو لثانية واحدة.

-قالتْ لي أمّك أنّكم ذاهبونَ إلى البحرِ مساء.

-نعم، هذا صحيح.

-هل آتي معك؟

حضنتْ يسرى سلمى سعيدة بوجودِها قربَها في هذه الأيّام الحالكة...

كانَ المساءُ يقتربُ على مهلٍ وصدرُ سلمى يضيقُ بأمرٍ تخفيه يكادُ يتسرّبُ مع أنفاسِها، مع حلول العصر كانتا على بعدِ أمتار معدودة عن شاطئ "شنوة" بـ "تيبّازة"، كانَ الجبلُ شاهقا كدعاء مُلحٍّ يطرقُ أبواب السّماء، وكان الربّ فوقَ كلّ شيء جميلا جدّا فكسى قمّة الجبل بغيومٍ تحوم حولَه ككاسر يأبى أن ينقضّ، غادرتا وحدَهما بطلبٍ من يُسرى، هناكَ أخرجت ورقة كتبتْ عليْها كلماتِها: "حبّي إليكَ يا من لا يشعر بك أحد!"، ورسمت قربَ عبارتِها قلبا وابتسامة أمل، أخرجت قارورة زجاجية وضعت فيها رسالتَها وأغلقتها بسدّادة فلّين ثم سلّمتها للبحر، لم تعلمْ سلمى لماذا فعلت يسرى ذلك... هي نفسُها لم تكنْ تعلم، لكنّ الأمر كانَ جميلا بحيث أشعرها بالرّاحة والارتباط مع أشخاصٍ لا تعرِفُهم، شعرتْ أنّ الرّسالة ستسُرّ أحدَهم أينَما وُجد... وفي مكانٍ بعيد جدّا التقط أحدهم الرّسالة وأنقذته من الموت!

-يسرى، استعدّي سأخبرك بأمر ما!

كانتْ نبرتُها سعيدة جدّا وعيناها تتلألآن فرحا، استبشرت يسرى لذلك اقتربت وهمستْ سلمى في أذنِها، كأنّها تخشى أن يسمَع أحدُهم هذه الكلماتِ المقدّسة الّتي لا تليقُ بالجميع ولا تُسعد أيّا كان، انفتحت عينا يسرى على مصراعيهِما متفاجئة وقالت:

-غير ممكن! مستحيل...

المرّة الثّانية؟

يحدثُ أن يجرحَ الرّجال أنفسَهم بشفرة الحلاقة دوما عندَ تجريبِ نوعٍ جديد منها، مشكلتهم أنّهم حينَ يتعوّدون على أمرٍ ما يشعرونَ أنّ كلّ ما يشبهه يمكن التّعاملُ معه بالطّريقة نفسِها، يتخلّونَ عن منطقهم وحذرهم لكنّهم يصطدمونَ باستمرار بمفاجآت على مدى حياتِهم.

منحَ عليّ فتاتَه الجديدة "إيمان" بعض الوقت لتجاوز الماضي، هو نفسُه لم يكن يدري إن فعَلَ ذلك من أجلها أم من أجله، فهو يحتاجُ بدَورِه للتحقّق من مشاعره لألّا تتكرّرَ قصّة أريام مجدّدا.

عليّ من النّوع الّذي حطّم كثيرا من القلوب، ليسَ لأنّه أرادَ ذلك لكنّه كانَ جذّابا بذاك القدر الّذي يجعلُ الكثيرات يتمنّينَه، لم يشعر أنّه مخطئ إلّا مرّة واحدة في حياتِه وهي المرّة الّتي أنهى علاقتَه بأريام فيها.

قالَ لرفيقته الجديدة إيمان ممازحا وهو يقصد حبيبها السّابق:

-هل كانَ مميّزا جدّا مثلي؟

امتزجت ملامِحُها بين حزن وابتسامة وهي تنظر إلى الأرض كأنّها تتذكّره:

-وهل أنتَ مميّز؟

فاجأتْهُ إجابتها جدّا، لم تجرأ أي فتاة قبلَها على قولِ هذا ولو مزاحا، كلّهنّ كنّ يذبْنَ أمام جاذبيته وعذوبتِه، فلا يملكنَ إلّا أن يقلنَ كلماتٍ تليقُ بمقامِه في أنظارهنّ، سرعان ما تداركَ الموقفَ سائلا:

-وهل كانَ كذلك؟

-لا يزال كذلك.

-غريبٌ تخلّيه عن درّة مثلك مهما كانَ تميّزه.

ابتسمتْ وقالت:

-أشعر بالإطراء.

-إنّها الحقيقة، يبدو أنّك لم تسمعيها بما يكفي فحسب لتعتادي عليها.

-على العكس... هل جرّبت إغماضَ إحدى عينيك لرؤية أنفك الّذي تتجاهلُه عيناك باستمرار؟

-ربّما... لا أتذكّر.

قالَها عليّ وهو يجرّبُ ذلك، ثمّ قال مبتسِما:

-هذا يُفلح! أ لا يعني هذا أنّ أنفي كبير فحسب؟

ضحكتْ إيمان من دعابتِه خافضة رأسها كأنّها تستحي من شخص ما يقف أمامها ثمّ قالت:

-هكذا هي عبارات الثّناء، تسمَعُها كثيرا إلى أن تصبِحَ شفّافة بلا معنى، لكنّك حينَ تحاوِلُ أن تسمَعها حقّا ستسمَعُها كأنّها المرّة الثّانية.

-المرّة الثّانية؟

-نعم... المرّة الأولى تبقى دوما ملكا لشخصٍ ما لا ينازعُهُ إياها بشريّ!

-أظنّني عرفتُ من هو هذا الشّخص.

-ومن هو؟

-إنّه ذاك الشّخص المميّز.

في هذه اللّحظة أدركَ عليّ صعوبة الحصول على قلبِها، غالبا ما يضعُفُ الرّجال أمام المرأة الضّعيفة، لكنّهم يتعلّقونَ بها أكثرَ إن كانتْ صعبة المنال.

ابتسمتْ مؤكّدة استنتاجَه الأخير، مسجّلة حضورَ هذا الشّخص في قلبِها، كيف يمكنُه محو تلكَ الذّكرى الّتي لا تفتئ أن تعودَ إليها محدّثة إياه عنها، كيف يمحو الخامس من سبتمبر ذكرى أوّل لقاء بينَهما في ساحة الابتدائية؟ الأمر الوحيدُ الّذي تذكّره عليّ في هذه الأثناء هو أنّه ربّما كان أيضا الشّخص المميّز بالنّسبة لإحداهنّ، طيفُ أريام يساورُه مجدّدا، صار يخشى الآن أن يندم وأن يكونَ خسرَ شخصا يعني له الكثير، ربّما تحطّم حبّهما-هو وأريام-كالبناء الشّاهق، لكنّ تحتَ الأنقاضِ تظلّ الأرضُ ملكا لأصحابِها وقد يقومُ عليها منزلٌ من جديد، ربّما يكونُ مختلفا لكنْ أصلَحَ ليجمعهم كوحدة مجدّدا.

توقّفتْ عن المشي فجأة بعدَ دخولِهما المقهى، نظرتْ إلى المائدة بالجهة السفلى الواقعة في الفناء طويلا، لم يكنْ بالإمكان نسيانها، كانَ مقهى "بارادو" بالعاصمة فاخرا بمعايير عاليّة، وفي محاولة لعكس الرّقيّ كان التّعامل باللغة الفرنسية، تذكّرت جلوسَهما على هذه الطّاولة ورفضَه التّكلّم مع النّادل بالفرنسية، كانتْ مجرّد ذكرى لا أثر لها في مستقبلهما بأيّ شكل، لكنّها الآن تبدو أثمن من أيّ وقتٍ لأنّها تخصّه، ومجدّدا ابتسمتْ متذكّرة ما كان يقوله لها عن حبّه لكلّ ما يخصّها مستشهدا بقولِ الشّاعر: "وأحبّها وتحبّني ويحبّ ناقتَها بعيري".

ذكرياتها كانت تماما كالحلم، بعدُ المنالِ رغمَ عيشِه، ويمضي داخلَه الحالم سنوات رغمَ أنّ مدّته دقائق قليلة، استفاقت بعدَ ثانيتين من الغياب التّامّ ثم قالتْ لعليّ:

- لم يكن هو!

استغربَ عليّ متفاجئا من تصرّفها:

- لم يكن ماذا؟

- لم يكن هو من انسحبَ من العلاقة... أنا فعلت!

كانَ ينظرُ إليها فحسب متعجّبا، هل هي مخبولة أم ماذا؟ تقولُ تارة أنّها تهيم به حبّا، ثم بعدَ قليل تقولُ أنّهما افترقا لأنّها أرادت هذا... بعدَ وهلةٍ فهِم أنّ قلبَ هذه الجميلة ضاقَ بما يحمِلُه وهو على وشكِ الانفجار، لم يكنْ مخطئا فما أسرّته له لاحقا غيّرَ مستقبَلَه...

كلّ ما جالَ في خاطره هو ذاك اليوم حينَ طلبَ منهم المعلّم اختيار أيّ رقم يشاؤون، ثم أتبعَ ذلك بسلسلة من عمليّات الجمع والضّرب والقسمة والطّرح، في النّهاية وجدوا كلّهم النّتيجة نفسها، كانَ درسا للحياة! فالبشر في هروبِهم من القدر يرسُمون خطّتَهُ الّتي كانَ يريدُها منذُ البداية، يوهمهم أنّهم يقودُون المركبة بينَما لم تكنِ المركبة إلّا لعبة أطفالٍ داخلَ مركبة أكبر منها لن تغيّر اتّجاهها مهما حصل.

أحكمُ البشر

" لمَ تواصلين الهروب من الذّكرى؟ شئتِ أم أبيتِ أنا أحلى ذكرياتك، أنا جزء من هوّيّتك وشخصيّتك، من ماضيك ومستقبلك، أنا بنيتُ بعضَ أركانك، أنا من فتقَ قلبك بالحبّ، أنا من كنتُ أكبرَ أملٍ دقّ له قلبك... وأكبرَ خيبة فطرتْ فؤادك... أنا هُوِّيتُك!"

بإنهائها قراءة هذ الكلماتِ، تساقطت عبرات إيمان تواليا، قرأت كتابَ محبوبها الّذي تخلّت عنه، رسائلهُ كانتْ تعنيها وتقصدُها دونَ احتشام ولا استتار، وجدتْ كلّ الأسئلة الّتي من الممكن أن يطرَحَها شخصٌ شعرَ بالغدر ومشتاقٌ لم يعدْ يملكُ زمامَ مشاعِرِه، لم تستطع منع نفسِها من اختلاس إطلالة على حسابه كلّ بضعة مئة نفَس، إنّه القدسيّة الّتي يجبُ أن يكونَ عليها الرّباط بين كلّ محبَّين بحقّ.

لم تواصلُ الهروب؟ لو أجابتْهُ عن هذا السّؤال لأصبحَ هروبُها بلا معنى، حبيبُها كالتّلميذ الّذي يطلُبُ من أستاذِه تلميحا عن الإجابة، لكن ماذا لو كانَ التّلميحُ نفسُه الإجابة، ستواصِلُ الهرب فحسب، أيّامُها باتت معدودة على هذه الأرض، اللّه يشهدُ أنّها حاولتْ ألّا تؤذيه لكنّها كالأمّ الّتي تُعرّض طفلَها للفحة النّار حتّى لا يقتربَ منها مجدّدا فتحرقه، إيمان صارتْ موقنة الآن أنّ محبوبَها يعلمُ أنّها لم تكفّ عن حبّه ولن تفعلَ يوما، لقدْ وصفَها بصفاتٍ جعلتْها استثناءً، اعتبَرها نعمةً اختصّه الله بها وحدَه دون كلّ البشر حين قال في حديثه عن فؤادها مجدّدا في منشور آخر:

"ما تلك اللّذة الّتي لم يتّصف بها غيره ولم توصف لسواي؟"

في نسخٍ سابقة من كتاباته كان يتغنّى بعينيها، أمّا الآن وقد صار مرادُه يتعلّق بأحاسيس أعمق فقد توغّل إلى منتهاها وصولا إلى القلب.

أمضتْ أيّامها تحاول إبعاده عنها، خطّطت لذلك في كلّ لحظة، حاولتْ أن تجعلَهُ يكرهها، منحتْها الأيّام بعضَ الفرص لتحقيق ذلكَ حين التقتْ الطّبيب "عليّ"، لقد فُتِنَ بها من أوّل يوم، كانتْ في مستشفى مصطفى باشا رفقة والدتها في انتظار نتائج الفحوص، صادفَ ذلك مرورَه بالمصلحة، مرّ تاركا بعضَهُ هناك، بصرُه لم يتزحزح عنها للحظة، لا بدّ أنّه شعورُ كلّ من يلتقيها، محبوبها نفسُه كتبَ عنها يوما:

"أخاصمُها رغمَ الكلومِ مجافيا يغادِرُها بعضي وبعضي يعودُ"

أرادَ عليّ أن يعرِضَ عليها المساعدة أو أن يجدَ أيّ عذرٍ لمحادثَتِها على الأقلّ، في تلك الأثناء طلبَ طبيبُها دخولَها رفقة أمّها، ملامِحُه لم تكنْ مبشّرة بالخير، لقد اعتاد ربّما على صنعِ هذه الملامِح بعدَ عشراتِ المرّاتِ الّتي اضطرّه الموقفُ فيها لإبدائها، لذلك لا أحدَ يعلمُ إن كانتْ صادقة نابعة من قلبِه أمْ أنّها لا تعدو كونَها إحدى وسائله كالوصفات والمشرط والمقصّ... لعلّ الضحكة الّتي تعقبُ النّكتة لا تكونُ صادقة إلّا في المرّة الأولى، لكنّنا حينَ ننظرُ إلى الّذين يضحكون من حولنا، نقتبِسُ منهم مرَحَهم وملامِحهم ورغبتهم في مزيدٍ من الضّحك، لذلك الضّحكة التّالية غالبا ليست ضحكَتنا، ثمّ بعدَ مرّاتٍ من سماع النّكتة نفسها تنتفض عنّا كلّ رغبة في الضحك ونكتفي بابتسامة نبدي فيها أسناننا في أقصى درجات اللّباقة... لم تظنّ إيمان أنّ صدقَ ملامح الطّبيب سيصنعُ فارقا مادامَت قد نجحتْ في تأدية دورِها، لقد أعدّتها وأمّها لسماع الأسوء فحسب، إيمان في حالة متأخّرة من الحياة ولو كانَ الطّبيب أكثر صراحة لقال أنّها حالة متقدّمة من الموت، في البداية ضحكتْ من هذه العبارة، لم تؤمنْ يوما أنّ عددَ السّنين يقرّبنا من

الموت، لطالما عاشَ الموتُ فينا كلّ سنة وكلّ دقيقة من وجودنا، عاشَ كإمكانٍ سيحصلُ في أيّ لحظة، بل لعلّه حصلَ مرّاتٍ ومرّاتٍ في عوالمَ موازية أخرى، صدرُها كانَ أصغَر من أن يحملَ الحزن والسّخرية معا، لذلك اكتفت بالسّخرية ريثما تتذكّر كلّ الأمور الّتي تستحقّ أن تجعلَها تحزن، أمّا أمّها فقد انهارتْ تماما، لا توجدُ طريقة سهلة للرّضوخ، إنّما تقبّل الأمور ما يجعلُها تهونُ بشكلٍ أسرع، فجأة تذكّرت أحدَ الاسبابِ والّذي سيجعلُها تحزن كثيرا حينَ مرّت في ذاكرتِها أبياتُ حبيبِها من جديد، لم تكنْ إيمان تختلفُ عن عجوز تحفظ حكمَ "ناس زمان" وتتّخذُها عقيدتها، الفرقُ الوحيدُ هو أنّ إيمانها كان بكلّ ما قالَه:

فاعشق ولا تنسَ الفراقَ دائما إمّا المماتُ ضاربٌ أو المللْ
فكلّـما نَسيتها مستعجِلا عانيتَ من ويلاتِ حبّها أقَلْ

رغمَ أنّ الحكمة تفيضُ من هذين البيتين، إلّا أنّه من الواضحِ أنّه لم يكن يقصدُها، ذاكَ لأنّه عوّد نفسَه على نفي وجودِ نهاية لحبّهما، قالتْ له ذاتَ يوم والحياةُ بدتْ مفروشة بالأحلام أمامهما بُعيدَ أيّام من فوزهما بالبكالوريا حين فرّقتهما الخيارات لأوّل مرّة، أيّامها كانتْ مستعدّة للتخلّي عن حُلمِها من أجلِه... من أجلِ حلمِها الأعظم، بل أنّها أوشكتْ كثيرا على ذلك بينما يجلسان أمام الحاسوب لملء الخيارات بقاعة الأنترنات لجامعة "طاهري محمّد"، غير أنّه حرصَ على أن تختار التخصّص الّذي رغبتْ به دوما.

-إذا افترقن...

وضعَ يدهُ على فمِها وقالَ

-إيّاك أن تفكّري في ذلك حتّى، سنموتُ معا أو نحيا معا.

-المحبّون لا يموتون.

-كيف ذلك؟

-لأنّ هنالك من يحتفظ بهم في قلبه.

-ممم... والكارهونَ كذلك لا يموتون.

ضحكت وقالت:

- وكيفَ ذلك؟

-المحبّون والكارهون... كلاهما علّق قلبَه بشخص آخر، لذلك لن يسقط القلبُ حتّى تسقطَ معلَقته...

-يقالُ أنّ الكره عاشَ ذات يوم كحبّ، ما رأيك؟

-يستحيلُ أن أصدّق أنّي قد أكرهكِ يوما، لذلك لستُ موافقا على هذه المقولة.

-قد أحاولُ فعل ذلك يوما ما، من يدري؟

حوارُهما يومَها بدا مجرّد حوار عادي، لكنّها اليومَ تستغربُ منهُ كلّ الاستغراب، إنّه أشبهُ بكلمات قالها شخصٌ أمامَهُ حياةٌ طويلة في آخر لحظاته ثمّ ماتَ فجأة، فتتحوّل تلكَ الكلمات إلى ألغازٍ يتداوَلها النّاس ويفسّرونَها وينسجونَ منها التّآويل، الحكمة روحٌ تسكنُ أيّ شيء في أيّ لحظة، قد تتجلّى في أيّ

شيء، أحكَمُ البشر هو رجلٌ ينازع في آخر لحظاتِه ولسوء الحظّ هو أعجز البشر كذلك، ربّما من أجلِ هذا وزّعت حكمة لحظتنا الأخيرة على بعضِ أيّامِنا على شكلِ إرهاصات أو ومضات، لعلّها تفيدنا ما دمنا لم نعجز عن الانتفاع بها بعد.

كانَ من الواضحِ أنّ الأمر مستعصٍ وإلّا لاكتفتْ إيمان بالعلاج في مدينة "بشّار" خلال العطل وهي قريبة من أهلها، خرجتْ وأمّها من غرفة الطّبيب ورِجلا أمّها لا تكادان تحملانِها، أغميَ عليها فجأة، كانَ عليّ حاضرا هناك، أمنيتُه تحقّقت بعرض مساعدته عليها، تنمو ورودٌ على بقايا الورود وتبدأ علاقات على أنقاضِ أخرى، النّقيضُ يعطي للنّقيض قيمتَه، أمّا الشّبيه فيهدي للشّبيه حياةً حينَ يموت.

متشابهون

وصلتْ أريام بعدَ رحلة شاقّة قطعت خلالَها أميالا، شعرتْ بكثير من الرّاحة وهي تشمّ هذا الرّيح النقيّ قبلَ أن ينقلبَ حرارة لافحة خلال الأشهر القادمة، اتّصلت بدار عمّها وأعلمتْهم أنّها وصلتْ ليأتوا من أجل إحضارِها، رُزقت ابنةُ عمّها بمولودٍ جديد، كانتْ أريام متشوّقة لرؤيته وملاعبته، طلبت منها زوجة عمّها بإيعاز من زوجِها الحضور لمساعدة ابنتهما وإيناسِها، هما بدورِهما قطعا مسافة طويلة للحضور. دخلتْ البيتَ سعيدة متلهّفة للقاء ابنة عمّها ومولودِها، حتّى أنّها لم تعبئ بمستوى أرضية البيت المنخفض مقارنة بالخارج وكادتْ تسقطُ غير عابئة بانخفاض موطئ قدمِها، كما أنّ الإضاءة كانت ضعيفة وهذا حال معظم البيوت في هذه الأحياء الّشعبيّة، عانقت أريام ميلين بلطفٍ قائلة:

-مبارك لابنة عمّي الحبيبة.

-"يبارك فيك والعاقبة ليك"

-غافلتني أيّتها الشقيّة.

-أحبّ مفاجأتك بين الحينِ والآخر.

-حسنا، احرصي على ألّا تكونَ المدّة بين الحينين طويلة جدّا.

حملتْ أريام الطّفل برفقٍ شديد وابتسامة، كلّ ما فيها يتطلّع إلى يوم ترزَقُ بابنٍ أو ابنةٍ جميلة فيه... في هذه الأثناء دخلَ أحمد عائدا من العمل، ابتهجَ حال رؤية زوجته وقال:

-كيف حالُ حبيبتي ميلين؟

-بخير، الحمد لله.

التفت إلى أريام قائلا:

-أهلا بابنة عمّ زوجتي الجميلة، يسرّنا جدّا مجيؤك.

ردّت بخجلٍ:

-شكرا لك، تبدو بحال جيّدة، الحمد لله على سلامتك.

عانى أحمدْ لمدّة من المرضِ الخبيث واستطاع بفضل من الله ثمّ دعمٍ كبير من زوجتِه ميلين التغلّب عليه، عادَ مشرقا بالحياة كما كانَ أيّام التقى حبّ حياته ميلين أوّل مرّة، كانا واثقين جدّا من أنّهما خُلقا ليكونا معا.

كانتْ أريام مستمتعة جدّا بتغيير الجوّ، الأيّام تمرّ بهدوء واستقرار، تخلّصت من ذاك الفراغ القاتل الّذي حاصرها في غرفتِها خاصةّ مع مغادرة رفيقاتِها لها بعد الحالة البائسة من الاكتئاب الّتي دخلت فيها، وكأنّ الفراغَ الّذي داخلها لم يكن كافيا، شعرتْ بالارتياح الشّديد في هذه المدينة، مقاييسُها أقلّ من مقاييس العاصمة العمرانية والخدماتيّة بوضوح، لكنّ قلبَها انشرحَ للبقاء خاصّة وأنّ اختصاص الطّبّ الّذي تزاولُه موجودٌ هنا أيضا، قرّرت في تلك اللّحظةِ الانتقال إلى هذا المكان الجميل، نادتها ميلين وهي تتّخذ قرارَها في آن واحد:

-أريام! افتحي الباب من فضلك!

فتحتْ أريام باب البيت، كانَ رجلا غريبا...

-أظنّك السّيدة ميلين... إن لم أكن مخطئا.

ضحكتْ وقالت:

-لا، ميلين ابنة عمّي... سأناديها.

كان غريبا لكن طريفا جدّا، أسمرا عريَض المنكبين يرتدي نظّارات توحي بجدّيّته على خلافِ ما تبديه كلماتُه، مشرقٌ كسماءٍ ربيعيّة ورشيق الملامح كورقة خريفيّة تتمايد بين النّسمات أثناء السّقوط، شعرتْ بشيء ما يمرّ بينَهما، لم يحدّدا بالضّبط ماهيته لكنّه كانَ جميلا ومبهجا بشكلٍ رائع، دخلتْ أريام وطلبت ميلين الّتي خرجت لمعرفة هذا الغريب الذي جاء دونَ سابق إنذار، لم تستطِع أريام مقاومة نفسِها الّتي دفعتْها إلى مراقبتِه من داخلِ البيت دونَ أن يشعرَ بها، إلى أن حرفَ عينَهُ فجأة ولمحها، قفزتْ مختفية خلفَ الجدار في إحراج شديد وهي تمسكُ بشعر صدغيها بين أصابِعها المتشنّجة وتشدّه، ظنّت أنّها مختفية وسط ظلام الغرفة، لعلّها كانتْ على حقّ إنّما أغفلتْ جزئيّة أنّها بدتْ في عينيْه مشرقة كمصباح ليليّ وحيد في غرفة بالعمارة المظلمة.

"يا إلهي لقد رآني... يا لي من غبيةّ... حمقاء.... حمقاء!"

بعدَ مغادرته عادت ميلين إلى الغرفة، أينَ جلستْ أريام مضطربة بين الإحراج والإعجاب فوقَ السّرير الّذين يئنّ كلّما مالتا فوق أضلاعه، نظرتْ إليها راسمة تعابيرا ماكرة:

-ممم...

-ممم...؟

-إنّه صديق أحمد، قالَ أنّه سيعود في وقتٍ لاحق وأهدانا كتابه الجديد.

-إذا هو مؤلّف!

-نعم مؤلّف مغترب في المحر.

-آها... وما عنوان الكتاب؟

كانتْ أريام تسأل بحماس وشوقٍ للإجابة.

-أسطورة أقمد.

-أسطورة أقمد؟ القصّة الشّعبية لمنطقتنا؟

-نعم...

-أرجوكِ دعيني أقرأه...

-حسنا... لقدْ طلبَ موعدا معك...

-موعدا؟ معي أنا؟

-نعم... تبدين متفاجئة جدّا... أظنّك أعجبته.

كانتْ أريام معتادة على إعجاب الشبّان بها، لكن ليس إعجاب الأشخاص الّذين تعجبُ بهم بدورها، كانتْ تهمّ بطلب بعض الوقت للتّفكير قبل أن تقاطعها ميلين:

-لن تخسري شيئا، إنّه مجرّد موعد للغداء، سيعودُ لاحقا من أجل أحمد ويحتاجُ إلى ردّك.

-حسنا... لا بأس.

استعدّت أريام للغداء بعدَ أن حدّدا موعدا، لكن الآمال الكبيرة تحملُ الخيبات الأكبر، وصلتها رسالة على هاتفها: "أعتذر... طرأ أمر وعليّ العودة إلى المجر."

ألغي الموعِدُ يومَها، عاودَها ذاك الشّعور المقيت، شعور الطّفل الّذي يوعَدُ بالحلوى ثمّ لا يحصلُ عليها، لم تردّ على الرّسالة حتّى، الرّجال كلّهم متشابهون، أغلبهم ليسوا جادّين في بداياتهم والجادّونَ منهم لا يجيدون الالتزام بما بدأوه، كيفَ خالتْ أنّ هذا الكاتب مختلف لمجرّد أنّه كاتب، لقد انخدعتْ بحروفِه كثيرا، كانتْ تحمِلُ مشاعِرَ هائلة وقِيَما كثيرة: وفاء وحبّ وتضحية و... لكنّه لم يفقه منها شيئا، نادرونَ هم الرّجال الّذين يشبهونَ أحمد.

مضتِ الأيّام سريعا، عاودَ الكاتب الاتّصال بها مرّات ومرّات، كانَ يعلمُ أنّها غاضبة منه، لم يشأ أن يخبرَها أنّ سببَ رحيله المفاجئ هو موتُ حبيبتِه السّابقة إيمان وعدم تحمّله لذلك، حينَها سيقضي على أيّ أملٍ بينَهما... بعد بضعة رسائل يداعبها فيها ويعتذرُ منها بفكاهة عالية، قبلتْ اعتذارَه وتواصلتْ الاتّصالاتُ بينَهما إلى أن عادَ إلى أرض الوطن واستقبلتهُ بنفسِها في المطار، لتجمعَهما المواعيد في المقهى الذي أصبحَ عرّاب أحاديثهما، شعرتْ أريام أنّها وجدتْ شخصا ليسَ أحد أجزاء الوحدة الأساسية "عليّ"، شعرتْ أنّها أمام وحدة جديدة قائمة بذاتِها، كانَ لقاؤه سببا إضافيّا يدفعُها للانتقال إلى مدينة بشّار، ستتمكّن من مواعدته لفترات أطول حينَ يعودُ من الغربة من أجل زيارة عائلته.

مقهى "حسّي"

التقمتُ ظرفَ الرّسالة الّتي أعطاني إيّاها صديقي أحمد، قال لي حينَها:

-لا أملك الكثير من النّصائح لك، لكنْ إن شئتَ أن تبدأ حياتك فعليك معرفة بعض الأمور، خاصة وأنّك تريد بدأها مع ابنة عمّ زوجتي أريام

كنتُ أتساءل عن نوع الأمور الّتي يريد منّي معرفتها، هل يتعلّق الأمر بماضيها أم بظروفٍ معيّنة؟ سألتُهُ:

-هل هو نوع الأمور الّتي يجب أن نغدو عليها أم تلكَ الّتي هي موجودة فينا سلفا وما علينا إلّا التعوّد على تركِها تأخذ نصيبَها من طبعِنا؟

-أنتَ والأمور الّتي داخلك... على أحدكما أن يكونَ جزءا من الآخر في كلّ الأحوال.

-لا بدّ أنْ تنتمي إليّ ما دمتُ الكلّ وهي بعضي!

صمتَ قليلا ثمّ قال:

-يجبُ ألّا نكونَ بالوقاحة الّتي تجعلنا نعتقد أنّ الفكرة الّتي تطفر في عقولنا هي جزء منها، ففي النّهاية ينتمي العقلُ إلى الفكر الّذي يتبَعُه وليس العكس، قد تسأل نفسك يوما: "هل المستوي ينتمي إلى المستقيم؟"، قد يكونُ هذا ثوريّا لكنّ المستقيمَ حينَ يقرّر أن يتقاطعَ مع مستقيم آخر يغدو محدّدا للمستوي، حينَها يكونُ المستوي الّذي نراهُ نتيجة رغمَ أنّه كانَ موجودا مسبقا، من ينتمي إلى من؟ وهل انتماءُ الكلّ إلى البعضِ حقيقٌ بأن يكونَ إمكانا حقّي؟

كنتُ كالعادةِ مندهِشا من فكر هذا الفيلسوف وأحاول أن أجاريَ أفكارَه المتتابعة وفصاحتَه الآسرة:

-أظنُّ أنّ الطّيبين يسمّون كذلك نسبة إلى قلوبِهم الطّيبة، لذلك نعم! قد ينتمي الكلّ إلى البعض وحينَها يصبحُ الجزءُ كلّا جامعا وشاملا، كأنّه لا وجود للجزء منذ البداية، بل هنالك الكلّ والكلّ الشّامل فحسب.

بعدَها، فتحت رسالتَه وبدأت القراءة، بينما واصل تأمّل كلّ شيء يحيط بنا ويتقاطعُ مع زاوية نظرِه، كان معتادا على ملاحظة أيّ أمرٍ مختلفٍ كفتاة تمشي بغنج زائد أو غريبٍ رمق أحدنا بنظرات غريبة أو طفلٍ يجري خلفَ هرّة، إلّا أنّه لم يكنْ يتحدّث إلّا عن تلكَ الحوادث الّتي يمكنْ أن تتداخل مع حياتِنا كأن يكون الطّفل يجري في اتّجاهنا أو أن يكون الغريب شحّاذا يمشي في مسار مستقيم ينتهي بنا مثلا.

"تبدو أعمارُنا أحيانا أطولَ من أن نتحمّلها، مشاريعُنا وأحلامنا يمكن اختصارها في بضع سنين، لكن ماذا نفعل في السنوات المتبقية؟ لعلّنا تجاوزنا أنفسنا وكلّ ما نفعله الآن هو مساعدة من يأتون بعدنا ليصبحوا بائسين مثلنا مستقبلا، أحيانا أنظر بسخرية إلى من حولي وأقول: "تبّا للجميع!"، ماذا دهاهم؟ ما الّذي يحاولون فعله؟ امتلاك النّقود ليهرموا أغنياء ثمّ ماذا؟ ثمّ يهرم أبناؤهم أغنياء مثلما فعلوا... أحتقر الجميع كلّ يوم وأحتقر نفسي مرّة في الأسبوع حين أضطرّ للنظر إلى وجهي كي أحلق ذقني، تعجبني نظرته حين يردّ إليّ الاحتقار، نتبادل النظرات لدقائق طويلة وكلانا يعلم أن الآخر مجرّد فاشل آخر، نقسم عددنا على مليارات السكان ثمّ نصبح مجرّد رقم بعد الصفر التاسع بعد الفاصلة... ماذا دهاني؟ أعلّم هذا الجيل كيف يغدو فاشلا بجعله يراني ناجحا... أغلب الأشخاص يملّون حين يغدون بلا هدف يعيشون من أجله، لكن ماذا لو امتلكت كلّ الأهداف الممكنة غير أنّها بلا معنى في النهاية، ماذا لو كان ما نفعله هو

إعادة تدوير فحسب؟ نلد أولادا ليلدوا أولادا ليلدوا أولادا... أليس هذا مجرّد غريزة حيوانية؟ نحنُ موجودون لنعيش أمرا آخر لم يعدْ موجودا، لقد سبق وغادرنا إلى مكان الخلود، الرّضى والحبّ الصادق والصّداقة... نحن نعيش لنستمتع بكلّ هذا ولم نعد نجدُ غير النفاق والشقاق والحسد والبغض والمصلحة... لماذا نعيش الآن؟ نعيش من أجل ألا نترك أولئك الذين يحبوننا وحيدين ونحن نخشى أن يتركونا كذلك وسط هذا الصّقيع، وسط عالم مجرّد من الألوان، عالم يجذب الجميع ويغريهم كمومس عارية من الثّياب وخلف ظهرها تحتفظ بوتد تدقّه في قلب من يتعلّق بها. نحتاجُ من يدفع لنا مقابل العيش أو أن ندفع لشخص ما مقابل تقمّصنا ريثما نمضي إلى مكان أفضل على ما آمل... لكن لا أحد يملك ما يكفي من الحبّ كي يدفع لنا كما أنّنا لا نمتلك ما يكفي من الدّناءة كيف ندفع، أليس كذلك؟".

لم أفهم تماما ما يريدُ أحمد قولَه لكنْ أظنّه أرادَ منّي وضعَ إنسانيّتي أمامي في كلّ خطوة أخطوها، أن أتحلّى بالحبّ والصّدق والإخلاص وكلّ تلك المشاعر التّي غدت نادرة أكثر فأكثر، لم أجرء على سؤاله أو ربّما أردتُ تخييبَ ظنّهِ بشدّة وهو ينتظِرُ أن أناقشه في فحوى الرّسالة وسببها.

كانَ لقائي "بميلين" زوجةِ صديقي أحمد هديّة ربّانيّة، قبلَها بلحظاتٍ لم أكنْ أعتقدُ بإمكانية المضيّ قُدُما، ذاك لأنّ دربي بعدَ "إيمان" بدا مظلما، لكنْ خلالَ لحظة أشرقتْ "أريام" ابنةُ عمّ ميلين بين ظلال البيت في آخر مرّة زرتُ فيها أحمد، واستطعتُ أن أتبيّن بعض ملامح مستقبلي بفضلها، استطعتُ رؤية أوّل منعطفات الأيّام المتسارعة نحوي على الأقلّ... كانَ أوّل موعدٍ عاطفيّ لي منذُ سنواتٍ، بدا وكأنّه أوّل موعِدٍ لي على الإطلاق!

كنتُ قد عدتُ حديثا من المجر حينَها، إنّها أوّل مرّة أزور فيها أحمد في بيتِه الجديد، في الواقع لم يكن ملكا له إنّما انتهى بكرائِه كي تشعر كلّ من عائلته وميلين بالرّاحة التّامّة بتنعمّ الجميع بمساحة شخصية واسعة، لم يكن العنوان الّذي أحمله في ورقة عاديّا، فحيّ "الدبدابة" الّذي يسكنُه حيّ شعبيّ والعناوين غالبا تعتمدُ على ما يحيطُ البيتَ المقصود، وكأنّها تدلّك على كلّ شيء إلّا ذاك الّذي تريده وتختبئه إلى النّهاية، مشيتُ عبرَ "طريق الأميرِ وصولا إلى "جامع سّي احمد" ثم حيّ "النّيمرو"، أينَ سألتُ مجدّدا المارّة عنه كما يفعلُ الجميع هنا متحجّجين بالمثل الشّعبيّ: "لي بلسانه ما يتلف"، وصلتُ في النّهاية إلى تلك البناية المتهالكة، كان الآجر مرصوصا بتلك الطّريقة الّتي أعرفُها جيدا... طريقة "المساكين"، الخطوط غير متوازية والحفر تتناوبُ مع النّتوءات على مدّ الجدار، طرقتُ الباب ومن تلك البناية الحزينة أشرقتْ الفتاةُ السّعيدة، كانت ابتسامتُها تلك الابتسامة الّتي تجعلُ رجلا مثلي يبتسم ثمّ لا يتخيّل فتاة أخرى بابتسامة تضاهيها، غضضتُ سريعا لكنّ البصر كانَ أسرعَ من حَرفة العين، في البداية ظننتُها ميلين زوجة أحمد، لكنّ الحظّ كانَ أسخى حينَ تبيّن أنّها ابنة عمّها الجميلة "أريام"، لا أنكرُ أنّي سمحتُ لنفسي حينَها بتذكّر تفاصيلِها براحة نسبيّة، عينان عسليّتان كبيرتان وبشرة بيضاء صافية وشعر بنيّ أسيل وعباءةٌ قبائليّة صفراء جميلة جعلتْها تلمع في الظّلام... خفقَ قلبي واستطعتُ الإحساس بتدفّق الدّماء في كامل جسدي وارتجاف يديّ، ذاك لأنّي كنتُ أصارع نفسي مستجمعا شتاتَ أفكاري ومشاعري لطلب أريام في موعد، فجأة

أغمضتُ عينيّ فحسب وضغطتُ على الزّناد، إن تركتُ نفسي أفكّر فستكون نهاية تفكيري واضحة، سأعدلُ عمّا أودّ القيام به لذلك سألتُها:

-أودّ دعوة ابنة عمّك... ما اسمها؟

-أريام... اسمها أريام...

(يا إلهي... حتّى أنّ اسمها جميل أيضا!)

-نعم، أودّ دعوة أريام على كأس شاي إن أمكن!

حاولت ميلين إخفاء ابتسامتِها التي يخالجُها الضّحك، ربّما كانَ خجلي سبب ضحكِها، أخبرتني أنّها ستبلغها بطلبي ثمّ سأعرف الجواب عن طريق أحمد، كان ذلك محرجا جدّا قد يضطرّ أحمد لضربي حين يعلمُ أنّي تجرّأت على طلب هذا من زوجتِه، صارتْ سلامتي تعتمد على طريقة زفّ ميلين للخبر!

عاد أحمدُ للدّار واتّصل بي فور ولوجه البيت، التقينا بمقهى "حسّي" الواقع على جسر الدّبدابة الأوسط باعتبارهِ منطقة وسطى بيننا، لقدْ جدّد المقاعد منذ آخر مرّة جلستُ هنا، راقني ديكور الكراسي الّذي يبدو مظفورا كالسّلال الّتي نشأتُ على رؤية شخصيّات الرّسوم المتحرّكة تضع فيها التّفّاح، الأشجار تميلُ متقاطعة فوق الكراسي كظهر عجوز والماء يخرج من بين الصخور ويهوي إلى البركة بمساعدة مضخّة تدوير، هناك أين أعطاني رسالة ثمّ زفّ لي الخبر الجميل بدوره، أريامَ موافقة على الموعد! لم يعاتبني بأيّ شكل، ربّما لأنّ فرحتهُ بشفائه ومولودهِ لم تفقد مفعولَها للآن.

عدتُ للبيتِ ... كنتُ محتارا في غرفتي بعدَ أن حصلتُ على الموعد، أناقش ذاتي وأعدّ للقائي بأريام، أخاطب نفسي: "هذا الثوب غير مناسب لك! ولا هذا الثّوب... البدلة الكلاسيكية تجعلك تبدو جادّا جدّا، أقترحُ أن ترتدي شيئا شبابيّا بألوان مشرقة..."

الحياة مشكلة مستمرّة تتخلّلها فترات للاستراحة وهي نفسها الأوقات الّتي نشعر فيها بالسّعادة، النّوم يحتاجُ فراشا والأكلُ يستلزمُ نقودا والحبّ يتطلّبُ ثقافة وأناقة واهتماما، لمَ على الأمور الّتي نرغَبُ بها بشدّة أن تكونَ أعتى مشاكلنا؟ أعتقدُ أنّ هذه البدلة مناسبةٌ جدّا، لا يمكنني المخاطرة اليوم، كلّهنّ يدّعين النّظر إلى أعماقِنا، لكنّ بصائرهنّ ليست قويّة كفاية لتخترقَ ثيابنا الرّثّة وتنفذ إلى قلوبِنا.

لم أعتد الخروج في مواعيد عاطفية، أقصد أنّي نسيت كيف يفعل النّاس ذلك، حينَ كنتُ مراهقا كان الأمر أكثر بساطة، لكنّي لا أدري كيفَ يخرج الشّباب في مواعيدهم اليوم وماذا يرتدون وعمّا يتحدثون. نظرتُ إلى المرآة أمامي مخاطبا الشّخص الّذي يشبهني ويقلّدني لدرجة أنّه حريص على معاكستي، يتّجه يمينا حين أتّجه شمالا، يشبِه كلّ الأشخاص الّذين جعلوا تصرّفاتي الصّحيحة تبدو خطأ، كثيرا ما جعلني ذلكَ أُجانبُ الصّوابَ لكي أشعرَ أنّي على حقّ، هذا الشّخصُ في المرآة يحاولُ إقناعي أنّ على أحدِنا أن يكونَ شرّيرا! على كلٍّ أظنّني أعرف أيّهما أنا... يقالُ أنّ المرءَ لا يعرفُ نفسَهُ إلى غاية اللّحظة الأخيرة أظنّنا لو علمنا موعِدَ لحظتِنا الأخيرة فلن نعرف أنفسَنا مطلقا، لأنّنا حينَ تحينُ سنكونُ كلّنا طيبين جدّا.

-أيّها الساحر في المرآة! ... حتما تظنّ أنّك وسيم مثلي...

خاطبتُ صورتي الشرّيرة معجبا بهيئتي، اليومَ ألتقي تلك الفاتنة ابنة عمّ ميلين، سيكون عليّ بذل مجهودٍ كبيرٍ لتفتن بي، غير أنّ الجّهد الّذي ادّخرتُهُ فيما مضى من أيّام أكبر من ذلك، لدرجة أنّه يكفيني لأكون على طبيعتي، على الأقلّ هذا ما تتضمّنهُ خطّتي إن سارت على ما يرام.

اتّفقنا على أن نلتقي في الحديقة، تُلهمني الأزهار لاستحضار الكلمات الجميلة، سأبحثُ عن وردة جديرة بالنّظر إليها، ثمّ أستدرجُ ابنة عمّ ميلين لتجلس بجوارِها، هكذا سيسعني أن أخطف نظراتٍ سريعة إليها دون أن تشعر، لعلّها أشرس منافسة أرتّبُ لها بين وردتين، سأوزّع عليهما نظراتي مناصفة حتّى لا أغيظ أيّا منهما.

خرجتُ من البيت أتخيّر مواضعَ الخطى، الغبار يغزو الأرض هنا، بعد لحظةٍ أيقنتُ أنّ محاولاتي لا تعدو تخيّر الموضِع الّذي سيتّسخُ فيه حذائي، بئس الحذاء الأسود! في البداية، كنتُ أريد ارتداء نعل صيفيّ مكشوف، لكنّ تضاريس قدميّ تشّوهتْ من كثرة التعرّض للشّمس والمشي حافيا، وقد تُفزعان الجميلة وتفرّ هاربة ثمّ أضطرّ لاختطافِها لتعيشَ مع قدمِي إلى الأبد في نسخة رديئة من حكاية "الجميلة والوحش".

كانت تدغدغني هذه الأفكار لدرجة جعلتني أقهقه وحدي كالمجنون، قبل أن أستعيد توازني... ما الّذي أقوله؟ فيما أفكّر؟ من الواضح أنّي توقّفتُ عن التفكير منذ ساعات، بتُّ مدركا لهذا الآن حين تذكّرتُ أنّه ما من أزهارٍ في الحديقة لأنّ الفصل خريف! اندثرتْ خطتي العبقرية... بئس الأمر!

لم يكن مجرّد موعِد اعتيادي، هو بداية... هو نهاية! نهاية أحاوِل ترتيبَها لقصّة حبّ طالَ أمَدُها... بعدَ سنين طويلة، بتُّ أعلم أنّ حبّ "إيمان" لن ينتهي من تلقائه، ما لم أمضِ قُدما وأضعْ حدّا له، بعض الأمور تستمر فحسب لأن لا شيء يقف في مسارها، كجملة ميكانيكية لا تخضع لأي قوى مؤثرة، تمضي في روتينية أو تسكن في صمت.

الشّيء الوحيد الّذي كانَ يقفُ عائقا أمامي هو أنا، من الصّعب التخلّص من الأمور الجميلة المتفرّدة حتّى وإن كانت تؤذينا، ربما كانَ المثل الانجليزيّ الشّهير "اقتل حبيبك" مُحقّا... التخلّص من الأمور الّتي نتعلّق بها بشدّة إلى درجة تغدو فيها إعاقة، أليسَ هذا بالضّبط ما يتوجّبُ عليّ فعله؟

كانَت الرّسائل ترِدني على الفايسبوك، لكنّي تجاهلتُها كالعادة، يمكنُ للبعض أن يُرسِلَ أيّ شيء كما يمكن لأيّ كانَ أن يرسل بعض الأشياء، لكنّ الأمر أصبحَ مضجرا حينَ أصبح أيّ كانَ يرسل أيّ شيء... بعدَ انتهائي من إعداد نفسي، حملتُ هاتفي لأقرأ بداية الرّسائل، عسى أن يستحقّ بعضُها منّي قراءته، كانتْ إحداها من صديقٍ قديم لي أثارت اهتمامي، فبدايَتُها كانتْ "أريد أن أخبرك أنّ إيمان..."، أدركتُ في الحال أنّها تزوّجت من "عليّ" ذاكَ الجرّاح المغرور، شعورٌ قويّ داخلي أنبأني بأنّ هذه الرّسالة هي نقطة نهاية، لا يمكنُ لفتاة مثلِها أن تبقى عزباء لزمن طويل... فتحتُ الرّسالة متوقّعا كلّ الكلمات التّالية، كلّ الكلمات إلّا تلك... إيمان "ماتت!"

قبلَ لحظة لم تكنِ الأرضُ تسعني من شدّة السّعادة، قبل ثوانٍ كنتُ أخرج الملابس من حقائبي وها أنا ذا أوظّبها مجدّدا، ألغيَ الموعد مع ابنة عمّ ميلين، عدتُ إلى حقيقة الحياة... إلى المشاكل، لم يكنْ حالي أحسن من حال التّنين أقمد، هو فقد نفسَه وأنا فقدتُها وكلانا لم يعدْ يعرِفُ من يكون!

روح المكان

حضرتُ عددا كبيرا من الجنازات، لكن لم أستطع حضور جنازة إيمان، كانتْ أبقاها في ذاكرتي رغمَ أنّي غبتُ عنها، تركَتني إيمان حينَ كنتُ أستعدُّ لتركِها، كملاكٍ يجدُ نفسهُ طريحا فجأة بينَما كانَ يوجّه لكمتَهُ الحاسمة، هو لا يدركُ ما حصلَ للتوّ، سيفعلُ لاحقا بعدَ أن تهدأ العواطفُ الثائرة، أحيانا نستهينُ بخصمنا حتّى ندركَ أنّ خصمنا كانَ القدَرَ في صورة إنسان، لطالما سبقتْني إيمان بخطوة!

بدوتُ في صفحة الأيّام كقصّة مبتذلة تُقرأُ للاعتبار منها، و كنتُ فيها كالإسفلتِ الذي يُحملُ فوق العربات كالملوك ثمّ يوطئ تحتَ الأقدامِ كالحشرات، جالستُ الألم وتخيّلتُ نفسي واقفا هناكَ عندها وهم ينزلونَها إلى مثواها، السُّحُب داخلي غطّت شمسَ اليوم ورياحُ شجوني تكادُ تقتلِعُ الأشجار الهادئة، الدِّفء يغمرُ كلّ شيء إلّا أكوامَ الثّلوجِ الجاثمة على قلبي، في محطّات مماثلة، نبحثُ عن شخص ما لنلومَه على ما يحدث، نتدرّجُ بين الأشخاص بدأً بالّذين يستحقّون اللّوم وحينَ لا نجدُ من يشفي غليلنا نلومُ أنفُسنا، البعض يحرمُ نفسَهُ من الأكل والآخر يستثمرُ وقتَهُ في البكاء ومخاطبة من يعزّ عليه وإن كانَت شكواهُ لا تصلُهُ... بالنّسبة لي كنتُ أحتاجُ إلى مقعدي المعتاد هناك في الغربة بجوار تمثال "إمري ناجي"، لم أستطعِ الكفّ عن التخيّل ولم أعتبِر عدمَ حضوري جنازتها أمرا صائبا، أنّبني ضميري تأنيبا شديدا:

"كيفَ يسعُكَ ألّا ترى حبيبةَ عمرك لمرّة أخيرة؟"

كان عزائي الوحيد في ذلك عبارةٌ لطالما قالتْها لي إيمان:

" أنا لا أحبّ الوداع!"

اعتبرتُ ذلك وصيّة أخيرة منها، كنتُ أراها كلّ ليلة في المنام وأرى أهلها من حولها يضعونَها في التّراب، أحدّق في عيونِهم الخضراء الحزينة وأشعر بالقهر، رأيتُ إيمان في كلّ واحدٍ منهم، بعد مدّة قصيرة... لم أحتمِل الأمْر وهربتُ من هناكَ فحسب، أبصرتُها بعد ذلك في كلّ شيء وسمعتُها في كلّ همس، من المفارقة أنّ الذّكريات السّعيدة هي أكثر ما يثير الحزنَ لأنها انتهت وأنَّ الذّكريات السيئة تدعو إلى السّعادة لأنّها انقضت، كنتُ أمشي ويُصوَّرُ إليّ أنّي أمشي على وطأة قدمِها، لقد مرّتْ إيمان من هنا ذاتَ يوم، يا للقداسة! أيّ شرفٍ هذا الّذي منحتنيهُ حفنة التّراب! لم أستطعْ لومَ أحد ولم أجدْ لنفسي سببا يدعوني للومِها، حملتُ هاتفي قبيل الموعد وكتبتُ رسالة إلى أريام ابنة عمّ ميلين معتذرا عن حضور أوّل موعد لنا:

"أعتذر... طرأ أمر وعليّ العودة إلى المجر."

كانَت عليّ العودة قبلَ أن أجنّ، كنتُ ممسوسا بروحِ المكان، كل شبر يحتمِلُ قدمَها وكلّ منعطف موسومٌ بعطرِها، هربتُ من كلّ الأشياء الّتي أحببتُها لأنَّ صاحبتَها رحلتْ... رحلت إلى الأبدْ، هذا ما ظننتُهُ حينها، لكنْ ما الّذي تعدّه الأيّام لي؟

قضيتُ شهورا في المجر لا أفعلُ شيئا سوى العمل والجلوس بمقعدي أجترُّ الذّكريات أمام التّمثال، وعدَتْني ذاتَ يومٍ أنّ قلبَها سيظلّ ملكا لي إلى الأبد، كنتُ غاضبا منها لأنّها لمْ تفِ بوعدها لي وحرمتني منه طوال السّنين الماضية، ثمّ ها هي ذي ترحلُ لتتركني وحيدا.

–هل ارتحتَ الآن يا إمري؟ ها أنا ذا عدتُ إلى الوطن من أجل الأمور الّتي أريدُها لكنْ يبدو أنّها ترفضني، لابدّ أنّك سعيدٌ برفقتي مجدّدا.

بعدَ عودتي إلى المِجَرْ، كنتُ أخاطبُ التّمثال أحيانا وأدعو الله كلّ يومٍ ليُسمعني أمرا يسلّيني أحيانا أخرى، في أشدّ حالات حزني طلبتُ منهُ إشارة على أنّ هذا الوضع سيزول قريبا، ثمّ اعتبرتُ هبَّةَ النسيم أو سقوط ورقة من الشّجرة أو تغريدة عصفور إشارة إيجابيّة، جعلتُ نفسي أرى الأمور الّتي أريدُها حتّى أنّي ذاتَ يومٍ اعتبرتُ مرور سيّارة أمامي إشارة رغمَ أنّ احتمال ذلك لا يكاد ينعدم... ليست القوّة ولا المال ولا الأصحاب ما جعلني أصمد كلّ تلكَ الشّهور بل هو الوهم الّذي صنعتُه... الوهم ولا شيء غيره.

حملتُ علبة سجائري الّتي لم أستعملها إلى الآن وعدتُ إلى غرفتي، وضعتُها على الكرسيّ بعيدا عن مكتبي كأني أخلقُ بيننا مسافة أمان وكأنّي... أخشى أن تمتدّ يدي إليها دونَما شعور، ليس التّدخينُ من عادتي، لا يزال مجرّد احتمال أدرسُه... إنّها سجائر الوطن! أحضرتُها معي من مدينتي "بشّار" في حال احتجتُ مواساتَها كحلٍّ أخير، ما زلتُ قويّا بما يكفي لأقاوم تجريبها، رنّ هاتفي الّذي يشبهني كثيرا، كلانا وحيد جدّا هنا، نادرا ما يرنّ مساء خارجَ أوقاتِ العمل، لم يكن الرّقم على شاشتِه محلّيّا، رقمُ المتّصل من الوطن، بل وكانَ مؤلوفا جدّا بالنّسبة لي، أ يعقل؟! إنّه رقم إيمان الّذي محوته من القائمة لكنْ لم ينمحِ لحظة من ذاكرتي!

مقعدٍ خالٍ

على شاطئ "شنوة" بسواحل مدينة تيبّازة همستْ سلمى في أذن يسرى:

-كاتبك سيقيم قريبا معرضا!

-غير ممكن! مستحيل...

ردّت سلمى مبتسمة:

-صار الآن ممكنا عزيزتي...

-أنتِ لا تمزحين، أليس كذلك!؟

لم تتوقّع سلمى أن تكونَ ردّة فعل يسرى بهذه الحدّة، أ لهذا الحدّ ترغبُ في طرح السّؤال على الكاتب؟ بالنّظر لهذا، لم يعدْ يبدو خروج أقمد بحثا عن مجرّد جوابٍ لتساؤلِه في الحكاية غريبا، لا يزال في الدّنيا أشخاصٌ يقدّسونَ الأجوبة الّتي تخدِمُ أجزاءً من فكرهم أو فلسفتِهم أو طريقتِهم في الحياة، بهذا القدْرِ كانتْ يسرى جميلة، جمالٌ كهذا يُحتضر لكنّه ربّما قبلَ مغادرتِه سيغيّر شيئا في هذا العالم، قد تفعَلُ ذلك من دونِ أدنى شعور، الشّوارد في بحثها عن الاستقرار تأخذُ من المحيطِ حاجتَها وتساهمُ في تنوّعه ووفرة عناصره.

تأمّلت يسرى الشّمس وهي توشك على الغروب وبدأ لونها يجنحُ إلى الحمرة.

-أتدرين لمَ الشّمسُ جميلة؟

-أظنّ أنّك لا تريدين جوابا بقدر ما تريدين إسماعي الإجابة عن سؤالك.

-أنتِ محقّة...

-إذن؟ هل ستخبرينني بها؟

-هي جميلةٌ لأنّها ليستْ دائما جميلة.

استغربت يُسرى بقدر تحمّسها لسماع تفسير يسرى وسألتها:

-كيفَ ذلك؟

-أحيانا تعطينا ما نحتاجُهُ من دفئ وتلفحنا بحرّها أحيانا أخرى، تنير ظلامنا مرّة لنبصر من حولنا وتحرمنا من النّوم بوهجها أيضا.

-تظنّين أنّ على المرء ألا يكونَ جيدا دائما ليكونَ جيّدا؟

-أظنّ أنّ على المرء أن يكونَ على طبيعته الّتي يعتقد بصحّتها.

- لم أفهم ما ترمين إليه...

-تتقلّب مشاعرنا بين إقبال إلى الشّمس ونفور منها، لكنْ هل كانتْ مضطرّة للتغير يوما لإرضائها؟

-كلّا...

-مع ذلك ننفرُ منها بقدر رغبتنا فيها، لكنّنا نحبّها دوما لأنّها رائعة بكونِها ما هي عليه مهما يكن.

-آ... نعم...

التفتت يسرى إلى سلمى وقالت بكلّ سعادة:

-إنّها تذكّرني بك، هي مثلك... رائعة فحسب، شكرا لأنك لم تتغيّري بعدَ كلّ شيء!

-يا لك من حمقاء، ما الّذي جعلَك تعتقدين أنّي قد أتغيّر؟

قالت ذلك سلمى متأثّرة والدّموعَ تغادرُ حرفَ عينِها.

-كنتُ سأقول أنّك تشبهينَها، لكنّي قرأت ذاتَ مرّة أنّ المشبَّه يكونَ أدنى صفةً من المشبّه به...

-أنتِ أروعُ صديقةٍ حظيت بها يوما.

يسرى سعيدة جدّا بقرب موعد المعرض، ما الّذي قد يسعد شخصا في آخر حياتِه؟ حينَ تبدو كلّ اللّذّات على حقيقتِها... وتظهر فانية، أحيانا تشعرُ بالخوفِ من ألّا يكونَ السّؤال الّذي تودّ طرحه على الكاتب بتلك الأهمّية حين تطرَحُه، فبعض الأمنيات جميلة لأنّها أمنيات ولا يليق بها الواقع، فكّرتْ أيضا أنّ الأجدرَ بها الخوفُ من الإجابة، ماذا لو أخبرَها أنّ القصّة الّتي كتبَها مجرّد تأليف لا صحّة له، أنّ محبّا كأحمد ومضحّية كميلين غيرُ موجودَيْن؟ أملُها يجعلها مصرّةً على طرحِ سؤال لا تنتظر منه إلّا الجواب الّذي يرضيها.

حين يكون المرء بخير تتزيّن كلّ كلماتِه بالأمل وتُصبَغ نظراتُه بالإيجابية، الواقعية تبدو غير منطقيّة في ناظِرَيه، كالممتَحَنِ الّذي لم يُعدّ شيئا للامتحان لكنّه متفائل جدّا ومتيقّن من أنّ الورقة حينَ توضَع أمامَهُ، سيجدُ فيها الكثير ممّا يسرّه وكالمسافر الّذي لم يحجز مقعدا غيرَ أنّه واثقٌ بوجودِ مقعدٍ خالٍ أو شخصٍ ألغى رحلتَه هناكَ في المحطّة، غالبا ما تنقذُ هذه الآمال أيّامَنا الّتي ننتظرُ فيها وتُفرغُها من الملل والكآبة، بالمقابل قد تفسدُ يومَنا الموعود.

غريبٌ جدّا تحوّل النّفس البشرية، هذه الآملةُ الحالمة هي نفسُها من قالتْ دائما لصديقتِها سلمى:

"حينَ يكلّمك أحدٌ عن الحِلمِ اصفعيه وإن كلّمك عن الصّبر فآلميه وإن تغنّى بالصّدق فاحرجيه بسؤال، ثمّ انسِ أقوالَه وصدّقي أفعالَه الّتي تلي ذلك، لا يمكنكِ الوثوقُ بشخصٍ يتخلّى عن معتقداتِه انتقاما لمشاعره أو عن مشاعِرِه ثأرا من موقف الآخرين منه."

أيّهما يسرى الحقيقيّة؟ أيعقَلُ وجودُ أكثرِ من نسخة للحقيقة؟ أن يكونَ المرءُ طيبا وشريرا، صادقا وكاذبا، واقعيّا وحالما في ذات الوقت؟ اعتقدتْ يسرى أنّ الحقيقة هي الهيئة الّتي نكونُ عليها قبلَ أنْ تخيفَنا الحياة وتحاوِلَ الاستيلاء علينا، حينَها نخبّئ أنفسَنا خلفَ صفاتٍ ليست لنا، نتقمّصها فحسب لنبدو كالسّفينة الخرقاء ولا يستولي علينا القراصنة، المكان الّذي تخبّئ فيه كل شيء كثيرا ما لا تجد فيه الشّيء الّذي تحتاجه، لذلك لا تخبّئ نفسكَ في ذاك الموضع الّذي تخاله آمنا كي لا تُعرّض نفسك لاحتمال فقدانها، حقيقتُنا الّتي نخبّئها ثمّ ننسى أمرها ليستْ إلّا رضيعا لا يجيد الاعتناء بنفسِه، سيهلكُ هناك أو يحبو بعيدا، واجِه بحقيقتِك الجميع وستحصُلُ على مكانٍ يناسبُها أو ستحشُرُ نفسَها في نفوسِ أشخاصٍ آخرين، الظلّ لا يناسِبُها، خُلقت الحقيقة لتكونَ أمامنا لا خلفَنا، لا خوفَ عليها فهي خالدةٌ ولا تموت!

دبّرت سلمى ليسرى لقاءً مع الكاتب، تواصلتْ معه لأيّام عبر صفحتِه وقد رقّ لحِال يسرى وكان من الواضح أنّه سعيدٌ باهتمامها الكبير بما يكتب، لا ينسى الكاتبُ أبدا معجبيه الأوائل، لكنّه حتما سيتمنّى أنّه لم يلتقِ إنسانا بهذا الجمال في أيّامِه الأخيرة، لن يَزيدَه ذلك إلّا ألما.

أحلام عظيمة

ساعدَ عليّ إيمان على حملِ أمّها ووضعِها على السّرير ريثما تستفيق، نظرتْ إليه وقالتْ غيرَ مصدّقة لكلّ ما يحدث:

-أتصدّق؟ اليومَ عيد ميلادي...

قالتها كأنّها تهذي، لم يكنْ كلاما قلبيّا ولا منطقيّا، كانَ مجرّد ردّة فعلٍ ولّدها الواقعُ القاسي، كانَ من الممكن أن يكونَ إغماء أو دموعا أو أيّ شيء آخر لكنّه طفا على شكلِ كلمات تتأرجحُ بين السّخرية والمرارة وعدم التّصديق.

-لا عليك ستكونُ بخير، سأحرص على الاعتناء بها.

استفاقتْ والدتُها أخيرا، حاولتْ إيمان أن تتنفّسَ قليلا وتستوعبَ ما يجري لكنْ... فَتحُ زرّ القميص الضّيق لن يشكّل فارقا في غرفة مغلقة بلا نوافذ ولا منافذ، حياتُها الآن بيتُ طوبٍ والوابل لا يتوقّف ولا يستريح، جلست في الغرفة المجاورة تحاولُ فعلَ شيء ما ليخفّف عنها، لكنْ لا شيء ممّا اعتادتْ فعله أفلح ولا حتّى الدّموع الّتي احتجبت وأبت مغادرة عينيها.

أقبلَ عليّ وجلسَ مقابِلا لها، الأطبّاء يعرفون دوما ما يقولون في أوضاعٍ مماثلة شرطَ ألّا يكونوا صادقين، مع إيمان الأمر أصدق ما يكون، بدا معجبا بها، صادقا في أحاسيسه نحوها، لم يستطع ترديد تلك السّمفونية التي دأب على إعادتها على مسامع اليائسين:

" الطبّ يحرز تقدّما كلّ يوم ولا يزال الأمل قائما و..."

كانَ عليّ حائرا جدّا قبلَ أن تقاطعه منقذةً إيّاه من اقتراف إحدى تلك الكلمات الّتي تَعِدُ بالأمل:

– تخلّينا عن كثير من الأحلام وها هو العمر يتخلّى عنّا باستمرار وبالطّريقة نفسها ولا يسعُنا مغازلته ولا منازلته ليتغيّر، قبل أيّام اتّصل بي حبيبي السّابق من أجلِ الكتاب الّذي وعدني به منذ بضعة أشهر... ذهبتُ في الحين، أعطاني الكتاب مغلّفا بورقِ الهدايا ومعهُ هديّة إضافيّة، قال أنّ الهدية الإضافية اعتذار على تأخّره في إحضار الكتاب... لقد نسي تماما، لم يكنْ يعلمُ أنّ اليومَ هو عيد مولدي، لم يعد أحدٌ يعرف ذلك... ولا أنا لولا بعض الصّدف الّتي تذكّرني، كرؤية التّاريخ مكتوبا على حاسوبي أو هاتفي صدفة، أتصدّق؟ أهداني ساعةً رمليّة، نعم! الوقت ينقضي بسرعة وعامٌ آخر انفلت، كأني كنتُ أمشي على الذّراع الّتي تحملُ كفّتي ميزان، لكن لا أذكرُ متى مررتُ بنقطة التّوازن، أمّا الآن فأعلمُ أنّه لا وجود للأوزان الّتي من شأنِها أن ترجّح الكفّة الأخرى وأنا الآن على هذه الكفّة الّتي تهوي بي سريعا إلى نهايتي.

في البداية كان عليّ يظنّ أنّ أمّها هي المريضة، لكنّه فهمَ من كلامِها أنّ الأمر يتعلّق بها فحسب، ستموتُ إيمان قريبا، رغمَ ذلك أرادَ أن يكونَ معها وأن يرافِقها فيما تبقّى من أيّامها، ظلّ يستمِعُ إليها طيلة فترة تواجدها بغرفة المستشفى هناك، شاهدها متذوّقا كلماتِها الّتي توالت بطعم المتعة والحسرة ولم يدرِ فعلا أيّهما طغى في نفسه أكثر، قالت الكثير من الأشياء لكنّها لم تجترئ على ذكر تلك الّتي شغلتها حقّا، كأنّها إحدى أولئك الجواسيس الّذين تدرّبوا على مقاومة الحقن المخدّرة بقول كثير من الحماقات في حالة القبض عليهم وإجبارهم على الاعتراف، في تلك اللّحظة قرّرت إيمان التخلّي عن أكثر شخصٍ أحبّتْهُ في حياتِها، بهذه البساطة! كانتْ تنظرُ إلى عليّ وبدا جليّا أنّها تخطّط لأمرٍ ما، هي موقنة أن حبيبها لن

يقتنع بالابتعاد عنها بسهولة، كان عليها أن توهمَه بأنّها كفّت عن حبّه، بأنّها الآن تحبّ غيره، بالنّسبة لها لا بأس إن كرهها ريثما يتجاوز خبرَ وفاتِها، ثمّ سيكون بمقدورِيه أن يعلمَ الحقيقة في وقتٍ لاحق بعدَ تجاوزِه الصّدمة الكبرى، هكذا حاولتْ إعطاءه السّمّ الّذي لا بدّ منه على دفعات.

قبلتْ إيمان بمساعدة عليّ الّتي غدتْ صداقة بينَهما خلال الأيّام الّتي تلتها، جعلتْ إيمان حبيبها يصدّق أنّها نسيته وأنّها تحيا سعيدة مع غيره!

إيمان جعلتْ عليّا يغيّر منظورَه للحب، المنظور الّذي غيّب عن ناظريه كثيرا من الأشياء الأحبّ إليه قبلها، بسببها اكتشفَ أنّ ما يجمَعُهُ بأريام ليسَ حبّا، الحبّ هو إيمان حين تتحدّث كالطّفلة الّتي تختطفُ الحماسة منها بعض الكلمات والأنفاس، الحبّ هو إيمان حينَ تنظرُ إليك وعيناها تشعّان بذاك البريق والأمل الهائلين، الحبّ هو إيمان حينَ تبكي وترفضُ أن تمسَحَ دمعتَها وتدير رأسها كي لا ترى مزيدا من ملامِح الحزنِ المبلّلة بدموعها على وجهها، الحبّ هو إيمان حينَ تمشي ناظرة إلى الأرض وضامّة يديها أمامها، الحبّ هو إيمان حين تخجل وحين تضحك و حين تفرح وحين تحزن وحين تتكلّم وحين تصمت وحين... والحزن هو إيمان... حين تدركُ أنّها لم تعدْ موجودة في هذا العالم ولن تراها مجدّدا... هكذا رأى الحبّ من خلالِها، هل يمكن تصوّر ذلك حتّى؟ كيف كان يراها وكيف لاحظ تفاصيلَها وأحبّها، لا أحدَ يعشق شخصا يُحتضر، يتختار امتلاك قطعة من النّحاس إلى الأبد بدلَ الحصول على قطعة ذهبية لثوانٍ قبلَ إعادتها، لكن إيمان... لم تكنْ أيّ شخص، لقد جعلتْهُ خلال هذه الدّقائق الّتي رآها فيها يصرّ على حبّها، على كسب قلبِها رغمَ إدراكِه للألم الّذي سيناله بعدها، إيمان كقطرة من الجنّة، على المرء أن يختارَ بين تفويتها أو الحصول عليها ثمّ العيش مشتاقا لها إلى الأبد، كانَ عليّ واثقا من اختياره.

الأيّام الّتي بعدَها قاربتْ بينَهما كثيرا لكن كصديقين فحسب، إيمان بدورِها كانتْ صادقة معه جدّا بشأن شخصها المميّز وحبّ حياتها، قلبُها لن يكونَ لغيره إلى آخر لحظة، كانَ على عليّ تقبّل الأمر.

طلبتْ منه مساعدَتها فيما تنوي فعلَه، أعدّت خطّة محكمة أملتْ كثيرا أن تنجَح، جعلتْه يقتنع بأنّها تخلّت عنّه، الله وحدَه يعلمُ كم عانتْ وهي تصدّه عنها وتخيّب إصراره واستماتته لاستعادتِها، كان مستعدّا لمسامحتِها على تركِها له دون مبرّر أو إنذار مسبق، لقدْ عرض عليها قبل مدّة الزّواج والذّهاب معه للعيش في المجر، حاول معها كثيرا لكنّها أصرّت على إنهاء العلاقة بجعلِه يظنّ أنّها وعليّ حبيبان، من أجلِ ذلك قبِلتْ بالذّهاب معه في رحلته إلى بريطانيا في زيارة تكوينية إلى كلّيّة هانوفر، اصطحبها معه ولم تُخفِ أنّها كانتْ في حاجة ماسّة إلى رحلة كهذه.

هنالك على الجسر المحاذي لكاتدرائية كولونيا سهر عليّ وإيمان طويلا وتكلّما عنْ كلّ شيء، عن الماضي والحاضر وما سيحدث، كانَ يحبّ عمقَ نظرتِها وتوجّهاتها الفلسفيّة وحواراتِها الخلّاقة.

-حدّثيني عن شخصِك المميّز أكثر، ما الّذي فعلَهُ كي يستحقّ حبّك في كلّ لحظة؟ إلى آخر لحظة؟

-تماما! هو لم يفعلْ شيئا، لم يحاول، الأمور الّتي تأتي بعفويّة تحظى بضيافتنا بحيثُ يصعبُ علينا تشريدُها، كالبذرة الّتي تتخطّى كلّ الأراضي الخصبة وتركبُ الرّياحَ إلى أن ترسوَ في بقعة جرداء، ثمّ تنمو رويدا دونَ أن يلحظها أحد، تتساءلُ الأرضُ عن سببِ اختيار البذرة لها وتتساءل البذرة عن نيّة الرّيح الّتي حملتْها إلى هنا وحينَ تفيقان من تفكيرِهما، ستكونان أرضا وشجرة، قدْ تُفرّقهما الفأس الّتي تجهل

ماضيهما، لكنّ الماضي بعينِه الثّاقبة يعلم أنّ التّراب على عمق أمتار وأمتار يضمّ الجذور وتضمّه وبعدَ قرونٍ سيذوبان في بعضِهما وستحملُ الجذور اسمَه، سيناديهما الجميع "ترابا".

-ربّما زرعَ أحد ما البذرة في هذه الأرض متعمّدا، ألا تظنّين أنّه تعمّد الإيقاعَ بك وأنّه صيّادٌ محترف؟

نظرتْ إليه إيمان كما تنظر في كلّ مرّة إلى شيء ما... كانتْ لديها نظرتان فحسب، نظرةٌ للحزن والفرح والغضب والدهشة ونظرة ثانية لحبيبها وحده، كانَ بإمكانِ النّظرة الأولى أن تبعثَ الحياة في الخرابِ الذّي يعمّ صدرَ أحدهم أما الثّانية فلم يستطْع البوحَ بها لأحد أو ربّما... ربّما لم يعرف فعلَ ذلك أو أنّ الصّفات الّتي تخصّها لم تدرج بعد في المعاجم الّتي مرّت عليَه من قبل.

-هل سبقَ وأنْ رأيتَ صيّادا يوجّه بندقيّته إلى غزالة ثمّ يقتلُها؟

-في مشهدٍ حقيقيّ لا، لكن رأيتُ ذلك من مشاهدتي الأفلام.

-صدّقني، الصيّاد الّذي يمعن النّظر إلى عينيّ الغزالة لا يطلقُ النّار عليها، الصيّادون ينظرونَ من خلال عدسة البندقيّة إلى القلب ثمّ يصوّبون رصاصتهم.

-هل كانتْ لديه أيّة أحلام عظيمة؟

سألها عليّ هذا السّؤال وهو يتساءل إن كانتْ للأشخاص الّذين يعيشون حلمهم أحلامٌ أخرى.

-نعم، يريد أن يصبح كاتبا مشهورا، سيكون مشهورا ذات يوم، أعلم ذلك.

-وما رأيك في حُلمِه هذا؟

-الشّهرة! تعني أن يعرفَ مجهولون من كلّ بقاع الأرض اسمك وشكلك وعنوانك وعائلتك ومكان إقامتك، هذا يشبه المشي عاريا في مسرح مظلمٍ مكتظّ بالنّاس.

قالت ذلك وابتسمت، من الواضح أنّها تذكّرت شيئا ما، كانتْ رجلاها تتأرجحان والأضواء اللّيليّة الخافتة تنعكس بشكلٍ خفيف على وجهها المقمر، صمتت قليلا ثمّ واصلت:

-لكن تعلم؟ ارتداء الثّياب أو خلعها خيارٌ يتّخذه من على المسرح، لن يطالب الجمهورُ بأكثر ممّا تَعرضُهُ، لكنّه لن يرفَض منه شيئا أيضا.

لمْ يكنْ عليّ واثقا من أنّه يفهم ما ترمي إليه، كانتْ كلماتُها متداخلة مع خواطر وذكريات تخصّها، ردّ مبتسما:

-على الأقل سيضمن الاحتفاظ بثيابه إن فشل.

-نأتي إلى الدّنيا وأوّلُ وظيفة نحصلُ عليها هي الحياة، لسنا فاشلين ما دمنا مستمرّين في عيشها، الفشلُ مجرّد فكرة مناقضة للفكرة الّتي كونّاها عن النّجاح، في أقصى مراحلِ الفشل نحن ناجحون في أمورٍ كثيرة نرفضُ الاعترافَ بأنّها غير متاحة لغيرنا.

-ماذا بشأن الّذين يحاولون ويحاولون ثمّ في النّهاية يفشلون؟

-مادام هنالك وقتٌ للفشل فهنالك وقتٌ للمحاولة، المشكلة أنّ البعضَ يصرّ على اقتلاعِ الصّخرة بدلَ الالتفاف عليها ببساطة، أكبر مشاكل الفاشلين هي تضييع أهدافهم الحقيقيّة والانشغال بالصّخرة الّتي تقع وسط دربهم.

-وكيف يكون النّاجحون؟

-هل أنت متابع لكرّة القدم؟

ضحك عليّ كثيرا...

- لم تضحك؟

-أنظري إلى نفسك... آخر من أتوقّع أن يطرحَ عليَّ سؤالا مماثلا هو أنت.

ضحكت إيمان بدورِها ثمّ قالت:

-اللّاعب ميسي، حصل على جائزة أفضل لاعب في العالم خمس مرات وفي المرة السادسة استطاع استلامها وهو يغمز بعينه لمن قدَّمها له، كأنه يحيِّيه على تقريبها منه فحسب، كان يعلم أنّها له في كل الأحوال ولم يقدم له أحد صنيعا، هي له! هكذا هم النّاجحون يأخذونَ ما هو مقدّر له ولا يتنازلون عنه.

-ألا تظنّين أنّ تصرّفه كان هكذا لأنّه اعتاد على استلام الجائزة.

نظرت إيمان مجدّدا بعيدا طائرة بذاكرتِها ونظراتِها إلى مكان بعيد... بعيد جدّا كالسّعادة، نظرت عابرة القارّات والبحار ثمّ عادتْ وقالت:

-المعتادُ هو مجرّد أمرٍ مختلفٍ قمنا به كثيرا.

لم يُشح بنظره عنها، استغلّ كلّ لحظة في تأمّل تفاصيلها، سألها:

-نظراتكِ الحزينة بسببه أم بسبب المرض؟

في هذه اللّحظة تذكّرَت حوارَها الأخير مع حبيبها على شّاطئ كيتاني، حينَ طرحتْ عليه السّؤال نفسه تقريبا، ثمّ أجابت عليّ بالجواب نفسه... تقريبا:

-بل لأنّي أراقب الحزن...

-تراقبينه؟

-نعم! كي لا يباغتني...

كانتْ تجيبُ شاردة في ذكرى قديمة، لم تفارقْها الابتسامة كلّما تحدّثت عنه، كانتْ تردّد داخلها:

" أقسى أنواع الحزن هو ذاك الّذي يلازمك ويأبى إنهاءك"

تذكّرتْ المنشورَ الّذي نشره حبيبها على صفحته للفيسبوك قبل أسبوعَ من هذه اللّحظة، ظنّتْ أنّه تركهُ عامّا كأنّه يعلمُ أنّها تراقبُه دائما وأنّها لا تبتعدُ كثيرا، لطالما كانتْ بالجِوار، في ذلك المنشور وضع صورة له بالأبيض والأسود على شاطئهما المعتاد وأرفقها بذاك النّصّ الّذي آلمها مرّتين، مرّة لأنّها آذتنه ومرّة لأنّ النّصّ يشبهها:

"أيّتها السّعادة التّائهة عنّي، تجدينني أينَ تركتني منذ سنواتٍ منتظرا... خشيتُ أن أغادر مكاني باحثا عنكِ فأضيع أكثر."

النهاية الجميلة

لم تنمْ يسرى تلكَ اللّيلة، شعرتْ بشوقٍ كبيرٍ للسّفر ولملاقاة الكاتبِ بشكلٍ خاصّ، ربّما لم يمثّل إلّا ضحيّة أخرى لشغفِها بالاختلاف ولم يكنْ أفضلَ من الأزياء الّتي ترتديها لمجرّد أنّ لا أحد يرتديها، كانَ مجرّد احتمال ستنفيه أو تثبته الأيّام، استيقظت صباحَ اليوم التّالي بعدَ قسطٍ قليل من الرّاحة، ما كانتْ لتنامَ أطول ممّا فعلتْ حتّى لو لم يكنْ ثمتَ ما يشغلُ بالَها ويذكي استمتاعها باجترار الأفكار واستباق الأحداث، تأكّدت من أنّها وضّبت كلّ أمتعتَها وهي تتساءلُ عن ذاك الشّيء الّذي ستنساه:

–"أ لسنا دائما ننسى شيئا ما؟ تذكّرُ هذا الشّيء قد يجعلنا ننسى الشّيء الآخر في النّهاية! لكن ماذا لو تعمّدتُ نسيان شيء لا يهمّني؟ هل سيكون قربانا كافيا للذّاكرة كي تتذكّر الأشياء الأهمّ بالنّسبة لي؟"

في هذه الأثناء جاءت صديقة العمر سلمى، الصّديقة الوحيدة الّتي لازمتها رغمَ حالتِها المتردّية.

– مستعدّة للذّهاب؟ أربي إيّاه... أربي ذاكَ الحماس!

حينها صرختا معا بحماس ضاحكتين من كلّ قلبيهما سويّة، تحمّدت ملامِحُ يسرى للحظات وشردْت، اليوم هو اليوم الّذي يسبق القيامة بالنّسبة لها، غدا هو الأوّل من نوفمبر الموافق لأوّل يوم من معرض سيلا أينَ ستلتقي كاتِبها، سيزن آمالَها وظنونَها ويحكمُ عليها بالخيبة أو النجاة، بعد الأوّل من نوفمبر قد لا يبقى هنالك مزيدٌ من الأشياء تنتظرها وستذبلُ كنجمٍ استنفذَ كل طاقتِه وراح يتلاشى، سيكون من الجميل أن تكونَ قصص الكاتب حقيقيّة فهذا سيعيد لها الأمل في الحبّ، قد تبحثُ بعد ذلك عن أحمد بطل القصّة وتشكره لأنّه موجود وقد تسأله أين يمكن لها أن تجِدَ من يشبهه حتّى.

كانت يسرى تحبّ محطّة الحافلات وحرصت على السّفر عبرها في كلّ مرّة رغمَ امتلاك عائلتِها سيّارة، وجدتْ هنالك قصصا تستحقّ أن تروى وتخيّلت أخرى، اعتبرت المحطّة كالبرزخ الفاصل بين حياتين مختلفتين ربّما ظنّت أنّها تتدرّب على الموت أو تداهنُه ليألفها ويغدوا مقرّبين من بعضهما، تذكّرت في هذه اللّحظة رحلَتها إلى فرنسا أينَ سافرت إلى عائلة أبيها من أجل العلاج هناك، لكنّهم في المستشفى نصحوها بالعودة إلى الجزائر لا لأفضليّة الطّبّ هناك وإنّما لإمكانيّة أعلى للحصول على متبرّع ما، فكثيرون هم الّذين يرجون الحصول على أجرٍ الآخرة بذلك معتبرين التبرّع صدقة عن ميتِهم، هناكَ في مطار هواري بومدين دعتِ الأجواء للتّفكير، ليسَ وكأنّ ذلك ينقصُها لكنَّ المطار ومحطّة الحافلات والقطارات... هذه الأماكنِ الّتي تحملُنا بعيدا عن الأماكن الّتي نألفُها كلّها تحمِلُ قصصا لا تحصى، تسكُنُها أرواحٌ حزينة تمسُّ كلّ من يلجها، على أرضِها ضاعتْ عمل نقديّة وأوراقٌ ثبوتية ووعودٌ كثيرة، يأتي البعضُ هنا حالما بالهجرة وبجانبه آخر ينتظر عودة أحدهم لكنّه كثيرا ما لا يعود، إمّا لأنّه لم يستطع أو لأنّه مجرّد كاذب لعين، على أرضِها دموعُ جفّت فما عادَ أحدٌ يأبهُ لها، ربّما تصاعدَ بخارُها وشكّلَ غيمة أسعدتْ إنسانا ينتظرها منذ شهور لمّا أمطرت، على أرضِها غبارٌ رسمَ عليه أحدُ المشتاقين قلبا فمسحتِ المنشفةُ القلبَ وبقي ما فيه، على أرضِه خطواتٌ متسارعة لحبيبين ركضا نحوَ بعضِهما وفي أرضِه... وفي أرضه مأوى لمشرّدٍ وجدَ أرضيّته أطرى على جنبِه من ركلاتِ البشر الّتي طردته ككرة تقاذَفوها من ركنٍ لآخر.

أخرجتْ قطعة نقديّة، أعطتْها للشّخص المستجدي في الرّكن هناك قبلَ خروجِهما من الباب المؤدّي إلى الطّائرة.

-"ربّي يفرحك..."

دعاؤه لها أنعشَ صدرها وبعث فيها كثيرا من التّفاؤل والأمل، لم يكنْ تفاؤلا بحياة طويلة بل ببقيّة جميلة، ففي النّهاية كلّ ما لم نَعِشهُ هو بقيّة طالَ أم قصر.

كلّ من ركبَ الطّائرة أوّل مرّة كانَ مذهولا، يسرى كانتْ مذهولة أيضا رغمَ ركوبِها الطّائرة مرّات عديدة، كلّ مرّة هي مرّة أولى حينَ ننظرُ إليها بشكل مختلف ونتدارس تفاصيلَها، في الواقع سببُ ذهولِها هو مشاهدة الطّائرة تطيرُ فوقَ الغيوم، هل ستكونُ رحلتُها القريبة إلى السّماءِ بهذا الشكل؟ هل ستزور روحُها هذا المكانَ الجميلَ الهادئ؟ شعرتْ بقليل من الخوف كأيّ شخصٍ مقبلٍ على المجهول وحينَ يرغبُ في الهرب يجدُ أنّه لم يبرحْ مكانَهُ يوما، وأنّ المجهولَ من كانَ يدنو منه منذُ البداية، تمنّت أن يمدّ يدَهُ إليها ويصافِحَها معلنا السّلام مع روحِها وعليها فحسب... نُمضي حياتَنا نتمنّى أشياء عظيمة وأخيرا نخلصُ إلى أنّ أقصى أمنياتنا هو نهاية جميلة.

حلّ الأوّل من نوفمبر، أقلعتِ الحافلة إلى سيلا وابتسمتْ يسرى للطريق.

متّهم بالطّفولة

حملتْ لي الأيّام الّتي تلتْ عودتي مجدّدا إلى المجرْ هاربا من ذكرى إيمان بعضَ الأخبار الجميلة، في أيّ وقت آخر كنتُ سأصفها بالأخبار الرّائعة، لكنّي لم أعدْ أطمئنُّ لمكرِ الأيّام فلا شيء رائع بما يكفي ولا شيء سيّء تماما، هذا شبيه بالأبياتِ الّتي كتبتُها إلى إيمان ذات يومٍ:

مـرّ الزّمانُ ونحنُ كالأنـصافِ الحُمقُ فينا أبلغُ الأوصافِ
لا شيء دونكِ صارَ يُسعدني ولا حُـزني يعـذّبني بقدرٍ كافِ

قصّتنا أنا وإيمان مشابهة لقصّة أحمد وميلين حينَ تقرأها معكوسةً... بادئا من النّهاية.

بدأنا دربَنا معا وانتهى الأمر بكلّ واحدٍ منّا يشقّ دربا خاصّا به... كنتُ طفلا خجولا جدّا ظنّه النّاس أبكما، كنتُ أهربُ من الضّيوفِ إن حلّوا ببيتنا وأراقبهم من بعيد من حيث لا يرونني، كنتُ بارعا في أمرٍ وحيد وهو اكتشاف الحزنِ في وجوه الآخرين، حتّى أنّي كنتُ أحتفظ بلوحة لمجموعة من الجياد يتقدّمها حصانٌ أبيضُ اللّون نظراتُهُ تحملُ بعض الحزن، لذلك كنتُ أستلقي على الأرض وأضع اللّوحة بجانبي وأحادثه لأواسيه وأتلمّس وجهه بكلّ عطف، تغيّرتُ كثيرا ونفيتُ معظمَ الصّفات الطفولية عنّي، لكنّي بلا ريب لا أزال أحتفظ بموهبتي الّتي تجعلني ألحظ الأحزانَ الّتي تكتسيها الوجوه وتعكِسُها العيون، ربّما هذا السّبب الّذي يجعلني أتجنّب رؤية وجهي في المرايا... بلغتُ من العمرِ ستّ سنوات وكانَ عليّ مواجهة أكبر مخاوفي أيّامها... المجتمع! الخامس من سبتمبر، أخذتني والدتي إلى مدرسة "غازي حسين" مقابل رمال حي قوراي الّتي كانت شامخة أيّامها، بعد ذلك خاطبتني حين كذبت كذبتَها البيضاء الأولى:

-ابقَ مع أصدقائك... سأعود.

لكنّها لم تعدْ وتركتني معهم هناك، رحتُ أصرخُ وحاولتُ الهروبَ والعودة إلى المنزل، أجبرني المعلّم على البقاء، الصّراخ... سلاحي الفعّال لا يجدي نفعا أمام هذا الرّجل العنيد، وحينَ بدأ يفقد صبرَ، أدركتُ أنّه عليّ الكفّ عن محاولة الهرب، لو شرح لي أحدُهمْ أنّي سأعود بعدَ ساعات إلى المنزل لتقبّلت الوضعَ بشكل أفضل... خرجنا إلى ساحة المدرسة وكانت الشّهقات تخرجُ من صدري راغما، الأطفال يجرون في السّاحة المغطّاة بالحصى، والمعلّمون يراقبونهم من بعيد متأهّبين لأيّ شيء ريثما يدقّ الجرس من جديد، جلستُ متّكئا على أحد الجدران، جاءتْ تلكَ الفتاة وجلست قربي واضعة يدها عليّ في عناقٍ طفوليّ بريء، رفعتُ ناظريّ وإذا بعينين خضراوين كبيرتين تحدّقان بي، كانتا شديدتي البراءة حتّى بالنّسبة لطفلة في الخامسة، كوكبان يسبحان في بحرٍ أبيض ويشغلان جلّ مساحته، تغطّيهما طبقة من الدّموعِ الرّقراقة تعطي بريقا خلّابا، تبسّمتْ معي، بعضُ أسنانها مفقودة... مثلي تماما! شعرُها الأصفر المتماثل للسّواد مربوط إلى الأعلى... قسمت "السندويتشَ" الّذي معها إلى جزأين، نظرتْ إليهما وبعد برهة مدّت إليّ أكبرهما قائلة:

-كل معي!

لم أنسَ هذه العبارة يوما، قالت "معي"، لم يكن لذلك وقعٌ حينها كما هو الآن، لأني أوقنُ أنّ الأطفال أمثالها لا يكذبون، لقد شاركتني كلّ ما كانتْ تملكُه وأضافتني إليها قائلة "معي"، من الصّعبِ على أصدقائي

تصديق أنّي شعرتُ بالحبّ يومَها، يتّهمونني بالجنون عندما أروي لهم الحادثة ويقولونَ أنّي كنتُ طفلا لا أفقه الحبّ، اتّهموني بالطّفولة! نعم كنتُ طفلا محكوما عليه بالرّشد، أقولُ هذا لأنّ ذاك اليومَ أشعرني بالمسؤولية نحوَها في كلّ تصرّفاتي وامتنعتُ عن البكاءِ حتّى لا ترى إيمان ضعفي، منعتُ الأولاد من الاقتراب منها واستأثرتُ بها لنفسي، قاسمتُها كلّ لحظةٍ أحضرتُها وقبّلتُ الموضِعَ الّذي يؤلِمُها كلّ مرّة سقطتْ فيها... ليزولَ الألم، كانتْ قبلتي سحريّة وسريعة المفعول، شفاهي اليومَ تعجزُ وتعتذر عن الوصولِ إلى قلبي، هل هذا سببُ ملازمة الآلام لي؟ السّعادة النّائمة داخلي تحتاجُ إلى قبلة سحريّة لتستيقظ وأنا... أحتاجُ إيقاظها لأستطيعَ النّومَ كما كنتُ أنامُ ذاتَ طفولة!

شعرتُ بفرحة غامرة وأنا أناديها باسمِها... إيمان! أشعرني ذلك بالدفء والقربِ منها، تعمّدتُ مناداتها به مرارا وتكرارا، لم أشعر أبدا بالملل كأنّي أتعاطى مخدّرا، هذا شبيه بقول أحمد وهو يتحدّث عن ميلين:

" لا أفترُ من النّظرِ إليها ومن الاستماع إليها ومن ترديد اسمها... ميلين هي المنعكسُ الفِطريّ للسّعادة وهرمونُ السّيروتونين في دمائي."

أنا والحبّ التقينا باكرا ذاتَ ألمْ، من يومِها صار من الصّعب عليَّ التّفريق بينهما، ربّما هذا هو سبب اللّذة الّتي أشعر بها حينَ أسردُ الآلام الّتي تكتبني، تمسِكُ يدي وتعدّل مسار القلمِ إن انحرفَ عن منظورِها... الألمْ جعلني أكتبُ لمن استولى عليهم مثلي، في الغالب نحنُ غرباءٌ عن بعضنا، لكنّهم حينَ ينصتون لصراخ حروفي تلحظ أفئدتهم وجودي، يشعرون بوجودي في أحاسيسهم، يسمعونَ اضطرابَ خفقاتي ينضمّ إلى خفقاتِهم، يشعرون بملوحة عبَراتي في عيونِهم وتتمنّى أرواحنا اللّقاء ذات يوم... ما أقوله أو يقولونه ليس بالضّرورة ملكا لأحدنا بل هو كأس ماء يغترفُها أحدنا من المنبع ثم يسقي بها غيرَه مدّعيا أنّها له لمجرّد أنّه حصرَها في قدحِه، كلّنا مقلّدونَ شئنا أم أبينا، حينَ علمتُ أنّ كلّ شيء عبارة عن طاقة وقرأتُ بعدها قانونَ انحفاظ الطّاقة، أدركتُ أنّ الكلماتِ الّتي أقولها أو أكتُبها ليست لي ولا لغيري من البشر، إنّما هي لشيء ما قبلَنا جميعا، سعى الملايين على مدى قرونٍ لصياغَتِها بأشكال مختلفة وبإتقان متباين، فكانَ منهم الشّعراء والفصحاء وقليلو الأدب كذلك، إنّما كتبتُ دوما بحثا عمّن يروقه قدحي ويمنَحني فرصة سقيِه منه والشّعور أنّي أعني شيئا ما في هذه الحياة.

رنّ هاتفي... رقمٌ لا أعرفه من داخلِ الوطن مجدّدا، حملتُ الهاتفَ وحدّقتُ فيه للحظة شاردا، الطّبيب صديقُ إيمان كان يتّصل بي من رقمِها ولا أدري كيف يجرأ على الاحتفاظ به، لم يتّصل منذ أيّام... لعلّه هو وقد بدّل ليحتال عليّ وأردّ عليه، قرّرتُ أن أردّ وأسأله عمّا يريده وأطلب منه أنْ يتركني لأنسى بهدوء.

-ألو؟

-هل أنت السّيّد ب.ع؟

إنّه صوتٌ ذكوري! كما أنّه يخاطبني برسمية.

-نعم، من معي؟

-أنا "رفيق" ناشرُ كتابِكَ "جوابٌ بين نظرتين".

-مرحبا... أهلا.

-أتّصلُ من أجل موافقتك لنشر خمسة آلاف نسخة من كتابك.

خمسة آلاف نسخة! يا له من رقمٍ مهول! بينَما كنتُ غارقا في مشاغلِ الدّنيا نسيتُ أمرَ كتابي الّذي صدر قبل شهور تماما، يبدو أنّه حقّق نجاحا باهرا واستطاعَ الاتّصال بأرواحٍ كثيرة تشبهني.

-ألو... سيّدي، هل تسمعني؟

كنتُ متفاجئا كلّيّا وعاجزا عن الردّ.

-نعم... نعم أسمَعُك... كم تبقّت من نسخة؟

-لقد بيعت كلّها وننتظر إذنكَ لطبع المزيد.

-نعم افعلوا ذلك... افعلوا ما ترونَهُ مناسبا.

-لقد طلبَ بعضُ الزّبائن توقيعكَ.

-أنا الآن في المحْرِ ولن أستطيع الحضور قبلَ مدّة.

-أخبرنا متى استطعتَ القدومَ لننظّم لك بيعا بالتّوقيع.

-بإذن الله...

-هنالكَ أمرٌ آخر...

يبدو أنّ هنالك مزيدا من المفاجآت...

-تفكّر الإدارة في ترجمة روايتك إلى لغات أخرى في حال سارت على الوتيرة نفسها وحقّقت نجاحا أوسع.

لم أتمالك نفسي من السّعادة وتمكّنت منّي الدّهشة، في تلك اللّحظات الصّامدة، تذكّرتُ ما قالتْهُ لي إيمان في آخر لحظاتنا معا، في اليومِ الأخير على الشّاطئ، لم نعدْ طالبين جامعيين، تحرّرنا من التزامات الدّراسة وظنّ كلّ واحدٍ منّا أنّه نضجَ كفاية ليستخرج الحقيقة الّتي داخل الآخرين ويصمتَ عن تلك الّتي داخلَه، هذه المرّة استطعنا فهم ما تقولُه الأمواج وهي تنكسرُ على الشّاطئ، كانت تعلّمنا كيف يتلاشى كلّ شيء، كيف أنّ حبّنا كانَ كموجة تغرقُ السّفن بلطمة واحدة ثم صار رشّة ماء لا يلقي لها العصفور بالا وهي تمسحُ ساقيه، وتحاولُ في يأسٍ سحبَ الرّمال من تحتِ ساقيه، حامتِ النّوارس فوقنا وبدا كأنّ لا شيء ينقصها إلّا الفشار، وتعجّبت الصّخور وهي ترانا جامدين ننظر إلى بعضِنا كأنّنا من جنسِها، أخيرا تكلّمت إيمان بعدَ أنْ تأكّدت داخلِها أنّ ما ستقولُه لن يكونَ أيّ شيء، صارتْ اللّحظات شحيحة بالقدرِ الّذي يحرُمُ حشوُها بأشياء لا تستحقُّ أنْ تصنَع الذّكريات.

-أعلمُ أنّي سأراكَ ذاتَ يومٍ ناجحا وأقرأ اسمك على التلفاز.

-وأنتِ، ألا ترغبينَ في النّجاح؟

-بلى... أريد ذلك.

- لم لا ترافقينَ هذا الرّجل إلى القمّة إذا؟ أم تراكِ تتكلّمين من أجل دعمي ورفع معنويّاتي فحسب؟

عيناها الرّقراقتان كانتا تحملان الكثيرَ من الأسرار لكنّ القهر كانَ باديا فيهما، تريدُ معانقتي والبكاء وقول كلّ شيء يخطر ببالها، لكنّها لا تستطيع.

-لا أستطيع!

صرختُ فيها:

-أخبريني لمَ؟ أقنعيني؟ اصرخي اغضبي! لمَ أنتِ هادئة جدّا؟

كانتْ كلماتي كفيلة بجعلِ تلكَ الدّمعة الّتي كانتْ تغالبُها تنسدلُ أخيرا من عينِها، كانتْ تعلَمُ أنّي أرِقُّ لها كثيرا، أنّي أكرَهُ أن تتأذّى...

-إيمان... آسف، أرجوك أخبريني ما الّذي يؤذيك؟ ألستِ وعدتني أنّ قلبكِ سيبقى دائما لي؟ كيفَ تحرمينني من معرفة ما داخله؟

توقّفتْ عن الكلام فحسب، اكتفت بالنّظر إليّ كاظمة دموعَها مجدّدا، اقتربتُ منها أكثر:

-إذا لا مفرّ؟

ردّتْ بصوتٍ أقربَ إلى الهمس، كأنّها تقولُ ذلك لكن تخشى أن أسمَعه:

-نعم...

تنهّدتُ تنهيدة طويلة ثمّ أمسكتُ رأسها بكلتا يديّ وقبّلتُ جبينَها ولم أقل وداعا... بلْ قلتُها لكن... على طريقة إيمان الّتي تكره الوداع.

-أراكِ لاحقا... إيمان.

إحساسُ إيمان الفائق وثقتُها العمياءُ بي، جعلاها تقرأ مستقبلي كصحيفة منشورة أمامها، وجودُها كانَ بالنّسبة لي ورقة رابحة لا تفيد في شيء سوى الشّعور بالدفء والأمل طولَ الوقت، كدولة تملك رؤوسا نوويّة لن تستعمِلَها يوما لكنّها تشعرها بعظمِتها وسيطرتِها على أمورها بامتلاكِها، عشتُ مع إيمان أيّامي مطمئنّا، لأنّي حينَ أفشلُ في كلّ شيء ستكونُ الشّخصَ الّذي يقنعني أنّي نجحتُ في الصمود وأنّ صمودي هو أوّل نجاحٍ من نجاحاتٍ كثيرة قادمة، لم تستطع رؤيتي ناجحا في النّهاية...

الآنَ عليّ المضيّ قُدما، إيمان ماضٍ جميلٌ وانتهى، شغلتُ نفسي بالحديث هاتفيّا إلى أريام ابنة عمّ ميلين، كانتْ ذكيّة وطيبة، لم أشكّ في روعتِها أبدا لكنّي لم أكن أثق بحظّي، التّشاؤم ليسَ صفة بشريّة أوّليّة، بل هي طفرةٌ تستتر بينَ الظّنون حينَ تتكّرر الخيبات ويتعاقبُ علينا الفشل، فتنفرُ الرّوح من الأشياء الّتي يرتبط ذكرُها أو حضورُها بحادثة سيّئة، أحاولُ أن أجدّد إيماني في عطايا الحياة، أنْ أعتقِدَ بكرمِها في بعض الأحيان.

بعدَ أيّام سأعودُ إلى البيت، في الواقع لم أعدْ أملكُ منهُ إلّا غرفة وحيدة، أما بقيّته فقد قسّمتُها وأجّرتُها منذُ زمنٍ بعيد، أنا وحيدٌ في هذه الدّنيا هذه هي الحقيقة، صارتْ إيمان عائلتي الوحيدة بعدَ وفاة أهلي في حادثِ طائرة مؤسف سنة **2004**، كنتُ أيّامها في السّنة الثّانية من التّعليم الثانوي، وكانَ يُفترضُ بهم العودة من رحلة استجمام زاروا خلالَها مدينة وهران مسقط رأس أمّي وقضوا أيّاما جميلة على شاطئَي "الرّأس الأبيض" و"مداغ"، أتساءل دائما ذاك التّساؤل العقيم: "لمَ لمْ أذهب معهم؟"، أتساءل رغمَ امتلاكي عشرات الإجابات المفحمة لكنّ أكثرَها إقناعا هو أنّي لم أرد الذّهاب فحسب، لم يكنِ الوقتُ مناسبا لشيء عدا الحزن، لا أدّعي أنّي تخلّصتُ منهُ رغمَ أنّي حاولتُ في اليومِ الموالي للفاجعة الضحك، قمتُ من فراشي بكلّ شجاعة وكنتُ أفقدُها في كلّ خطوة، لا أحدَ هنا ليلقي عليّ التّحيّة الصّباحيّة، أو يعدّ لي فنجان القهوة المخلوطة بالحليب، حتّى الأشباح الحقيرة الّتي كانتْ تخيفني هربت واختفت، كنتُ سأعانقُها حتّى لو تهيّأت لي في أبشعِ صورِها، هذه لحظة وسطى بين اللّاخوف واللّاشجاعة، مثالٌ قويّ عن اللّاشيء

حين يتجوّلُ في الفراغ بحثٍ عن أيٍّ كانَ يشبِهه، في تلك اللّحظة لم أستطع رؤية شيء حتّى الظّلام نفسَه، لا حاضر ولا مستقبل ولا زمن، لم أسمَح لأحد بالتّواصل معي لأيّام، تغذّيتُ أحيانا على بقيّة الطّعام في الثّلاجة بضع لقمات أرغمتُ نفسي على تناولِها.

بعدَ أيّامٍ طويلة استعدتُ بعضي ورحتُ أفكّر في طرقِ كسبِ العيش الّتي لا تضطرّني للتوقّف عن الدّراسة، سمحتُ لإيمان بالوقوفِ بجانبي في هذه المرحلة، أمّا عائلتُها الّتي كانتْ تعتبرني أحدَ أفرادِها فقد يئست من محاولة احتوائي وصهري داخلَها، شعرتُ بالامتنان الشّديد اتّجاههم لكنّي حقّا كنتُ اعتدتُ على نفسي وتوصّلتُ إلى روتيني الخاصّ، لم يكن الأمرُ سهلا أبدا ومتاعبُ الدّنيا تنفلتُ عن كاهل والديّ وتسقطُ فوقي بهذا التّسارع الشّديد، في النّهاية توصّلتُ إلى تقسيم بيتنا الكبير إلى أربعة بيوتٍ صغيرة وغرفة وحيدة كبيرة نسبيّا بنيتُ فيها حمّاما ووضعتُ موقدا وثلّاجة صغيرة ومكيّفا للهواء ونافذة صغيرة جدّا ذاكَ لأنّي لم أتوقّع أن يسرّني شيءٌ في الخارج، حتّى أنّ الإطلالة ليست بالجميلة ولا المميّزة وكلّ ما قابلني هو جدران البيوت وأطفال الجيران المزعجون... قمتُ بتأجير البيوت أخيرا، رغمَ ذلكَ أصررتُ على تعلّم مهنة ما إضافة إلى مزاولتي الدّراسة، لم أمتلك فكرة عمّا أريده حقيقة، لكنّي ذاتَ يومٍ وبينما كنتُ ماشيا صادفتُ دكّان صانعِ المفاتيح بـ "سوق دبيّ" بالشارع الكبير بمدينة بشّار، خطرَ لي أن أسأله سؤالا بدر في ذهني، كان الأمرُ غبيّا لكنّي قرّرتُ قبل ثلاث سنوات-أي بعيد الفاجعة- ألا أتركَ الظّروفَ والثّواني تسبقُ رغباتي، سلّمتُ عليه وحيّاني بدوره ثمّ سألته:

-هل تستطيع صنعَ مفتاح السّعادة من أجلي؟

-ماذا؟

لقد سمِع ما قلتُه بوضوح إنّما لم ينتظِر سؤال ممثلا يشبِه الاستهزاء أيّما شبه، قامَ بطردي من المحلّ ولم أكن نادما أبدا، بل قرّرتُ تعلّم صناعة المفاتيح وعزمتُ على ذلك وتلقّيتُ تكوينا، في نهاية مساري الجامعي كنتُ صانعَ مفاتيح لديه دكّانهُ الخاص، صحيح أنّه لم يكن واسعا لكنّه يفي بالغرض، كنتُ أغنى من معظمِ زملائي وأقراني، مع ذلك لم أفكّر في ابتياع سيّارة، بل عكفتُ على صناعة كلّ مفتاح تقعُ عليه عيناي وخصّصتُ للمفاتيح علبا كبيرة موسومة بتاريخ صنعِها ووصفِها، عشتُ فترة من الجنونِ معظمُ ما يهمّني فيها هو صنع ذاك المفتاح النّادر العجيب، مفتاح السّعادة، قد يبدو ما أقولُه غريبا لكنّي استطعتُ أن أصنعَهُ أخيرا وحينَ صنعتُه كانَ من أجلِ شخصٍ آخر السّيدة "مخطاري" الّتي تسكنُ الآن بأحد شقق بيتي وتقومُ على محلّي هناك في "البلاد"، صارت بمثابة عائلة لي وأجدُها كلّما عدتُ إلى بشّار سعيدة بلقائي.

لا يفصلني الكثير عن زيارة السّيدة مخطاري مجدّدا، اتّصلتُ بأريام كعادتي في الأيّام الأخيرة، وكنتُ متهوّرا حين سحبني الحديث في مجراه وقلتُ لها في لحظة سخافة:

-لا توجدُ فتاة جميلة بقدر ميلين... ولا حتّى ميلين نفسُها!

حسنا... استغرقَ منّي قول ذلك ثانيتين من الزمن، لكنّها لم تكنْ مستعدّة لنسيانه ولو وهبتها الزّمن نفسه كفّارة عن خطئي.

-وما الّذي تملِكُه ميلين وأفتقرُ إليه؟

– لم أقصد هذا... الأمرُ ليسَ كما تتصوّرين.

–وما الّذي أتصوَّرُه؟

مخاوفي لم تكن عبثيّة، الخوفُ من علاقةٍ بفتاة حادّة الذّكاء، ذكيّة إلى درجة تجعلُ منها مجرّد غبيّة أخرى، أحيانا تخنُقُني بإدراكِها المتطوّر، لا تتركُ لي مساحةً كافية لأتنفّس، لأهمسَ لنفسي... لألّا أفكّر من حينٍ لآخر، الفرقُ بينَها وبينَ ميلين... هو أنّ ميلين تتغابى وتغضّ الطّرف ليكونَ أحمد مرتاحا، لا يهمّها أن تبدوَ حمقاءً في نظره، قد تخفِضُ نفسَها درجةً في عقلِهِ لتزدادها في قلبِه، الأمر أشبه بإلقاء بعض المتاعِ من البالونِ ليتمكّن من الطّيران أعلى.

"هذا الفرقُ بينكما يا عزيزتي"

قلتُها في نفسي آملا ألّا تسمَعها... كذلك!

–اشتقتُ إليك! متى تعود إلى الوطن وأراك؟

ما الّذي يحدث؟ هكذا فجأة! هل سِمعتْ نجواي؟ هذّبتْ لهجَتها فجأة كأنّها تتدارك لجاجتها معي.

–حينَ يشاءُ الله...

في تلك اللّيلة حدّثتني كثيرا عن ب محطّات ماضيها وحدّثتني عن حبيبها السّابق "عليّ"، يا للسخافة وكأنّي لم أكن أعرفه! لكنّي تظاهرتُ بذلك.

قراءة ثانية

بعيدا في غربتي خرجتُ لأتمشّى قليلا، كلّ شيء يبدو هادئا في هذه السّاعة من اللّيل، لا يكون الهدوء جميلا إلّا بعدَ الصّخب، النّقيض يعطي للنّقيض روعَته، إذا كنتَ أنيقا كلّ يوم، بعدَ فترة لن يلاحظَ أحدٌ أناقتك كما في السّابق، تذكّرتُ في هذه اللّحظة المقطع الّذي جذبَ أريام حينَ قرأتُه عليها خلالَ الأيّام السّابقة عبر سمّاعة الهاتف، فِكرتُهُ تنفي ما قلتُهُ للتّوّ، بل وتجده يؤكّد أنّ البشاعة هي أحد درجات الجمال حينَ قال:

" تمنّيتُ لو أحدّد ذلك الحدّ الفاصل بين البرودة والحرارة، بكم يُقدَّر من درجة؟ هل هو موجودٌ حقّا؟ اتّفقّ الناس على أنّ الجوّ حارّ بعد حدّ ما، لكنْ هُم أنفسُهم لا يعرفون بكم يقدّر هذا الحدّ... تمنّيتُ أن أحدِّد تلك اللحظة التي تفصل بين السكون والحركة والحاضر والماضي والمستقبل، هل حقّا يوجد حاضر؟ فكلّ شيء تقوم به الآن سيصير فورا ماضيا وإذا لم تقمْ به فهو مستقبل، سيكون مدهشا أن تكتشف أنّه لا وجود للحاضر فحتّى الحرفُ الذي أكتبه الآن صار للتوّ من الماضي!"

بعدَها صمتتْ لمدّة قصيرة ما جعلني أسألها:

-هل أنتِ هنا؟

-نعم حبيبي، هلّا قرأتَه لي ثانية؟

أجبتُها مبتسِما رغمَ درايتي أنّها لا تراني، لكنّي كنتُ واثقا من أنّ الكلماتِ تنقُلُ كثيرا من الأمور الّتي نجهلُها، آمنتُ بهذه الفكرة لدرجة أنّي كتبتُ قصيدة بعنوان نبرة الصّوت جاء فيها:

كتبتُ إليكِ أشعــارا من النّظراتِ والكبتِ
وحبُّكِ كانَ في خجلي يلازمُ عتبة البيتِ
فكيفَ ترينَ لي فهما إذا لم تفهمي صمتي
إذا أرسلتُ في ظرفٍ أعنونُ ظهرَهُ أنتِ
فهل تكفي الحروفُ لكي تؤدّي نبرةَ الصوت؟

-لا بأس سأقرأ لك مجدّدا.

كانتْ ابنةُ عمّ ميلين خاشعة جدّا، لم أرها لكنّي استمتعتُ بالاستماعِ لأنفاسها الخافتة الحريصة على عدم الاختلاط بصوتي، سألتني بعدَها:

-أتدري لمَ طلبتُ منكَ القراءة ثانية؟

-لتتأمّلي معاني الكلمات؟

-ليسَ تماما... في المرّة الأولى استمعتُ إلى صوتك وفي الثّانية إلى كلماتك.

داعبتْ كلماتُها المتقنة عواطفي، إمّا أن تكونَ عفويّة شديدة الأنوثة والرّقّة وإما أن تكونَ محترفة عارفة بفنون الكلام والإيقاع بأمثالي، ضحكتُ مزهوّا بمدحها لي ثمّ ألقيتُ بعضَ الكلمات الّتي تحمل تفنيدا لما

قالتهُ حتّى لا يمرّ جمالُ هذه اللّحظة كغيرها من اللّحظات، أحسستُ أنّه يحقّ لي سماعُ بعض المديح من حين لآخر، أن أجادلَها لنناقشَ جمال صوتي أكثر وتأكيدِه:

-لطالما أخبروني أنّ صوتي بشع.

-ليس اليوم!

-اليوم فحسب؟

-فلنقل أنّ صوتَك هو أجملُ صوتٍ بشع على الإطلاق.

-واو... هذا يبدو أفضل من أن يكونَ أبشع صوتٍ جميل، كم أحب الصّدارة!

-ممم تحبّها إذا...

-نعم.

-أكثر منّي؟

-أنتِ الصّدارة وأنا المحظوظ الّذي استولى عليك...

ضحكنا وكانت أشباحُ الذّكرى تردّد حزينة داخلي: "لو كانتْ إيمان حيّة ما كانتْ لتنافِسَها أنثى على الصّدارة."

كلّ شيء كانَ مثاليا، حتّى النّسيم العليل يحملُ عطرَ الورودِ ليبارك اللّحظة، كانَ الجوّ شبيها بتلك المرّة في مقهى "طريق القنادسة" الّذي دأبنا على ارتياده لاحقا، أين روتْ لي المزيد... المزيد من حكاية التّنّين أقمد الّتي خلتُها انتهت.

أجملُ من كلّ البشر!

اليوم، ومع انتهاء حديثي مع ابنة عمّ ميلين في الهاتف شعرتُ بنعاسٍ حادّ، استلقيتُ على فراشي ونمتُ بعمقٍ شديد، كنتُ هناك واقفا بين أزهار الساكورا الوردية، لم يكن يوجَدُ غيرُها على مدّ البصر، كانتِ الطّريقُ ممتدّة ومغطّاة بأوراقِها، أشعّة الشّمسِ تنعكسُ على كلّ شيء فينطلقُ شعاعٌ ضبابيّ يجعلُ هذا المكان يبدو كالجنّة... أو أنّه جنّة فعلا! كانتْ إيمان... لقد جاءت لزيارتي، حينَ رأيتُها اهتاجتْ كلُّ المشاعِرِ الّتي سعيتُ لدفنِها، سقطتْ دمعتي وقلتُ لها:

-اشتقتُ إليك... إيمان.

-أنا بخير لا تقلق عليّ.

كانَ وجهُها مشرقا جدا، عيناها أصبحتا أكثر جمالا وأشدّ بريقا، ابتسامتُها أشعرتني بأنّ كلّ شيء على ما يرام.

- لمَ رحلتِ وتركتني وحيدا؟

-أنا هنا... حيّة.

-إيمان... أريد الذّهاب معك.

-ليس اليوم...

أخرجت من جيبِها قلبا كنتُ أهديتُه لها أيّام طفولتِنا، أمسكتْ يدي ووضعتهُ فيها وأغلقتها بإحكام.

أفقتُ من الحلمِ، لطالما كان الواقعُ بشعا، لكن ليسَ بهذا القدر، من الصّعب عليّ الخروج مجدّدا لملاقاتِه بعدَ أن دخلتُ الجنّة، من المؤلمِ النّظر إلى الجميلات هنا، بعدَ أن سحرني وجهُ حوريَ العيناء إيمان، لبثتُ في فراشي أبكي، لم أكنْ حزينا بقدر شوقي إليها، تساءلتُ طيلة ساعاتٍ: "ما الّذي تقصدُهُ بقولِها أنّها حيّة؟ هل هي أضغاثُ أحلام؟"، تمنّيتُ أن يكونَ الحلمُ رؤيا ربّانية تنبئني أنّها بخير، استولى عليّ الحلم لدرجة اتّصالي بأحد المشايخ الّذين أثق بهم، أخبرني الشّيخ "بوحفص" بتلك البشارة الّتي خفّفت عنّي قليلا: "أبشر، لعلّها كتبت لها الشّهادة، فالشّهداء لا يموتون!"

وضعتُ السمّاعة ومجدّدا بكيتُ طويلا، صرتُ عاطفيّا جدّا منذ رؤيتي الحلم وكنتُ أصدّقُ أيّ إشارة تدلّ على أنّها مضتْ إلى مكانٍ أفضل، فعلتُ كلّ شيء ممكن من أجلها حين كانتْ حيّة، لكنّي أدركتُ يومها أنّنا لا نفعلُ أبدا ما علينا فعلُهُ بالقدر الكافي، هنالِكَ دائما شيء أخيرٌ يفوتُنا فعلُه.

شعرتُ بالحاجة لشمّ ريحِها مجدّدا، للمشي في شارِعِها وملامسة جدار بيتِها كما كانتْ تلامسُ أنامِلُها وجهي متحسّسة إيّاه، ساورتني تلك الذّكرى القاتلة، أظنّها كانت المرّة الثالثة أو الرّابعة الّتي يجمعنا فيه شاطئنا، سجّلتْ إيمان مقطوعة من تأليفها على الهاتف، قالتْ أنّ المقطوعة تشبهني كثيرا، حزينة وجميلة، ككفيف يحملُ قنديلا، سألتُها يومَها:

-كيف يعرِفُ الكفيفون طيبة غيرِهم؟

-من كلماتِهم وتعابيرهم.

-تعابيرهم؟ لكنّهم لا يبصرون!

-الجميع يبصر، لكن ليس بالطّريقة نفسها.

-وهل تعرفين طريقة الكفيفين؟

أغمضتْ عينيْها، مدّتْ يديها إلى وجهي وراحت تتحسّس أخاديده ووديانَه وروابيه، وجدتُني أبتسِمُ من كلّ قلبي، لم يسعني غيرُ ذلك، تأمَّلتُها مغمضة العينين كعروسٍ نائمة، كنتُ مفتونا ولِهاً بها، ابتسمتْ حال استشعارِها ابتسامتي... فتحتْ عينيها، كنتُ أترقّبُهما وكأنّها كشفت عن كوكبين خضراوين ينبضان بالحياة، استطعتُ أن أرى نفسي فيهما، كأني كائن فضائيّ يُقبلُ منهما، كنتُ أجمَل من كلّ البشر هناك، أسعدَ من كلّ الكائنات... تبسّمت وهي تشير بيدها:

-مرحبا؟!... أين شردت؟

عدتُ من سفري القصير في الحين، قلتُ لها:

- ما رأيك؟

-أنت طيّب... طّيبٌ جدّا.

-أنتِ بارعة جدّا! هل كنتِ عمياءَ من قبل؟

-نعم كنتُ كذلك لمدّة ستّ سنوات تقريبا.

-فعلا؟ لم تخبريني بذلك يوما!

ضحكت واضعة يدها على فمها قبل أن تكفّ عن الضحك وتنظرَ إليّ بكلّ أنوثة ورقّة قائلة:

-لأنّ يومَ لقائكَ هو أوّل يومٍ أستطيعُ رؤية الحياة فيه، أنرتَ الوجودَ من حولي.

نعم! أنرتُ الوجودَ من حولِها بقدومي وأظلمَ وجودي برحيلِها، حياتي اليومَ لا تعدو تلمّسَ معالِم الطّريق محاولا التّعرّف على شيء ما يناسبني... شيء يشبهني! أمضي ولا أدري إلى أين أو كيف، قد أنتهي بالوقوعِ في دوّامة لا أخرج منها مجدّدا، ليسَ بوسعي ملازمة مكاني حتّى، فكلّ شيء ينهار هنا، حتّى قلبي صار يتهدّم وتتساقط قطعُهُ كبيتٍ مهجور.

في هذه الأثناء قمتُ بخطوتي التّالية الّتي عبثت بحيواة الكثيرين... حضّرتُ حقيبة السّفر!

النهاية الجميلة

لم تنمْ يسرى تلكَ اللّيلة، شعرتْ بشوقٍ كبيرٍ للسّفر ولملاقاة الكاتبِ بشكلٍ خاصّ، ربّما لم يمثّل إلّا ضحيّة أخرى لشغفِها بالاختلاف ولم يكنْ أفضلَ من الأزياء الّتي ترتديها لمجرّد أنّ لا أحد يرتديها، كانَ مجرّد احتمال ستنفيه أو تثبته الأيّام، استيقظت صباحَ اليوم التّالي بعدَ قسطٍ قليل من الرّاحة، ما كانتْ لتنامَ أطول ممّا فعلتْ حتّى لو لم يكنْ ثمتَ ما يشغلُ بالَها ويذكي استمتاعها باجترار الأفكار واستباق الأحداث، تأكّدت من أنّها وضّبت كلّ أمتعتَها وهي تتساءلُ عن ذاك الشّيء الّذي ستنساه:

-"أ لسنا دائما ننسى شيئا ما؟ تذكّرُ هذا الشّيء قد يجعلنا ننسى الشّيء الآخر في النّهاية! لكن ماذا لو تعمّدتُ نسيان شيء لا يهمّني؟ هل سيكون قربانا كافيا للذّاكرة كي تتذكّر الأشياء الأهمّ بالنّسبة لي؟"

في هذه الأثناء جاءت صديقة العمر سلمى، الصّديقة الوحيدة الّتي لازمتها رغمَ حالتِها المتردّية.

- مستعدّة للذّهاب؟ أربي إيّاه... أربي ذاكَ الحماس!

حينها صرختا معا بحماس ضاحكتين من كلّ قلبيهما سويّة، هناكَ في المطار الأجواء دعتْ للتّفكير، ليسَ وكأنّ ذلك ينقصُها، لكنَّ المطار ومحطّة الحافلات والقطارات... هذه الأماكنِ الّتي تحملُنا بعيدا عن الأماكن الّتي نألفُها، كلّها تحمِلُ قصصا لا تحصى، تسكُنُها أرواحٌ حزينة تمسُّ كلّ من يلجها، على أرضِها ضاعتْ عمل نقديّة وأوراقٌ ثبوتية ووعودٌ كثيرة، يأتي البعضُ هنا حالما بالهجرة وبجانبه آخر ينتظر عودة أحدهم لكنّه كثيرا ما لا يعود، إمّا لأنّه لم يستطع أو لأنّه مجرّد كاذب لعين، على أرضِها دموعُ جفّت فما عادَ أحدٌ يأبهُ لها، ربّما تصاعدَ بخارُها وشكّلَ غيمة أسعدتْ إنسانا ينتظرها منذ شهور لمّا أمطرت، على أرضِها غبارٌ رسمَ عليه أحدُ المشتاقين قلبا فمسحتِ المنشفةُ القلبَ وبقي ما فيه، على أرضِه خطواتٌ متسارعة لحبيبين ركضا نحوَ بعضِهما وفي أرضِه... وفي أرضه مأوى لمشرّدٍ وجدَ أرضيّته أطرى على جنبِه من ركلاتِ البشر الّتي طردته ككرة تقاذَفوها من ركنٍ لآخر.

أخرجتْ قطعة نقديّة، أعطتْها للشّخص المستجدي في الرّكن هناك قبلَ خروجِهما من الباب المؤدّي إلى الطّائرة.

-"ربّي يفرحك..."

دعاؤه لها أنعشَ صدرها وبعث فيها كثيرا من التّفاؤل والأمل، لم يكنْ تفاؤلا بحياة طويلة بل ببقيّة جميلة، ففي النّهاية كلّ ما لم نَعِشهُ هو بقيّة طالَ أم قصر.

كلّ من ركبَ الطّائرة أوّل مرّة كانَ مذهولا، يسرى كانتْ مذهولة أيضا رغمَ ركوبِها الطّائرة مرّات عديدة، كلّ مرّة هي مرّة أولى حينَ ننظرُ إليها بشكل مختلف ونتدارس تفاصيلَها، في الواقع سببُ ذهولِها هو مشاهدة الطّائرة تطيرُ فوقَ الغيوم، هل ستكونُ رحلتُها القريبة إلى السّماءِ بهذا الشكل؟ هل ستزور روحُها هذا المكانَ الجميلَ الهادئ؟ شعرتْ بقليل من الخوف كأيّ شخصٍ مقبلٍ على المجهول وحينَ يرغبُ في الهرب يجدُ أنّه لم يبرحْ مكانَهُ يوما، وأنّ المجهولَ من كانَ يدنو منه منذُ البداية، تمنّت أن يمدّ يدَهُ إليها ويصافِحَها معلنا السّلام مع روحِها وعليها فحسب... نُمضي حياتَنا نتمنّى أشياء عظيمة وأخيرا نخلصُ إلى أنّ أقصى أمنياتنا هو نهاية جميلة.

توأم

اتّخذتُ قراري بالعودةِ مجدّدا إلى أرضِ الوطن، أينَ تركتُ فرصة جديدة للحياة، لم يكن ذلك بالضّبط ما أعادني، إنّما هو الشّوقُ لكلّ ما يذكّرني بإيمان بعدَ محاولتي عبثا الهروب من حزن رحيلها.

حجزتُ في أقرب رحلة من أجلِ العودة، اتّصلتُ بأريام وطلبتُ منها انتظاري ساعة وصولي، أخشى أن يهزمني الحنين ولا أتمالك نفسي، يكفي وصولي من الرّحلة الأولى إلى مطار العاصمة وركوبي منه مجدّدا إلى مطار بشّار كغريب،في الحقيقة أردتُ أن ينتظرني أحدٌ ما في المطار، من الجميل الشّعور أنّ شخصا ما يرغبك فيك وينتظر قدومك، لم يغمض لي جفنٌ كما في كلّ مرّة أعود فيها إلى الوطن، قبلَ مدّة كنتُ أخشى إغماضهما للنّوم، أخشى من صورتِها تطاردني كلّما حلّ الظّلام... وصلتُ أخيرا إلى المطار حاملا حقائبي، سرتُ عبرَ الممرّ ورأيتُها هناكَ تجلسُ على الكرسيّ الأزرق ذي الحواف الفضّيّة شاردة تنتظرُني، لفتَ وقعُ حذائي نظرَها وأيقظها من شرودِها مع اقترابي منها، وقفتْ بسرعة في سعادة بالغةٍ لرؤيتي... هذا هو بالضّبط السّبب الّذي جعلني أطلبُ منها انتظاري، لم يعدْ ثمت أشخاصٌ كثيرون يسعدونَ برؤيتي، مدّت يدَها لي وهمّت تمدّ رأسها لتقبّل خدّي، لكنّي كنتُ متراجعا حينها، في الحين مددتُ رأسي لكنّها كانتْ قد تراجعت، ضحكنا لذلك ونحنُ لم ننبس ببنتِ شفة بعد، أعدنا المحاولة فاتّجهَ كلانا إلى الجهة نفسها... وبعدَ محاولاتٍ قليلة استطاع كلّ منّا تقبيل خدّ الآخر وهو لا يتمالك نفسَهُ من الضّحك.

-يا إلهي... أنتَ هنا حقّا !؟

-وأينَ يجبُ أن أكون؟

- أين وجبَ عليكَ أن تكونَ منذ زمن...

-ماذا عنك؟ أين وجبَ أن تكوني؟

شردتْ للحظة كأنّها تذكّرت شيئا ما، ربّما ذكّرتُها بمكانٍ أرادت التّواجد فيه بشدّة سابقا، حدث ذلك بسرعة لا يكادُ يلحظُها شخصٌ لم يسامر الحنين، نظرت إليّ ثمّ خفضت عينيها قليلا ووضعت إصبعَها على صدري وقالتْ:

-هنا!

أمسكتُ يدها وثبّتّها على صدري وقلتُ:

-عليك أن تفعلي ذلك إذن!

-ألن تدعني أدخل؟

-لقد دعوتُكِ سلفا، لكنّ مفاتيحي ضاعت منّي.

ما لم أخبرْها به هو أنّي كنتُ صانعَ مفاتيح قبلَ اغترابي، حتّى أنّ امرأة حزينة (السّيدة مخاطري) أقبلت إلى محلّي ذاتَ يوم طالبة منّي في يأسٍ أن أدلّها على "مفتاح السّعادة"! ما يسعدني أنّي نجحتُ في ذلك رغمَ عدم امتلاكه... سألتني أريام:

-أين أضعتَها أيّها "التّالَفْ"؟

-في المكانِ الّذي ستجدينَها فيه.

-وأين سأجدُها؟

-في المكانِ الّذي أضعتُها فيه.

-كم أنتَ مُتعب، سأصنَعُ مفاتيحَ جديدة فحسب.

سِرنا معا في مرحٍ بالغ، استقللنا سيّارة أجرة صفراء ذات خطّ أحمر كسائر سيّارات أجرة المطار، وتوجّهنا إلى أوّل مقهى خطر ببالي، أوشَك حوارُنا عن دخول قلبي يجنَحُ إلى الجدّيّة لولا أنّها عدّلت مسارَهُ بذكائها وفطنتِها، أدركتْ أنّي بداخلي جراحا قديمة مستعدّة للانفتاح لأدنى كلمة أو ذكرى، جلسنا بالمقهى وتحدّثنا عن معظم الأمور الّتي لا نريدُ الحديثَ عنها، كانتْ كغيرها من الأمور الّتي نشعُرُ برغبة في الحديثِ عنْها إلّا أنّها أقلّ ذاتيّة، لذلك كانَ الخوضُ فيها أقلّ مرارة.

تحدّثنا عن اللّحظة وفلسفتِها، تحدّثنا عن الحبّ ووجودِه وعدمِ إدراكنا له في المرّاتِ النّادرة الّتي يتواجَدُ فيها داخلَنا، سألتني يومها:

-هل من الممكنِ أن يتغيّر الحبّ العميق نحو شخصٍ ما أو يتحوّل إلى كره؟

-في الحقيقة... لا أدري، لكن قد يتغيّر الشّخص عموما دونَ أن يشعر.

ضحكتْ وقالت:

-يبدو أنّ أقمد علّمك الكثير.

-نعم! للأسف، انتهى بعيشه مع التّنانين مرغما، أعرفُ جيدا معنى أن يتركَكَ أهلُك، أما خذلانُهم لك فلا أحالُه إلّا إحدى درجات التّرك الفادحة.

أجابت وهي تجذبُ طرف الحديثِ من بين شفتيّ إلى الجانب المبهجِ الّذي تخلِقُه، كأنّ اليومَ عيدٌ بالنّسبة لها تسعى خلالَه لإقصاء كلّ ما يفسدُ فرحتَه:

-في الواقع... القصّة لا تنتهي هنا، يخبّئ القدر الكثير للجميع، سأروي لك بقيّة الحكاية كلّما جلسنا هنا في المقهى، ما رأيك؟

أسعدني سماع ذلك ووافقتُ دون تردّد، بعدها طلبتْ منّي قراءة شيء ما من أجلها، أخرجتُ من جيب حقيبتي كتابي "كيد الرّجال" الّذي يحملني أينما ارتحلت وقرأت لها:

"وبعد كل هذه السنين، ها نحن من جديد نحاول إثبات أن الأرض مسطحة... دورة كاملة عُمرها خمسون ألف سنة... نجتمع الآن عند النّهاية لنناقش البداية من جديد!".

استوقفتني هذه الكلمات... حدّقت في عينيها طويلا، هناكَ أين استطعتُ رؤية التّناوبَ الأزليّ بين النّهاية والبداية والإرثَ المتبادلَ بينهما، أبصرتُ فيهما الطّريق إلى الفردوس... كانَ طويلا ومليئا بالمنعرجات، كنت واثقا من أمرٍ واحد... وهو أنّي أريدُ سلوكَه تماما مثل أقمد الّذي اندفعَ نحوَ المجهولِ من أجل الأمر الّذي أرادَه، كانَ مجرّد جوابٍ عن سؤالٍ تافه، لكن هكذا هي أحلام الغير، كلّ ما لا يعنينا منها يبدو تافِها في أنظارنا، كانَ الأمر كذلك حينَ كانتْ تحدّثني أريام عن رغبتِها في خاتمٍ بتفاصيل قليلة وصبغة بلون الكابتشينو لشعرها يوم العرس، بعدَ قليلٍ حملتْ الفنجانَ الّذي بردتْ القهوة داخلَه وارتشفتْ رشفة صغيرة منه لتستعيدَ إيقاع الحديث عن المواضيع المشتركة الّتي تهمّنا، استدركتْ الأمر وقالت:

-لكنّك لا تأبه بأيٍّ من هذا، صحيح؟

-في الحقيقة... بلّورة صغيرة على الخاتم ستجعلُهُ أكثر جاذبيّة.

تداركتُ بقول هذه العبارة تهاوني في إبداء الاهتمام بما تقولُه أنا الآخر، نظرتْ إليّ كأنّها تقول: "يا لك من ماكِرْ!"

-هل كنتَ دوما بهذا الدّهاء؟

-لا...بدأ ذلك قبلَ مدّة.

-منذ متى؟

-منذ أن توقّفتُ عن العدّ.

-ومتى توقّفت عن العدّ؟

-دعكِ منّي وأخبريني، هل كنتِ دوما بهذا الجمال؟

-لا... بدأ ذلك منذُ مدّة.

-منذ متى؟

-منذ أن توقّفتَ أنت عن العدّ.

-يبدو أنّ ذلك يصادفُ عيد ميلادِ دهائي.

-يبدو أنّنا رزقنا بتوأم: دهاء وجمال.

-ما رأيك في سماع بقيّة القصّة الآن؟

في هذه اللّحظة شعرتُ بهبّ النّسيم على هذه الأرض الواسعة، ومسحتْ على رأسي أوراقُ الشّجرة المتدلّية فوقنا، كما كانتْ تفعلُ جدّتي "الزّهرة" وهي تروي لنا "حجّايات زمان"...

الفصل العاشر

بدأ أڤمد حياتَه كأفعى وانتهى به الأمرُ كتنّين مشرّد عن قومِه الّذين نشأ بينهم، رحل وأصبح زعيما وسيّدا لمملكة التّنانين الأسطوريّة بعدَ أن أطاحَ بملكِها، وبين ذاكَ وذاك استطاعَ أن ينقذَ العالم من جبروتِ العفريت حمّو-قيّو النّائم أسفل النّهر، مضى أڤمد في الأرض كالسّحابة الّتي روتْ كلّ بذور الأمل، حلّ المعضلات وأدخل السّرور على كلّ من صادفه وساعَد الكثيرين على بلوغ أهدافٍ كانتْ مستحيلة قبلَ لقائه هامَ في الأرض سنينا طويلة وعندما عاد، قامتْ عشيرتُه بطرده، أنكرته بعدَ أن تغيّر شكلُه من أفعى جميلة، إلى تنّين شرسٍ ينفثُ النّار بسبب تعويذة بحيرة البلدة التي أكسبتْهُ القدرة على تقمّصِ خصائص الأحياء الّتي يأكلُها، فاكتسبَ القدرة على تحمّل الحرارة من العجوز السّوداء "بومبيه" والقدرة على نفث النّار من أرض الجنّ واكتسب النّار السّوداء من العفريت العظيم أبانوخ والجناحين من صديقه توشوشت بعد أن اضطرّ لأكله، هذا الأمر الأخير غيّر الكثير داخِله... إلى غاية تلك اللّحظة كانتْ روحُه رقيقة مرهفة، غير أنّ التهامَ أقربَ أصدقائه عرّفه على حقيقة العالم البشعة، صارَ أكثر حكمة وأشدّ ميلا للمنطق، مرهفو الحسّ حينَ يحكمون بمنطقِهم يغدونَ مستعدّين للتخلّي عن أيّ أمرٍ يخالفُ رؤيته وقناعاته، من المستحيلِ إقناعُهم دونَ عبورِه، كأنَّه صندوقٌ تقبَع داخِلُهُ مشاعِرُهم، لا يمكن تحريكها دونَ الحصول على المفتاح المناسب، أمضى أڤمد الأيّام على عرشِه كحاكِم عادل، هذّبَ طبعَ التّنانين الّتي لم تعرفْ في تاريخِها القريب سوى الطّيش والبطش، عرّفها معنى الطّيبة والتّعاون والبناء، خلال سنوات صارت مملكة التّنانين أرض الحضارة رغمَ غيابِ مظاهر الحياة في ملامِحها وشكلِها وكثرة براكينها وحممها الجارية، صارت أخيرا مستعدّة للانفتاح على بقية الممالك.

"حين تفشلُ في كلّ ما تحاولُ فعله فحاول أن تفشل في أمرٍ ما، إن نجحت حينها كانَ فوزا لذاتك وإن فشلتَ كان انتصارا على الفشل، هكذا تكونُ ناجحا رغمَ أنف الخيبة، أحاديثُ اللّيل شموعٌ سرعانَ ما تنطفئ ولا يتبقّى منها سوى أجسادُها الذّائبة، لذلك يجبُ إضرامُ نيرانها في أكوامِ حماستنا لتضيء الطّريقَ إلى رغباتِنا الّتي تمنّيناها، حينَ ننهضُ صباحا سنجدُ طريقا اكتشفناها قبلَ النّوم بدلَ أمنياتٍ كشفتْ كسلنا بعده، كسلنا عن بدأ شيء ما أو إنهائه كما يجب."

كانتْ هذه العبارات تخالجُ أڤمد في سكونِ هذه اللّيلة، النّجوم تغزو السّماء وترصّعها بهذه الألوان الخارقة، لوحةٌ إلهية تفوق معنى السّحر، إنّه الجبروت المطلق، السّكون والنّجوم معا، بإمكانِهما إقناعُ شخصٍ عاقلٍ بأيّ شيء وإعطاء المجنون بعض الشرعيّة الّتي تفسّر أنّ الرّؤى الّتي توحيها الطّبيعة قد تكونُ متطرّفة جدّا، إلى حدّ تستطيع فهمَهُ وحدك وإلى حدّ يعتبرُك فيه غيرُكَ مجنونا إن حاولتَ مشاركَتَهُ منظورك، لم يهدأ لأڤمد بال، شيء ما يخنقُه وسيستمرُّ في خنقِه ما لم يتصرّف، نادى وزيرَه وسأله:

-ما رأيُكَ في أحوال المملكة؟

ردّ الوزير:

- لم أرها أحسنَ حالا منذ سنينَ طويلة يا سيدي أڤمد.

-همم، ما رأيكَ في فتحِ الممرّات السالكة إلى بقيّة العالم؟

تفاجأ الوزير وردّ بنبرة يملأها القلق:

-آخر مرّة حاولنا فعل ذلك انتهى الأمر بشكل مروّع.

التفتَ أقمد برزانة الملوكِ بعدَ أن أثار الجوابُ فضولَه:

-وما الّذي حدث؟

شخُصَ بصرُ الوزير واكتست ملامِحَهُ الجدّيّة وأسدلَ حاجباهُ ظلّيهما على عينيه وراحَ يقصّ بكلمات تتقاطر مرارة:

-قبلَ زمن بعيد، كانتِ التّنانينُ مخلوقاتٍ منعزلة كحالِها الآن، غيرَ أنّها في مرحلة ما بعد انعزال طويل، قرّرت الانفتاح على العالم، أصبحتْ مُحبّة للغير مُرحّبة بقدومِهم، سارَ كلّ شيء على ما يرام إلى أنْ حلّ ذاكَ اليوم الذي أقبلَ فيه وافدٌ من مخلوقات "الأدفل" اللّعينة، رحّبت به التّنانين أيّما ترحيب، لكنّه استغلّ طيبتها وتسرَّب إلى حجرة التّنين المقدّسة وسرقَ منها شعلة الحياة بطلبٍ من الفزّاعة "ترقو"، من يومِها تحوّلت أرضُ التّنانين من جنّة إلى خراب ولم يعدْ مرحّبا بأيّ كان فيها.

-وأينَ الشّعلة الآن؟

-في أرض مخلوقات "الأدفل".

-ما دمتم تعرفون مكانَها فلِمَ لمْ تعيدوها فحسب؟

-ليس الأمر بتلكَ البساطة يا سيدي، خسرت المملكة أشجع تنانينها في محاولة استرجاع الشّعلة، إلى أن تقبّلت في النّهاية مصيرَها المحتوم.

-هكذا إذا...

في هذه اللّحظة اتّخذ أقمد قرارا حاسما، العالمُ مكانٌ سيّء ويحتاجُ إلى التّقويم. الألم ... الحروب... الموتى ثمن رمزيّ قد يدفعُه في سبيل تحقيق الغاية الكبرى والصّالح العامّ... حالا أومأ إلى الوزير بعقد اجتماع لقادة الجيوشِ!

عشقٌ مبرّر

-هذا كافٍ لهذا اليوم!

قالت ذلك ابنةُ عمّ ميلين وهي تعلَمُ أنّ فضولي اشتدّ، مع ذلك كنتُ حريصا على ألّا أعطيها مرادَها هذه المرّة، لنْ أتوسّل إليها لتكمِل الحكاية اليوم لأنّها إذا أيقنتْ من جموحِ فضولي ستستعملهُ مستقبلا لمفاوضتي على أمورٍ ما كقبلة أو تسوّق أو... عليكَ إيهامُ البائع أنّك لستَ مفتونا بسلعَتِه إلّا إن شئتَ تمليكَهُ حرّيّة سلب جيبك، مهما كانَ القريبُ قريبا والعزيزُ عزيزا فعلى المرء تركُ بعضِ الأسرار لنفسِه فقط من أجلِ ذاته أحيانا ومن أجل محبوبه أحيانا أخرى، لا يمكنُكَ تعليمُ الطّفل تسلّق السّياج مثلك إن كانَ سينتهي به الأمر بدقّ عنقه، يذكّرني الحديثُ عن التّسلّق بتلك القصّة الّتي روتها لي إيمان يومَ اجتزنا امتحانَ نهاية التّعليم الابتدائي معا، أشدّ ما كانَ يقلقني يومَها هو إبعادُها عنّي ووضعُها في قسمٍ آخر، رافقتُها كعادتي من بيتِها الواقع بـ "الحيّ الرّياضيّ" قرب العيادة العموميّة إلى غاية مركز إجراء الامتحان، أطفال هذا الحيّ في مستوى آخر مقارنة بمحيطِهم، ملابسهم عصريّة أنيقة ويجيدونَ العزفَ على آلة موسيقيّة على الأقل، أمّا عن إيمان فكانتْ تجيد العزفَ على البيانو... عائلَتُها تعتبرني أحدَ أفرادِها وساندتني معنويّا ثمّ بالرّأي والتّدبير حينَ ألمت بي المصيبة سنة **2003**، نشأنا معا ولم أشعر معهم بالغربة.

اجتزنا -أنا وإيمان-الاختبارات المدرسيّة الواحدَ تلو الآخر وكنتُ أوّل الخارجين خشية أن تخرجَ ويقفَ برفقتِها أحد الأطفال، لقد حظيتُ بكثير من الصراعات الجسدية مع أقراني حتّى يفهموا أنّها لي، لكنْ هؤلاء الأطفال من المدارس الأخرى لا يفقهون ذلك وقد أحتاجُ إلى لكمِهم أيضا حتّى يفهموا، كوّنتُ كثيرا من العداوات بسببها، الأمر الوحيد الّذي شجّعني على المواصلة هو عدم انزعاجِها من غيرتي، لم تكنْ خانقة لها على الإطلاق، بل بدتْ مستمتعة بها، استمتاعَ أيّ شخصٍ يملكُ من يقاتل من أجلِه ويغار عليه.

أيّاما قبلَ الامتحان وبينَما كنّا نراجعُ سويّا في صالة بيتهم، قصّت عليّ قصّة روتها لها بدورها جدّتُها، بدتْ متردّدة قليلا قبل أن تستفيض في الحديث، ذلكَ لأنّي كنتُ أساعدُ أصدقائي في دراستِهم دونَما بخل... قالت:

-إن أريتَهم كلّ شيء سيحصّلون نقاطا أفضل منك وقد يسرقون معلوماتك أيضا.

-وماذا أفعل؟

نظرتْ إليّ مميلة رأسَها وقالت:

-سأحكي لكَ قصّة روتها لي جدّتي.

فرحتُ كثيرا لهذا الأمر، عشقتُ القصص وعِشتُ معَها في خيالي أكرّره ليلا على وسادتي... قد أستبدلُ البطل وأحلّ محلّه في بعض نسخ مخيّلتي الكثيرة.

-كان يا مكان في قديم الزّمان، عاشَ هنالك قطّ اسمُه "مينوس"...

أذكرُ أنها نطقتها "مينوث" بسبب أسنانِها الجديدة، لم تستطِع استرجاعَ حرفِ السّين إلّا لاحقا حينَ كبرتْ كما حدثَ معي بالضّبط، ضحكتُ كثيرا فورَ قولِها ذلك وقلت:

-مينوث! ليست "مينوث" بل "مينوث".

قبلَ أن أدرِكَ أنّي لستُ أفضَلَ حالا منها، انفجرنا ضاحكين ما شاءت لنا عواطِفُنا ذلك وحينَ استطعنا أخيرا التوقّف قالت:

-غيّرتُ رأيي لن أحكي لك شيئا مجدّدا.

-خلاص... آسف آسف، أرجوكَ احك لي قصّة مينو... مينووو... ثسس...

كانتْ صناعةُ حرفِ السّين عمليّة معقّدة يجريها لساني بالتّعاون مع طاقم أسناني الجديدة، ربّما لقلّة خبرتِها ... ستتحسّن في ذلك مع المرور الأيام، ردّت بسرعة بديهة هي أيضا:

-ليست مينوث، بل مينوو...ث... ثث... ثثثس.

لم يكنْ هنالِك مفرٌّ من الضّحك لعدّة دقائق أخرى، امتلكنا ما يكفي من الوقت والمرح حينها، الأمران اللذان يصعبُ الحفاظُ عليهما طويلا اليوم.

-كانَ مينوس قطّا ذكيّا ورشيقا ويجيدُ حركاتٍ كثيرة، لكنّ عدوّه الكلب "ريكي" كانَ ينغصّ عليه عيشه، كلّما وجدَهُ في مكانٍ ما جرى خلفَهُ وتبعَه بالنّباح إلى أن يعجزَ عن ذلك، فحركاتُ مينوس دائما تنقذه، الجري المتصالب ونشب المخالب في الجدار والتقلّص تحت السيّارات....

ذاتَ يومٍ قرّر ريكي عقدَ الصّلحِ مع مينوس، فرحَ مينوس كثيرا لذلك، حينها أخبرَه ريكي بشروطِهِ الّتي يريدها منه مقابل الهدنة والّتي تمثّلت في تعليمِه جميعَ الحركاتِ الّتي يتقِنُها، فكّر مينوس قليلا ثمّ أبدى موافقَتَه.

مضتْ أيّام تعلّمَ خلالَها ريكي جميع الحركات، حينَها قالَ لمينوس: " أعتذر منك الآن لكن... يجبُ أن آكلك...". ردّ عليهِ مينوس: "لكنّك وعدت!"

حينَ أدركَ أنّ ريكي مصرّ على أكله، فرّ كعادته، جرا مينوس جريَه المتصالب فجرى ريكي مثلَه، ثم وثب على الجدار وغرس مخلبَه فيه ففعل ريكي مثلَه واقترب منه أكثر ثمّ دخلَ مينوس وتقلّص تحت السّيّارات فلحقَ به الكلب ريكي... حفظَ كلّ حركة يقومُ بها وأتقنها مثله تماما، لم يجد القطّ مهربا... حينَها وبحركة خاطفة تسلّق الشّجرة، تفاجأ ريكي ناظرا إليه قائلا: " لقد خنتني ولم تعلّمني هذه الحركة!"، فردّ عليه مينوس قائلا: "لو علّمتك الحركة لكنتُ الآن في بطنك!"

كنتُ صغيرا جدّا لأفهم معنى القصّة تماما، لكنْ إيمان... كانتْ أنضجَ منّي ودائما تسبقني بخطوة، الآن وقد كبرت وعادتْ إليّ ذكرى القصّة، شعرتُ أنّها تستحقُّ منّي بيتا شعريّا لأكفّر عن تقصيري في حقّها، أمسكتُ قلمي وكتبت:

ما عُدتُ بالأحباب جهرا ألتقي ... لا نــلتقــي إلّا لـنفترقَــا
وأغـيبُ حتّى تستنيرَ وضاءتي ... فيُقالُ إن أقبلتُ "قد شـرقاَ"
جـرّبتُ في الأهواء كلّ جديدة ... وأخذتُ مِن أشياءِ من سبقا
حـتّى أتاني سائلٌ: "هل مثلنا؟ ... سلك المحبّة كلّ من عشقا؟"
فأجبتُ:"كنْ سندا لتبقى جانبي ... سأريـكَ ممّا لمْ ترَ الطـُّرقا"

عـلّمتُهُ مئة ولُذتُ بـواحدٍ ذاكَ الّـذي أنجانيَ الغـرقَا
فدَنا وقال: " لقد وثقتُ وخنتني! قد يخطئ التّلميذُ إن وثقا!
فـعجبتُ منهُ لائما وأجبتُهُ يـا ليتَهُ ذو الحمقِ ما نطقَا
"الطّـينُ أجناسٌ وأنتَ خبيثُها في بُـعـدِهِ يبدو وقد برقَا
إنـّي ذكرتُكَ حينَ ذِكريَ قولَه سبحانَهُ من "شرّ ما خلقَ"

أنهت إيمان قصّة القطّ والكلب، لم تسترعِ انتباهي الأسرّة المرقّطة كجلد الفهد ولا السّاعة الخشبيّة الّتي يخرج منها العصفور عندما تدقّ السّاعة في منتصف النّهار، لم أحسب عدد زخارف الثريّا كما اعتدتُ أن أفعل ولم أتفقّد الإتقان في الخطّ الفاصل بين البنيّ والذّهبي لونا الجدار، كنتُ أنظرُ إليها متأمّلا شفاهها الرّفيعة حين تلتئم وتفترق، كانَ أوّل يومٍ أشتهي فيه تقبيلَها، كان مجرّد التّفكير في ذلك كبيرة من الكبائر بالنّسبة لي على كلّ حال، سألتها بعدَ أن حسبتني أدركتُ المغزى من القصّة:

-إذن... عليّ ألّا أعلّم أصدقائي كلّ ما أعرف؟

- لم أقصد هذا تماما!

شَكُل عليّ الأمر ولم أعد أفهم ما تريده منّي، هل عليّ تعليمهم كما تعوّدتُ أن أفعل، أم أكتفي بإعطائهم القليل؟

-إذا ما الّذي تقصدينه؟

-أقصد ... يمكنكَ فعلُ ما تشاء، إذا كنتَ متأكّدا أنّك لن تندَمَ لاحقا.

الآن فقط فهمت! أقصدُ بالآن الزّمن الحاضر لا تلك اللّحظة رفقتَها، كان اعتراض إيمان على تدريسي أصدقائي غريبا بالنّسبة لي وتساءلتُ عن السّبب، أ لمْ تكن طيبة وخدومة؟ ما الّذي غيّرها فجأة؟ لكنْ عبارتُها الأخيرة جعلتْ عشقي لها مبرّرا جدّا، فقد قصدتْ أنّ عليّ أن أكونَ واثِقا من أنّي لن أندَمَ وألوم أصدقائي ذاتَ يومٍ أو أطلبَ ردّ الجميلِ منهم كما أنّ عليّ ترك مسافة بيني وبين بعضهم، فقد يؤذونني نتيجة للقرب المفرط وإن كانت علّته الدّراسة، نظرتُ إلى إيمان مفتونا وطلبتُ منها أن تقصّ عليّ الحكاية من جديد!

أعني كنتُ مفتونا بشفتيها، لأنّي لم أفهم ما فهمتُه من القصّة إلّا بعدَ سنواتٍ عديدة، النّصائحُ من الأشياء الثّمينة الّتي لا تُرمى فقد يتمّ الانتفاع بها ذاتَ يوم، لكنّ المبالغة في ذلك يؤدّي إلى تراكُمات غير ضرورية، هي أشبَه بالخردة الّتي كدّسها أبي في العِلّيّة تحت مبرّر أنّها ستفيدُ يوما ما والآن أصبَحَ تنظيفُها أو فرزها مستحيلا، كدّسِ الأحزان والضّغائن في صدرك كما تشاء، لا تستغرب يوما من عجزك عن طردِها بعدَ أن تعتاد كرمك وسِعتك، دعِ الحزنَ وإلّا استولى عليك! السّعادة كالأنثى العنيدة المتمنّعة، لا تستجيبُ لكَ من مجرّد نظرة، عليك الإصرار والسّعي لإغرائها، حينَ تحصُلُ عليها مرّة ستعرفُ ما يجذِبها وما يتطلّبُه الحصول عليها كلّ مرّة!

عجبي لم يكنْ من حكمة إيمان في ذاك السّنّ المبكّر، فقد كانَ من الواضحِ أنّ وصيّتها لم تكن إلّا وصيّة أهلها لها وقرّرت أن تقاسمني إياها كما فعلتْ بالخبز قبل خمس سنوات، إنّما تعجّبتُ من استيعابِها الحكاية وتخيّر مضربها بكلّ ذكاء.

شردتُ طويلا هذه المرّة رفقة أريام، ثانيتان إضافيّتان تقريبا، حالي يزداد سوءا... عدتُ من الذّكرى متثاقلا ولُذتُ على الفور بالحديث قبلَ أن تسألني عن المكان الّذي سافرتُ إليه وعدتُ مبتسما، حدّثتُها عن شعوري وأنا أبادلُها النّظرات عبر باب بيتِ أحمد وميلين، كانتْ أوّل مرّة نرى بعضنا فيها:

-كان الأمرُ أشبه بزلزال مدمّر لو استبدلنا الخوف بالحماس وعدد الضّحايا بدقّات قلبي.

-يا دينَ الله، يا له من زلزال مدمّر! أتقولُ أنّك شعرتَ بكلّ هذا خلال لحظة؟

-ربّما بالغتُ قليلا... أعتقد أنّها كانتْ نصفَ لحظة.

ضحكتْ وقالتْ:

-لكن يقالُ أنّ اللّحظة غيرُ موجودة، هي مجرّد افتراض!

-وكيف يزعمونَ ذلك؟

-اللّحظةُ هي أصغرُ فاصلٍ بينَ وحدات الزّمن الأصغر... تقنيّا هي ليست بوحدة زمن، أي لا طولَ لها!

-إذا كانَ الأمر كذلك، فلمَ نحصلُ على الذّكريات حينَ نضمّ اللّحظاتِ إلى بعضها؟

لمْ تكن تملِكُ جوابا... قلتُ ما قلتُ متعجّبا من سؤالي المرتجل ومتسائلا داخلي:

"حقّا! أين تعيشُ الذّكريات؟ هل تعيشُ داخل اللّحظات أم أنّها إسقاط لها في أنفسِنا؟ أم أنّها تنتمي إلى بعدٍ يعسُرُ علينا فهمه؟"

يعتقدُ كثيرونَ أنّ الذّكريات شأنها شأنُ المشاعر، لا تعدو كونَها كيمياء وإشاراتٍ كهربائية تسري وفقَ نظامٍ شديدٍ يتكيّف مع عشوائية محيطنا وتجاوبنا معه ويقتبِسُ من كلّ ما تعايشه حواسّنا.

سألتُها ولم أكن أحتاجُ جوابا، لمَ أهتمُّ للأمور الّتي لا أمتلِكُها ما دمتُ في غنى عنها؟ فلنركّز على الأمور الّتي نحتاجُها، أظنّها تريدُ اكتشافَ قلبِ هذا الرّجل الّذي يجالِسُها، هل بوسعِهِ توفير القدْرِ الّذي تحتاجُه من الحبّ خلالَ حياتِها بجانبِه إن قُدّرَ لهما ذلك؟ تريدُ سبرَ فكرِهِ وفصاحتِه، هل بإمكانه ترجمة المشاعِرِ الّتي يكنّها إلى دعابات جذّابة وفلسفة تأسرُ لبّها؟

في الحقيقة كانَ هذا ما أريدُ معرفَتَهُ أنا عنها، لكنّي تعوّدتُ أن أعطيَ الآخرين ما أحتاجُ أن أتلقّاه منهم، بعدَها سيردّونَ إليّ عطائي وإلّا كانت مصاحبتُهم مضيعة للوقت، إنّها حتميّة القانون الثّالث لنيوتن!

أريام ذكيّة كفاية لتفهم مرادي، لكنّ ألفتَها التّعقيد الّذي أنا عليه قد يجعلني معقّدا حين ألوذ بالبساطة، البارعونَ في الغوصِ وحدَهم يغرقون في ذواتِنا العميقة ثمّ يُعبّدون إليها مسالكَ تنقلُهمْ إليها في كلّ مرّة وقد تستحوذُ عليهم فيلبثونَ فيها طويلا لذلكَ لا عجبَ إنْ تعذّر عليهم —في بعض الأوقات–فهمُ كلماتنا المباشرة.

كانتْ ابنة عمّ ميلين بارعة في الرّيّاضيات حسبَ زعمِها، لذلك استدرجتُها قائلا:

-ربّما عليكِ مراجعة دروس الرّياضيّات.

-أيّ دروس بالتّحديد؟

- حالات عدم التعيين!

-أي حالة؟ الأولى أم الثانية أم...؟

- اثنان وأربعون!

-لا توجدُ حالةٌ بهذا الرّقم.

ابتسمتُ مناولا إيّاها الكتاب من على المائدة، قائلا:

-كيد الرّجال، الصّفحة اثنان وأربعون!

حملتْ كتابي وفتحتْه على الصفحة المطلوبة أينَ يوجَدُ نصٌّ تحت عنوان حالة عدم تعيين... قرأتْ بصوتٍ هادئ متعثّر:

-"أحيانا... يكون الحبّ موجودا لكن صعبَ الاستشعار، كقطعة المستقيم يقولون أنّ لا مساحة لها، لكنّها وقتَما رُسِمتْ كانَ سُمكُ القلم يثبتُ العكس مساحتُها تؤول إلى الصّفر ولا تساويه، تؤول إلى كلّ القِيمِ الصّغيرة لكنها غير معرّفة عندَ الانعدام، الحبّ أحيانا حالةٌ من عدمِ التّعيين، لا يدركُها إلّا الضّالعونَ في النّهايات!"

شبَّهَ النصُّ الحبَّ بمساحة قطعة المستقيم، وليسَ للقطعة مساحة! لكنْ بعدَ رسمِها على ورقة بالقلم يصبحُ لها سُمْك ما يعني أنّه أصبحت لها مساحة أيضا! وهذا شبيه بالحالات الّتي يشتبِهُ علينا الحبّ فيها، ويصبحُ موجودا فجأة رغمَ أنّ منطقنا المكيّف حسبنا ونمطيّة إدراكنا لذواتنا ينكران ذلك!

أمضتْ بعضَ الوقتِ تحدّقُ في النّصّ وكأنّها تقرأه مجدّدا لتستوعبَ ما يرمي إليه، رفعتْ ناظريها إليّ وفي عينيْها بريقٌ يوحي بإعجابِها بما قرأت وقالتْ:

-هذا شبيه باللّحظة الّتي يقالُ أنّها غيرُ موجودة!

-وهل هي كذلك؟

-ما دمنا نشعُرُ بشيء ما خلالِها، فلا يمكِنُ إنكارُها بالتّأكيد!

في هذه الأثناء بدأتُ أوقنُ أنّي أمام فتاة مميّزة بحقّ، هي من النّوعِ الّذي يردّ إليكَ عطاءك بكرمٍ أوفر من المنتظر، لم تفهمْ المقصودَ من النّصّ فحسب بل استمتعت بقراءته وتذوّق أسراره وفلسفتِه، ثمّ صاغت من غموضِه جوابا عن سؤالي خلال ثوانٍ معدودة! بالنّسبة لي كنتُ مدركا بتحرّك شيء ما اتّجاهها داخلي، بقدرِ إدراكي أنّها ستفهَمُ ما أرمي إليه من سؤالي القادم حين سألتُها:

-هل تمكّنتِ من رسمِ قطعة مستقيمة خلال دقائق لقائنا؟

-عادةً ما أستعمِلُ قلمين أزرقين للإنشاء، يمكنكَ التحقّق بنفسك!

أبهرتني إجابَتُها إلى حدٍّ لا يوصَف، كلانا كانَ يسافرُ بالكلماتِ البسيطة إلى الحدود القصوى من الكنايات والمجاز، كانتْ أوّل فتاةٍ تستطيعُ مجاراتي في تلاعبِي بالألفاظ، طلبتْ منّي كنايةً أن أنظرَ إلى عينيها الزّرقاوين وأحاولَ اكتشافَ بريق الإعجاب إن وُجد، للأسف... كنتُ بارِعا في تفرّس الأقوال لا

العيون، شعرتُ بأحاسيس كثيرة نحوَها وكانَ الخوفُ مجدّدا أبرَزها، ما مقدار المخاطرِ الّتي أتحمّلها بدخول علاقةٍ بفتاة ذكيّة؟ نظرتُ إليها مبتسِما ومغيّرا منحى الحديث، ماذا حدث مع أقمد بعدها؟

التقمتْ كأسَ الشّاي ونظرتْ مقابلا لها إلى الطّريق المزدوجْ المؤدّي إلى القنادسة كأنّها تستعدُ للدّخول في وضعٍ جديد، وضع الأساطير والخرافات!

الفصل الحادي عشر

جلسَ والدا أقمد حزينين يتذكّران تلك الحادثة المؤلمة الّتي جرتْ قبل بضع سنين، عادَ ابنُهما من رحلة طويلة، ظنّا أنّه هلكَ خلال ذلك، عادَ ولم يكنْ هو نفسه، صارَ أضخم وحصلَ على جناحين وصار ينفثُ النّار، ثارَ سكّان القرية ضدّه فور ولوجِها، لم يتعرّف عليه أحد... عدا أمّه وأبيه، وحدَهما عرفا نظرة عيونِه الّتي غابتْ خلفَ الحزن قبلَ أن يستدير ويطير مبتعدا، ناداياهُ بكلّ طاقتيهما لكنّه لم يسمعهُما ولم يُبصرهُما، ظنّ لحظتَها أنّ الجميعَ ضدّه ولم يكنْ مدرِكا للسّبب، حينَ نظرَ إلى البحيرة الّتي يعشَقها ورأى صورتَه على صفحتِها الصّافية الّتي تقبعُ في قاعها عظام زعيم المخلوقات الجبّارة الأولى فهِمَ ما حدث، لكن ذلك لم يداوِ الثّلم الّذي حدثَ في روحِه، حزّ في فؤادِه أنّ الجميعَ نسيَه بسرعة، لا أحد يذكرُه أو ينتظره... قرّر أبواهُ السّفر بحثا عنه، لن تكونَ وحيدا أبدا ما دامَ هنالِكَ شخصٌ يحبّكَ بعد، المعضلةُ أن تكونَ غيرَ مدرِكٍ أو متجاهلا لوجودِه، من السّهل معرفة موقِع أقمد من خلالِ شكلِه الشبيه بوضوح بشكل التّنّين، ساعَدَهُما العرّاف في ذلك كثيرا، صارا يعلمانِ الآن أنّ عليهما الاستعانة ببعوضة من قرية البعوض أو ما يسمّى بقرية المثقاب إن أرادا الوصول إلى أرض التّنانين.

أمّا أقمد كانَ قد جمَع قادة جيُوشِه ليخبِرَهم بقراره، سيخوضُ حربا، حربٌ ضدّ العالِم كلّه، ليصلِحه ولينشُرَ العدل فيه على طريقَتِه، كانَت غرائزهُ تتحرّقُ شوقا لحرقِ قريتِه القديمة انتقاما منها، لكنّ علمَه بوجودِ والديهِ فيها جعلَهُ يكفّ عن ذلك.

...

مخلوقات "الأدفل" الغريبة، لم تكنْ حيوانات مهجّنة كما هو الحال في قرية الأفاعي والقرية البعوض وقرية اللّيل... إنّما هي من جنسِ الجمادِ المسحور اخترَعها سكّان الأرض العليا(البشر) عبثا، هم مجرّد تجربة أخرى لا يمكن الحكمُ على مدى نجاحِها أو فشلِها، كأنّهم تصميمٌ يخضعُ جمالُه للأذواق، لأنّه لم يبلغ من السّوء ولا من الحسنِ درجة الإجماع، استعمَل سكّان الأرض العليا السّحر الأسود لخلقهم بعدما أثبتَ نجاعَتَهُ مع الحيوانات المهجّنة، حينَ يشعُرُ المرء بالحرّيّة ويُمنحُ القدرة سيظهرُ أسوءَ ما فيه... سيرضي شهواتِه على حسابِ القيم وتحلّ غرائزه محلّ المبادئ ويجعَلُ رغباتِه دستورا آنيا يمضي عليه، سكّان الأرضِ العليا سبب الفوضى الّتي يعيشُها هذا العالم، لم يجعلوا تجربَة عالمهم الفاشلة منطلقا لخلقِ عالمٍ يعيش في سلام، بل استثمروها في الاستمتاع بمشاهدة تصادمِ العوالم والقرى، ربّما كانَ هدَفُهم تعلّم شيء ما من ذلك... تُحاكُ روايات كثيرة عن مخلوقات "الأدفل"، يقالُ أنّ أهلَها قادرون على التشكّل بهيئات عديدة وبإمكانِهم التسرّب عبرَ كلّ شيء تقريبا، تقول الأساطير أنّ البردَ يُصنَعُ هناك، لولاهم لاحترقَ هذا العالم أو اختنق، لكنّها مجرّد إشاعات، لا أحدَ يدري الحقيقة عنهم، لا أحدَ سوى الدّمى السّاحرة الّتي لا يعلمُ بأمرها غير مخلوقات "الأدفل" نفسِها والسّاحرة العظمى "أريناس"، لسببٍ ما تركتْها تعيشُ بينَها، رغمَ عدائيتها القطعية لكلّ ما يدخلُ نطاقها الجغرافي.

يقالُ أنّ كائنات "الأدفل" قوية لدرجة أنّها سحقت كلّ التّنانين الّتي واجهتها خلال الحرب الّتي جرتْ منذ بضعة أعوام، الجميعُ يخشاها حتّى أنّه قيلَ أنّ العفاريت والسّحرة دخلوا كلّ شبر من المعمورة إلا هذه

الأرض لسبب خفيّ جدّا، لكن صارَ الآنَ في حوزتِهم أمرٌ لا يخصّهم، أمرٌ قد يجلبُ اللّعنة إلى أراضيهم عمّا قريب...

كانتِ الدّمى السّاحرة مخلوقاتٍ مرعبة الشّكل ومجهولة النّجوى، يشاعُ أنّها من صلب العفريت الأوّل موايي، لطالَما أقلقَ وجودُها السّاحرة العظمى "أريناس"، مواجهة أحدها أو اثنين منها أمرٌ بسيط، لكنّ باجتماعِها الأمرُ مستحيل، هذه الدّمى الّتي لو قدّر لها الخروج ستقلبُ العالَمَ رأسا على عقبْ إن شاءتْ، خطرُها أشدّ من الجنّ والعفاريت وكلّ المخلوقات المرعبة في هذه العوالم، الغريبُ أنّ الدّمى السّاحرة كانتْ تكنّ كلّ الحبّ والاحترام للسّاحرة أريناس، لذلكَ كانَ خوفُها غيرَ مبرّر على الإطلاق، الأرجح أنّها تعلَمُ بأمر ما وربّما تتمنّى ألّا تضطرّ لمواجهتِه يوما، نظرتْ أريناس إلى بلّورتها "عين تيثريت" الّتي أخبرتْها بموعدٍ قريب مع سيّد التّنانين، سيجمَعُها بأقمد لقاءٌ مصيريّ آخر بعدَ انقطاعِهما عن بعضِهما لسنوات وقد يجدان ضالّتيهما عندَ بعضِهما.

أشخاص يشبهونك

بعدَ أنْ أنهت ابنة عمّ ميلين سردَ هذا الجزء من الحكاية، شابكتْ يديها وراحت تتأمّلني مبتسمة، ضحكتُ قائلا:

-ما بك؟

-أتعلم... نحنُ متشابهان...

هذ الكلمات! كانتْ مألوفة جدّا بالنّسبة لي، لم أسمَعْها من قبل لا... بل كنتُ أنا من قالَها، يومَها كنتُ جالسا مع إيمان في ساحة الثّانويّة، كانَ يوما سعيدا جدّا لأنّ أستاذ الرّياضيّات "ضرغام" لم يحضر، كنّا نتشاركُ الكثيرَ من الذّكريات والتّصرفات والمفردات بعدَ أن أمضينا طفولَتنا معا، منذُ أوّل لمحة اقتسمتْها معي، يومَها قلت لها:

-نحن متشابهان كثيرا.

-الكل يظنّ نفسه كذلك بالنّسبة لأشخاص آخرين.

-تظنّين أنّ تشابُهنا لا يعدو كونَه وهما يتوهّمُه الآلاف غيرنا؟

-كلّما قلّ المتشابهون صدّقوا أنهم أكثرُ شبها وكلّما زاد عددهم صاروا أكثر قدرة على رؤية الاختلافات الّتي بينَهم.

- لم أفهم تماما ما تقصدينه.

-ألا تظنّ أنّ أبانا آدم ظنّ ذات يوم أنّ الحيوانَ أكثر الأشياء به شبها؟

-ماذا عنك أ تظنّين ذلك؟

-نعم... لكنّه حينَ رأى أمّنا حوّاء صار يعتَبرها أكثرَ كائن به شبها مجدّدا لأنّها إنسان، ثمّ رأى أنّ ابنيه قابيل وهابيل هما الأكثر شبها لأنّهما ذكَران...

-فهمتُ قصدك!

-وماذا فهمت؟

-أنّي لم ألتقِ ما يكفي من البشر المناسبين لي فحسب.

-نعم عليكَ التصرّف حيال هذا الأمر.

-أنا بخير معك، وجودك جِدُّ كافٍ بالنّسبة لي.

-ماذا إن لم أكن موجودة من أجلك في يوم من الأيام؟

-سيكون قلبكِ لي دائما، أليس كذلك؟

-تعلمُ أنّي لن أكفّ عن حبّك، قلبي سيظلّ ملكك دائما.

-إذا لن يهمّني الآخرون حينَها.

كنتُ شاردا ولم أفق إلّا على يد ابنة عمّ ميلين تهزّني قائلة:

-أين سرحت؟

-سأحكي لك شيئا ما...

-يبدو أنّه شيء قديم الحدوث.

-هو كذلك.

-أحبّ الأشياء العتيقة.

-كانَ لي صديقٌ عريضُ الجبهة مثلي، كان يرافقني كثيرا في مدرستِنا، قال الأصدقاء والمعلّمون أنّنا متشابهان كثيرا، حتّى أنّنا كنا نرى ذلك أيضا، بعدَ مدّة انتقلنا إلى الجامعة أينَ التقينا عددا كبيرا من الطّلاب، احزري ماذا!

-ماذا؟

-كانَ عدد عريضي الجبهة كبيرا، لذلك لم يعدْ يرى أحدٌ أنّنا متشابهان كالسّابق... ولا حتّى نحن.

أضحكتْها القصّة كثيرا وبعدَ أن هدأت قالت:

-ممم... تقصد أنّ إحساسي بتشابِهنا هو نتيجة قلّة لقاءاتي بفئة معيّنة من البشر؟

-تماما... عليكِ فعلُ شيء ما حيال ذلك.

-ليسَ الأمر وكأني لم أرد الاختلاط، إنّما يصعبُ إيجاد أشخاص يشبهونك للحديث معهم.

الشّاعر حينَ يلتقي قارئا في بداية الأمر يشعرُ بالألفة، لكن سرعانَما تنتقلُ مشاعرُ الألفة إلى كاتب يلتقيه ثمّ إلى شاعرٍ يماثله ثمّ إلى شاعِرٍ متميّز مثله... شعورنا بالتّشابه ما هو إلّا تجربة غير كاملة في استكشاف العالم، لا عجبَ إنْ شعرَ قابيل ذاتَ يومٍ أنّه يشبه الغراب، لأنّ لا بشريّ غيرَه كانَ قد قتلَ بشريّا آخر يومها.

حينَ استلقيتُ على فراشي ليلا، تذكّرتُ أمرا ما، لقد اتّصل بي ناشرُ كتابي منذ فترة، طلبَ منّي تحديد موعدٍ لجلسة بيعٍ بالتّوقيع عند الإمكان، اتّصلتُ به في الحين، لكنّي لم أتلقَّ ردّا، تدفعني الحماسة أحيانا لعدم احترامِ أوقات راحة الآخرين، إنّها الواحدة فجرا.

-يا إلهي ما الّذي أفعله!؟

وضعتُ رأسي على الوسادة، كانَت السّاعة تشيرُ إلى الواحدة وعشرينَ دقيقة قبلَ أن أغمضَ عينيّ آخر مرّة، بعدَ خمسِ دقائق رنّ هاتفي، فتحتُ عينيّ متأفئا

-أوو... إنّها الثّامنة صباحا، ألا يمكن للمرء النّوم قليلا!

لقدْ كانَ ناشر كتابي "رفيق" يعاودُ الاتّصال بي:

-أهلا سيدي...

-مرحبا... كيف حالكم؟

-بخير...

-أردتُ إعلامكم أنّي عدتُ هنا إلى الوطن وأنا متوفّر حاليّا من أجل جلسة بيعٍ بالتّوقيع.

- يصادفُ أن معرضَ الكتاب سيكونَ بعد أيامٍ قليلة.

-وهل هذا أمر جيّد؟

-أ تمزح؟ بل هو رائع، سيأتي عدد كبير من الزّوار وسنحظى بفرصة لبيع ما تبقّى من النّسخ.

-ما تبقّى؟

-نعم.

-ألم تعيدوا طبعَ خمس آلاف نسخة جديدة؟

-بلى وبقيت أكثر من ألف نسخة... كنّا نخطّط لإخبارك قريبا.

شعرتُ بالدّهشة لما يحصل، توقّعتُ النّجاح، لكن ما يحدثُ الآن أمرٌ يفوق النّجاح الّذي أعرفه وحلمتُ به عند كتابتها.

-لقد تلقّينا اتّصالات من بعض الدّور الأجنبية تطلب إبرام عقدٍ لترجمة الرّواية.

-لا لا لا... هل هذا حقيقي؟

-تقصدُ بـ "لا" رفضك أم...

-لا هي مجرّد طريقة لإبداء الدّهشة، أقصد... هذا مفاجئ لي حقّا!

-يمكننا الحديثُ عن هذا لاحقا، استعدّ لمعرض الكتاب قريبا!

ذكّرني هذا بأحد سطور قصائدي عن أحلامِ الطّفولة:

"هل هي الأحلامُ هكذا تأتي حين ننساها كمحبوبٍ فقدناهُ ثمّ عشنا في انتظار معادِه؟"

-صدقتِ يا إيمان، ها أنا ذا أنجح كما توقّعتِ لي...

كانتْ قدماها أضعفَ من أن تحملاها إلى القمّة برفقتي، لقدْ وهبتني مشاعِرَها وأحلامها لأصدحَ بها للجميع، سأجلسُ الآن وأنتظرُ الصّدى سيردّدنا أو يتجاهلنا معا...

"أففف... إيمان مجدّدا!"

صرتُ متأكّدا أنّ ذكراها ستساورني في أفراحي وأحزاني، أحيانا أخشى أنّ اتّصالي بأريام ليس إلّا طُعما أرميه بكلّ قوّتي للذّكريات كي تجري بعيدا وتلتهي عنّي لحين، أنا ومصباح التلفزة الأحمر وحيدان في الغرفة يبتلعنا هذا الظّلامُ، ما بيد الحيلة، اتّصلتُ بأريام وطلبتُ منها أن تقصّ عليّ بقيّة الحكاية، داخلي أحسستُ أنّي حقير كرجل ينظر إلى زوجتَه النّائمة قربه ويتخيّل أنّها عشيقته.

الفصلُ الثّاني عشر

بعدَ أن قرّر والدا أقمد السّفر للعثور على ابنِهما مجدّدا، قصدا حكيمَ القرية.

على عتبة بيتِه سمعا صوتا يقول:

-"حين تحفران حفرة لا يمكنكما إرجاعُ التّراب إليها فحسب."

لقد كانَ صوتَ الحكيم يكلّمهما، ردّ والد أقمد:

-ما الّذي تقصده يا سيدي؟

-تُردَمُ الحفرة دائما ويبقى بعضُ التّراب خارجَها عاجزا عن الرّجوع.

-عن أي حفرة وتراب تتحدّثُ سيّدي الحكيم؟

لم يكن الحكيمُ يحادثُ شخصين ناضجين، بل والدينِ هلعين في شوق لرؤية واحتضان ابنهما مجدّدا.

-المشاعِرُ الّتي كانَ يحملها ابنُكما أقمد بينَكما أضحتْ أكبر وأنضجَ الآن وقد لا تسعفُه للعودة مجدّدا.

-وما هو الحل؟

-إنسيا أمره.

لم يتقبّل والدا أقمد نصيحة الحكيم وحينَها قال لهما:

-كنتُ أعرفُ أنّها ستكون ردّتكما.

حينَها أخرجَ خريطة من جيبِه وأعطاها لهما.

-إنّها خريطة عوالم الأرض، تجدانِ فيها الطّريق إلى أرضِ البعوض، عليكما استئجار إحداها لتأخذَكما إلى مملكة التّنانين.

....

في قرية البعوض كانتْ عائلة توشوشت لا تزال تعيشُ حدادها، قبلَ بضعِ سنواتٍ جاء وفدٌ من التّنانين الضّخمة حاملا قصّة ابنِهم "توشوشت" البطوليّة، لم يذهب موتُهُ هباءً، لقد تمكّنَ من إثباتِ وجودِ عالمٍ علويّ تسكنُهُ مخلوقاتٌ أخرى تماما كما قالَ ووصفَ جدّهُ منذ سنين عديدة، لكنّ سكّان القرية كذّبوا جدّه حينَها ووصفوه وعائلتَهُ بالجنون، قبلَ أن يموتَ متأثّرا بجراحِه الّتي تكبدّها من أجل الوصول إلى سكّان الأرض العليا، لذلك أصرّ توشوشت على تبرئة اسمِ جدّه وعائلته من الجنون، لقد نجَحَ في ذلك في الأخير، بل وأنقذَ العالم رفقة أقمد من نهاية محتومة، جاءت التّنانين تعزّي عائلتَه كما أمرها أقمد وقصّت على أهل قرية البعوض بطولة توشوشت ووصولَهُ إلى الأرض العليا، لكنّها أغفلتْ أمرا وحيدا، الأمر الّذي شغلَ بال أخيه "بريغيل" بعدَ رحيل التّنانين العظيمة.

-تذكرين أمّي قبل سنوات مجيء التّنانين؟

-نعم يا بني.

-أ لم تشعري بأمر غريب؟

-لا... ما هو؟

- لم تذكر كيفية استشهاد أخي توشوشت!

-لقد كان بطلا وهذا كلّ ما يهمّ!

بالنّسبة لأخ توشوشت، كانتْ طريقة موتِه مهمّة أيضا، لذلك كرّس نفسَهُ للبحث في الأمر، طار لشهورٍ طويلة بينَ القرى وجمعَ ما أمكنَهُ جمعُه من المعلومات، أخيرا وصل إلى الحقيقة، توشوشت لم يمت متأثّرا بجراح حرب أو من داء أصابَه، لقد أكلَه أقرب أصدقائه أقمد من أجل التحوّل إلى تنّين بأجنحة! لقد أنقذَ ذلك كلّ العالم من الهلاك بما فيهم قريته وعائلته، لكنّه شعَرَ بالحقد يتآكلُ قلبَه، كلّ ما أراده هو الانتقام، الانتقام من أقمد الّذي أحبّ توشوشت وعائلته، لكن كيف؟ كيفَ بوسعه الوصول إلى تنّين أسطوري ينفث النّيران السّوداء؟ سيكون عليه استدراجُه إلى فخّ ما...

بينما هو يخطّط سمعَ طرقا على الباب، أبشرت ملامِحه في الحين، يبدو أنّ لديه ضيوفا مميّزين!

عبقريّ

حلّ الصّباح، كم يبدو بعيدا ونحن ننتظره، لكنّه يسارعُ بالحلول فورَ نومنا، كانتِ الأيّام تتسارعُ ومعَ ذلك بدت بطيئة بالنّسبة لي، لأن قلبي كانَ يسارَعُ في الاتجاه نفسه معها، كلاهما كانَ يتّجه إلى معرض الكتاب، بدأتُ أشعر بالتّحسن، خفّف الحزنُ من وطأتِه على قلبي، ساعدتني لقاءاتي بأريام الّتي غيّرتْ محلّ دراستِها إلى بشّار كثيرا، كانتْ طريفة وذكيّة وجميلة كذلك، تحبّ ما أكتب وتنصتُ لما أقول بحرص، الاهتمام يشبِه الصّديقة المفضّلة للحبّ، إن أردتَ الفتاة فعليكَ إرضاء صديقتِها أوّلا وإلّا رمتْ ملفَّ ترشّحك في القمامة، بعدَ مواعيدَ كثيرة في المقهى، قرّرنا التّغيير قليلا، سألتني:

-أيّ مكانٍ تفضّل؟

-قرأتُ أنّ الإناث يحببنَ من يخيّرهنّ.

-فلنقل أنّك حصلتَ على امتياز اليوم.

-حسنا، أيّ مكانٍ سيكون مناسبا مادامَ يتوفّر على طعام.

-أيّها الشّره! ستصبِحُ بدينا وتفسدُ ولن تبدوَ لي وسيما عندئذ.

-رغمَ ذلكَ لن أشكّ في وسامتي بل في ذوقك.

-أيّ مطعمٍ تفضّل أن نذهبَ إليه؟

-الأوسع طبعا.

-ظننتكَ ستختار الأشهر!

-قد نضطرّ للنّهوض كي نتركَ مكاننا للوافدين في هذه الحالة، أريدُ أن نجلسَ بالقدر الّذي يحلو لنا.

-محقّ كعادتك!

الجميع في بشّار يعلمُ أنّ أكبر محلّ هنا هو "بيتزيريا لاتينو" الواقعة بطريق "حيّ 600 مسكن" وهو مكانٌ مفضّل لأريام وقريبٌ من الجامعة أيضا، تمشّينا إلى هناك مارّين بمحور الدّوران الضّخم الخاص بـ "حي 400 مسكن" مقابلا للثّكنة العسكرية، كنّا نمشي تحتَ الجدران كالصّراصير طالبين الظّلّ الشّحيح لغياب الشّرفات والأشجار الطّويلة، أثناء ذلك واصلنا حديثنا الممتع.

-تفهمينني بشكل غريب!

-هذا لأنّي غريبة.

-غريبة... بمعنى الغربة أم بمعنى الغرابة؟

-أنتَ أذكى من أن تسأل.

-وأنتِ أذكى من أن تجيبي.

-لماذا؟

-لأنّه ليسَ لديكِ جواب.

ضحكت وقالتْ:

-أنتَ أذكى من أن تسأل، لكنّك لستَ عبقريّا بالقدر الّذي تلتزمُ به الصّمت.

-الصّمت عن ماذا؟

-عن فضح أنيّ لم أملك جوابا عن سؤالك.

-لكنّك لا تحبّين المجاملات، أليس كذلك؟

-إن جاملني شخصٌ جميل، فستكون حقيقة لا مجاملات.

-"الحجرة من عند الحبيب تفّاحة"، هذا شبيه بأن تتبرّز عليك نحلة.

ضحكت ابنة عمّ ميلين حتّى دمعت أعينها وتملّكتني نوبة من الضّحك جعلتني أضع يديّ على صُدغَيْ رأسي لدقائق عديدة، بعدَها قالت:

-يا لك من "مجعفن"، لكن نعم، إنّه شبيه بأن تتبرّز عليك نحلة، أحبّ العسل على كلّ حال.

مع إنهائها كلماتِها كنّا قد صعدنا درج البيتزيريا وجلسنا إلى المائدة الزجاجية بألوانِها الرّمادية كلون الكراسي، لا مجال لضوء النّهار ليخترق السّتائر الحمراء الّتي تغطي زجاج النّوافذ الضّخمة، الموسيقى صاخبة نسبيّا لكنْ تبيّنتُ بعد حين أنّ صاحب المحلّ تعمّد ذلك لكيلا يسمَع الزّبائن أحاديث بعضهم، قلتُ لأريام وفي نيّتي أن أجعلها تتقزّز قليلا قبل الأكل:

- تقنيّا، يُعتبر العسل قيأً لا برازا... على كلّ حال ما الّذي حدث مع التّنين أقمد بعدَ لقائه مع أريناس؟

أجابتْ بعدَ أن أخرجتْ لسانها تعبيرٍ عن تقزّزها من كلماتي القذرة:

-حدث العجب!

-يبدو هذا مشوّقا جدّا.

قدّمنا طلبيّتنا للنّادل وحينَها عدّلتْ جلسَتها وبدأت تحكي بقيّة الأحداث.

الفصل الثالث عشر

كانَ أخُ البعوضة توشوشت بريغيل حانقا جدّا ويتآكل البغض قلبَه، في حينَ أنّ أڤمد قرّرَ إعادة إصلاحَ العالم وإعادة التوازنِ إليه، في ذاتِ الوقت خرجَ والداه باحثين عنه، قادَهُما قدَرُهما أخيرا إلى بيت بريغيل أخ توشوشت بحكمِ أنّه البعوضة الأكثر مهارة وتمكّنا، طرقا بابَه وحينَ فتَح الباب أبشرتْ ملامِحه، لقد كانا ضيفين من قرية الأفاعي، فكّرَ في أنّ القدرَ منَحهُ فرصة للانتقام من أڤمد، سيجدُ طريقة لاستدراجِه وإخضاعِه بواسطتِهما، طلبَ منهما الدّخول ورحّب بهما:

-كيفَ يمكنني خدمَتُكُما؟

-لقد كنّا نبحثُ عن توصيلة إلى مكانٍ بعيد وقيلَ لنا أنّك الأفضل هنا!

-أنا كذلك إلى أينَ تودّان الذّهاب؟

-إلى أرض التّنانين البعيدة...

تفاجأ أخ توشوشت بشدّة، أهي صدفة؟ إنّه المكانُ الّذي يتواجَدُ به عدوّه الأوحد في هذه السّاعة.

-لا بأس لكن عليكما أن تدفعا الكثيرَ مقابلَ ذلك!

-سنقدّمُ لك كلَّ ما تطلبُهُ منّا.

-اتّفقنا.

قامَ أخ توشوشت إلى المطبخ وأعدّ لهما مشروبا باردا وعاد للجلوسِ معَهما مجدّدا ليناقشوا تفاصيلَ الخطوة القادِمة معا.

...

في قرية الإبر، كانتْ الملكة والسّاحرة العظمى أريناس، تتتبّع ما يجري في العالم من خلال بلّورتِها السّحرية أحد الأغراض المقدّسة النّادرة، انتظرتْ بصبر لسنواتٍ عديدة على عرشِها ذاكَ اليوم، يوم عودة التّنين أڤمد طالبا مساعدَتها، في الواقع... كلاهما كانَ يحتاجُ الآخر بقدرٍ متفاوت، حين دقّت ساعة الصّفر، كانَ أڤمد ماثلا أمامَها بهيئته الأسطوريّة الّتي لم يتشكّل عليها تنّين من قبل، البخار يخرج من منخاريه والنّيران تغلي في فكّه، لم يعدْ الأفعى نفسها، الرّقيقة الخدومة الرّؤوفة... بلْ أصبَح شخصا ناضجا وصارما، نظراتُه واثقة وباردة، قليلُ الكلامِ، قويّ النّبرة، لقد أثّرت فيه وفاة صديقه توشوشت كثيرا خاصّة وأنّه من التهمَه من أجل اكتساب الجناحين الّذين مكّناه من إنقاذ العالم.

-أهلا بسيّد التّنانين...

-لا بدّ أنّك كنتِ تعلمين بموعِد قدومي.

-نعم.

-إذا تعلمين لمَ أنا هنا.

-نعم... أعلم.

-إذا لا داعيَ لإطالة الأمر.

-مخلوقاتُ "الأدفل" من أقوى المخلوقات على الإطلاق، مع ذلك لا يصعُبُ عليّ تدميرُها.

-ولم تودّ ساحرة تدمير مخلوقات ضعيفة بالنّسبة لها؟

-خطورة الأمر تكمن في الدّمى الشّريرة.

-الدّمى الشّريرة؟ لم أسمعْ بها من قبل!

-تعيشُ الدّمى السّاحرة في وئام مع مخلوقات "الأدفل" لسبب ما، لذلك وضعتْ حاجزا يحمي القرية من أيّ نوعٍ من السّحر، فصاروا محميّين من السّحر بفضل الدّمى وحصينين ضدّ الهجمات الجسدية بفضل قوّة مخلوقات "الأدفل".

-ما الحلّ إذا؟

-سأعطيكَ سلاحا يمكّنك من الفتكِ بهم، لكن عليكَ أوّلا الوصول إلى قلبِ القرية.

-أ هذا كلّ شيء؟

-لا تكن واثقا، مخلوقات الأدفل قويّة جدّا!

-سأتدبّر الأمر، أيّا يكن.

أعطت السّاحرة العظمى أريناس للتّنين أقمد شيئا ما ثمّ تركتْهُ يمضي في سبيلِه... ذهبَ أقمد إلى قرية "الأدفل" أينَ سيرى ما حذّرتْهُ منه السّاحرة.

محظوظون

شعرتُ بالحماسة لكتابة جزء ثانٍ لرّواية "جواب بين نظرتين"، أعتقدُ أنّه سيحقّق نجاحا مماثلا، عدتُ إلى غرفتي بعدَ ذاك الموعد، استلقيتُ على فراشي وثبّتّ عينيّ في السّقف، تثاقل جفناي لكنّ الوقت كانَ غير مناسبٍ للنّوم وإلا قضيتُ اللّيلة صاحيا، حملتُ الهاتفَ متطلّعا لرسائل الفايسبوك لتسلّيني عن النّوم، رسالة جديدة... إنّها من تلك الفتاة الّتي قالتْ أنّها معجبة جدّا بكتاباتي، نسيتُها تماما...أظنّ اسمها كان سلمى، كنتُ وعدتُها بمراسلتِها في وقتٍ لاحقٍ من اليوم، حصل هذا منذ أيّام... يتّهمني الكثيرون بالتّجاهل لكنّ كلّ ما في الأمر هو أنّ اهتماماتي تغيّرت مؤخّرا، تركتُ السّفينة الّتي تحملني مع كلّ هؤلاء البشر وركبتُ زورقا يكفي لبضعة أشخاص، الآن لن يركبَ معي إلّا شخصٌ يريدُ حقّا ما أريده لدرجة مواجهته مخاطر الإبحار في زورقٍ وسط أمواجٍ متلاطمة، كتبتُ إليها مبادرا:

-كيف حالك آنستي؟

-بخير وأنت؟

-بخير.

-كتاباتك رائعة جدّا، أعلم أنّي قلت هذا من قبل لكن كأنّه لا بدّ من قول ذلك مرّات ومرّات حتّى أنقلَ إليك مدى إعجابِنا بما تفعل.

-إعجابكم؟

-نعم، أنا وصديقتي يسرى.

-أشكرك، أسعدني سماعُ ذلك... سأقيمُ قريبا بيعا بالتّوقيع بمعرض الكتاب.

-لقد قرأتُ ذلك في إحدى الصفحات... أتطلّع لذلك فعلا.

-ستحضرين إذا؟

-سأحاولُ الحضورَ، لكن الأمرُ لا يعتمدُ عليّ بمفردي.

-أظنّ الأمر يتعلّق بأهلك؟

كنتُ أحاولُ توقّع إجاباتها كما أفعلُ مع الجميع، الأمر ليسَ صعبا دائما، إنّه شبيه بتلك المرّة حينَ شاهدتُ ردّة فعل طفل حينَ وضَعَ لقمة في فمه، ثم ارتعدت فرائصه من حموضَتِها، رغمَ أنّي لمْ أرَ اللّقمة إلا أنّي علمتُ أنّها كانتْ قطعة ليمون من خلال تجاربي السّابقة أو تجاربِ غيري الّتي عايشتُها، ذكّرني ذلك بقولِ أحمد: "نظرةُ الغيرِ إلى حياتِه تصوّب حياتنا كذلك..."

ردّت الفتاة عليّ:

-لا بل بصديقة لي ترغبُ بشدّة في رؤيتك.

حسنا... لقد فشلتُ في توقّعاتي هذه المرّة.

-أشعر بكثير من الإطراء آنستي...

-أريد الحديثَ معكَ بشأنِها وأتمنّى أن تلبّي رغبتي.

-بكلّ سرور، إن كانَ ذلك في المستطاع طبعا.

–صديقتي تعاني من ضعفٍ مزمن في قلبها وأخبرها الأطبّاء أنّها لن تصمدَ أكثر من بضعة شهور على هذه الحال...

–شفاها الله...

–آمين... هي مهووسة بكتاباتك وتودّ لقاءك بشدّة.

–سيسرّني لقاؤها إذن.

–سأحاولُ إحضَارَها للقائك في معرض الكتاب.

–ما اسمك مجدّدا؟

–سلمى سيّدي... اسمي سلمى.

تمنّيتُ لصديقتِها الشّفاء من قلبي، رغمَ ذلك شعرتُ أنَّ أحبّاءها محظوظون نوعا ما، على الأقل هم يدركونَ أنّ رحيلَها يقترب من خلالِ مراقبة عينيها ونبضِها وضغطِها كلّ يوم، أمّا إيمان رحلتْ دون مقدّمات، أحيانا أشعُرُ أنّنا ننظرُ للحياة من ثقبِ جدار وبما أنّها مدركة لذلك تتعرّى وتفعلُ ما تشاء إلّا في الأماكنِ الّتي تستطيعُ أبصارناَ مسحها من خلالِ الثّقب، قليلون من يقوَوْنَ على القفز فوقَ الجدار ورؤيتِها على حقيقتِها والبقيّة هم مجرّد منخدِعين بها، لذلك نتفاجأ بنوائبِها دائما ونعيشُ كلّ مرّة كأنّها أول مرّة.

عندَ انتقالي إلى الجامعة قبل عشر سنوات، كانتْ الحرّيّة في انتظارِي، كانَ بإمكانِي الحضور متى شئت وفعل ما أريده، حظيتُ ببعض المعجبات، كانَ ذلك يثير غيرة إيمان كثيرا، لا أنكر أنّي شعرتُ بالإغراء مرّات عديدة لكنّها كانتْ دائما قربي تذكّرني بأنّ لا مثيلَ لها، حينَها كنتُ أردّد الآية داخلي:

"أتستبدلونَ الّذي هو أدنى بالّذي هو خير"

نظرتْ إليّ إيمان ذاتَ يوم ونحن نتجوّل بجانب حديقة التّجارب بالحامة، وهي تعلمُ صعوبة أن أبقى وفيّا لها رغمَ الألف كيلومتر الّتي تفصلنا معظم شهور السّنة، كانتْ تبحثُ عن كلماتٍ تُطمئن قلبها الوجف وعينيها المرهقتين من مراقبتي تارة ومراقبة أبصار الفتيات الّتي خالتْها تطلبني تارة أخرى، أمّا عنّي فكنتُ موقنا أنّي لستُ بتلك الجاذبيّة الّتي تجعلني عيناها أبدو عليها، أخيرا تكلّمت قائلة:

–ما هو أشهى طعامٍ بالنّسبة لك؟

–الطّعامُ الّذي ستعدّينه لي حينَ نتزوّج.

ضحكت وقالت:

–ما هو هذا الطّعام؟

–بيتزا على الأرجح، أحبّ البيتزا بكثير من الأجبان الأصليّة واللّحم.

–أ تجدُ طعاما ألذّ منها؟

–لا... لا أظنّ.

–ماذا لو أكلتَها طولَ الوقت، أ لن تملّ منها ذاتَ يوم أو تجرّب أكلة أخرى على سبيل التغيير؟

في هذه الأثناء فهمتُ ما ترمي إليه، شعرتُ بها تسألني:

" مع وجود هذا الكمّ من الفتيات، أ لن ترنوَ إلى إحداهن على سبيل التغيير قليلا؟"

فكّرتُ بسرعة ثمّ أجبتُها:

-أظنّ أنّ البيتزا لن تكونَ سعيدة بذلك... في الواقع يمكن فعلُ شيء ما حيال هذا الأمر.

-وما هو؟

-أعلمُ أنّ البيتزا ستغيّر شكلَها وألوانَها وستفعَلُ كلّ شيء لتبقى دائما الأفضل بالنّسبة لي.

-أ تعتقدُ أنّها ستنجَح؟

-من الغريب أن تدخلَ البيتزا مقارنة مع أيّ طعام آخر، لأنّه سيكونُ الخاسرَ بالتّأكيد!

كانتْ سعيدة جدّا بإجابتي، رؤيتُها سعيدة من أكثر الأمور الّتي تفرحني، أ ليسَ هكذا يكونُ الحبّ؟

هل الخوفُ الّذي أشعُرُ به طبيعيّ؟ يزعجني الشّعور أنّي وصلتُ لهدفي، بل بالأحرى يزعجني التّفكير في الفترة الّتي تليه، ستكونُ مليئة بالملل إنْ لم أجد هدفا جديدا، قد تصبحُ حياتي بلا معنى خاصّة وأنّ نفسيّتي تجنحُ كثيرا للسوداويّة والظلام، على المرء التّصرفُ بذكاء في اختيار أهدافه، الأهداف الأفضل هي تلك الّتي تتطلّب منكَ أهدافا غيرها فورَ بلوغِها، انتهتْ متعة الحياة بالنّسبة لي حينَ بدأتُ أنظرُ للحياة على أنّها أهداف فحسب، كنتُ أنظرُ أحيانا للوادي وأتساءل إلى ما يهدف؟ إلى ما تراه يجري ليلا نهارا؟ كنتُ متأكّدا أنّه لا يعي ما يفعل، مجرّد ثقلٍ تتحكّم به المنحدرات والضّغط، سيجري كما فعلَ دائما وسينتفع بمائه البعض ويتجاهلُه آخرون، أليسَ هذا يعني أنّه حتّى إن لم تكن لنا أهداف سيجد فينا آخرونَ أهدافهم؟ ما يعني بطريقة أو بأخرى أنّنا حتّى حينَ لا نحدّد هدفنا سيكونُ هدفنا ضمنيّا هو مساعدة أشخاصٍ آخرين لبلوغِ أهدافهم، إن لم نكنْ قدحا تخبّأ فيه المياه فسنكون المياهَ الّتي يصنع من أجلها القدح وإن لم نكن اليدَ الّتي تُمدُّ للآخرين وتساعدهم على النّهوض فقد نكون الحجر الّذي عثر به أحدهم ليسقط ثمّ تمتدّ إليه يدٌ ما، بعضُ الأسئلة رغمَ ضرورة طرحِها قد تشعرنا بالدّونية واحتقار الذّات، من نحنُ ولمَ خلقنا؟ في حين توجدُ أسئلة تبعثُ الأمل في النّفس وتساعد على رؤية العالم بشكل أفضل، رؤية العالم جميلا يتطلّبُ عينا جميلة، يمكننا أن نسأل مثلا ما هي الأشياء الّتي خلقتْ من أجلنا؟ حتّى وإن اعتبرنا أنفسنا أدنى قيمة من هذه الأشياء داخلنا، لمَ ينتقصُ المرء من قَدْره بالبحثِ عن تأثيره في الكون أ لا يكفيه أنّ الكونَ بنجومه وكواكبه وأقمارِه خُلقَ من أجلِه؟ أحيانا لا يخاطُ السّرج بحجم ظهر الخيل، بل نبحثُ عن الخيل الّتي يناسب ظهرها السّرج الّذي نملكه.

اليومُ هو السّبت وأشعُرُ بسعادة غامرة، ما قلتُه للتوّ لم يكنْ سوى لعبة كلمات ليحسبَ من يسمعني أنّ السّبتَ هو السّبب، في الواقع اليوم هو السّبت حقّا لكن لا علاقة له بمزاجي، كم هو سهلٌ الوصول إلى الاستنتاجات بناءً على خلفيّاتنا وظنوننا، لذلك يُعتبرُ الكلامُ فنّا قليلون هم من يحوزون مفاتيحه، أمّا أولئك الّذين يفعلون فبإمكانِهم خلقُ الوهم حولَ غيرِهم وإيصال رسائل كاذبة إليهم ويُستحسنُ عدم الإكثار من الحديث إليهم، والتنبّه لمفرداتهم فيما عدا ذلك مع محاولة الفرار إلى المواضيع العامّة، حاولتُ ممارسة هذه الخدع مع أريام خلال الأيّام السّابقة لكي لا أضطرّ إلى التّصريح بحبّها، فقد كنتُ أروي لها حادثة ما على سبيل المثال ثمّ أتركُها تستنتج وتسقطها علينا أنا وهي، كأنْ أخبرَها أنّ الصّلاة والزّكاة يقترن ذكرهما في القرآن كاقتران قهوتينا في المقهى، أو أن أخبرَها عن صديق لي يحبّ فتاة ما وأقطعُ حديثي ممازحا بقولي "ليس بقدري بالتّأكيد"، ثمّ كنتُ آمل أن يعنيَ الأمرُ لها أكثر من مجرّد مزحة، غير أنّها بمرور الوقت

أدركتْ أنّي أتجنّب قول هذه الكلمة الآثمة حين كانتْ تقول أحبّك وأكتفي بالردّ "وأنا أيضا"، يا لها من كلمة ثقيلة لا يجبُ قولُها إلّا بعدَ تمرّن المرء طويلا على أن يعنيها حينَ يلفظها، هي كالمخدّر الّذي يسبّب الانتشاء الفوريّ والحزن الفاحشَ حين يتعذّر حضوره... أتساءل كيفَ أعنيها وقلبي لا يزال معلّقا بتلك الّتي يسعدني ويحزنني ذكر اسمها...

أمّا عن سرّ سعادتي الصّباحيّة فقد أحضرت لي السيدة مخطاري أمس صحنا من أكلة "البلبولة" البشّاريّة مغطاة بأوراق عشبة "الورقيّة" اللّذيذة، هي تشبِه طبق الكسكسي لكنّها معدّة بال "الزرع"، قد يبدو هذا الأمرُ الأخير حقيرا في نظر الكثيرين لكنّه حقّا عنى لي الكثير وجعلني أنامُ باكرا حتّى عن مكالمة مترقَّبة كمكالمة أريام، الواضحُ أنّي نمتُ بعمقٍ ونهضتُ باكرا، ليس هذا بسبب نومي المبكّر إنّما لتحمّسي لشرب قهوة الصّباح ببعضِ حلويّات "الصابلي" المشبّعة بقشور اللّيمون ومربّى المشمش، ليتَ أريام تعلم كم هو سهلٌ جعلي أشعر بالسّعادة، لطالما راقني أن أنتظرَ شيئا ما في كلّ صباح وداوى نفسي المضطربة وروحي المتخبّطة وذهني المتأمّل في كلّ ما لا يستحقّ.

بعد لحظة، كنتُ قدْ قرّرتُ تناول الحلوى رفقة حبيبتي أريام، التقينا في مقهانا المعتاد وأحضرتُ المسجّل الصوتيّ، لا أدري لمَ أذكر هذا الآن فقط رغمَ أنّه لم يبارحنا في كلّ لقاء من اللّقاءات الّتي روت لي فيه تلك الحكاية الشّعبيّة، كان المسجّل يحمل ضحكاتها ونبرتها ومعظمَ ما تقولُه وترويه لي، واصلت قصّها لحكاية التّنين أقمد...

الفصل الرّابع عشر

ذهبَ أڤمد وحيدا لمواجهة الأدفل، لم يُرْدْ إزهاق مزيدٍ من أرواح التّنانين، سيختبرُ قوّة هذه الكائنات، إمّا أن يهلَكَ وإمّا أن ينتصر ويستعيد الشّعلة المقدّسة الّتي استولت عليها هذ الكائنات الغريبة، في الجانبِ الآخر استضافَ البعوضة بريغيل أخ توشوشت والدي أڤمد، لم يكن يعلمُ مَن هما بالضّبط لأنّهما أخفيا سبب رغبتِهما في الذّهاب إلى أرض التّنانين، حضّر لهما مشروبا إيفاءً بكرم الضّيافة وحينَ شرباه غابا عن الوعي فورا، قام بتقييدهما وزجّهما في مستودعه أسفل الأرض. حين أفاقَ والدا أڤمد وجدا نفسيهما محاطين بعدد كبير من المخلوقات، بعضها كانَ من أرض اللّيل وأخرى من أرض الإبر وبعضها من قرية البعوض نفسها... عدد كبيرٌ من الأجناس وُضع في مكانٍ واحد، كانوا في سجنٍ كبيرٍ يطلّ على مختبرٍ شاسع، على طاولته مجموعة أنابيب فيها دماء، فهموا في الحال أنّ أخ توشوشت يخطّط لشي ما، إنّه يجمع الدّماء لأمرٍ عظيم!

...

في أرض الأدفل كانَ كلّ شيء على أحسن ما يرام، لكنّ كبيرَها "أسميد" لم يغمض له جفن منذُ أيّام، تصِلُهُ التّقارير كلّ يوم، أخبرَتْهُ الفزّاعة "ترڤو" أنّ العالم بدأ يتحرّك مجدّدا، الفزّاعة ترڤو هي إحدى المخلوقات المهرّبة من العالم السّفلي إضافة إلى بعض الكائنات المظلمة الأخرى كالطفلة الدّمويّة "ددّان" وحاصد اللّيل، كلّها تمّ تهريبُها حينَ تمّ طرد العفريت آبانوخ من مملكة العفاريت، خلال تلك السّنوات بقي باب العالم السّفلي دونَ حراسة، الكلّ يعلمُ بوجود علاقة بين فزّاعة الأرض السّفلى وملك الأدفل "أسميد" لكنّهم لا يعلمونَ أنّ هذه العلاقة لا تعدو كونَها صفقة تخدم كليهما، فيوم هربتِ الفزّاعة من الأرض السّفلى ويداها مغلولتان بأصفاد "النّاب" حملت شيئا بالغَ الخطورة والأهمّية معها من هناك، بعدها التقت السّاحرة أريناس الّتي عقدتْ صفقة معها ودلّتها على أرض الأدفل أينَ سيتمّ فكّ الأصفاد عنها وحمايَتُها من أيّ هجومٍ من جنودِ شيطان العالم السّفلي "أولمك". هذا العالم أصبحَ مريضا... يوم أمس بدا القمرُ مختلفا، القمر الأحمر الدّمويّ لا يظهر بدون سبب، حينَ تتعطّش الأنفس لسفكِ الدّماء يأخذُ القمرُ هذا اللّون، يحكي التّاريخ قصصا مرعبة عن هذا الأمر، يقالُ أنّ المخلوقات في الأرض الوسطى وأرض العفاريت لم تعرِف القتل وسفك الدّماء، لكن يومَ قتلَ العفريتُ العظيمُ آبانوخ أخاه العفريت أغوليد بفكّ الأرض السّفلى الّذي من شأنِه أن يقتلَ الأرواح الخالدة، بقيت قطراتٌ من دمه تطفو في الكون ومع خروجِ الطّفلة الدّموية من باب العالم السّفلي استثارتها رائحة دمِ العفريت النّادرة تتبّعتها في الهواء إلى أن عثرتْ عليها، وحينَ ارتشفتها أخيرا تحوّلت العوالم إلى اللّون الأحمر وقامتْ حروبٌ سُفكتْ فيها دماءٌ كثيرة، سالت أنهار الدّماء لزمنٍ طويلٍ قبل أن تجفّ حينَ شعرت الطّفلة الدّموية بالنّعاس ونامت. مرّ الدّهر ويوما بعد يوم شعرت بالجوع مجدّدا، بعدَ انقضاء سبعمئة وسبعة وسبعين سنة من ذلك، لم تكنْ دماء المخلوقات الفانية تروي عطشها، احتاجت للكثير منها، فجعلت العالم يعيش صراعا بطريقة ما ثمّ شربت الدّماء بنَهَمٍ وشهوة كبيرين... حينَ عطست تطاير الدّم من فهما على القمر، من يومِها أصبَح القمرُ يميلُ إلى اللّون الأحمر كلّما أحس بقربِ استيقاظها مجدّدا، لا أحدَ يعلمُ من جلبَ هذا المخلوقَ المرعبَ من الأراضي السُّفلى

وما هي غايتُه من ذلك، لكن هنالك شيءٌ وحيد مؤكّد... وحدَهُ العفريتُ الأوّل "موايّ" يستطيعُ إرجاعَها من حيثُ جاءت، لكنّه لسوء حظّ هذا العالم التّعيس، تحوّلَ إلى صنمٍ في جزيرة القيامة بعدَ أنّ أعطى قدراتِه لأبنائه العفاريت العظمى.

الأمر الآخر السّيّء الّذي حدثَ بعد موتِ عفريت الجبال أغوليد وعودتِه مجدّدا من البوابة الزّمكانية الّتي يفصل عالم الخالدين عن عالم الفانين، هو أنّ المخلوقات الجبّارة الأولى أدركتْ أنّ هنالكَ ثغرة تمكّنها من الرّجوع بعد فنائها.

سألَ أسميد الفزّاعة ترقو:

-مادامَ درعُ الدّمى صامدا سيكون كلّ شيء بخير، لكن إلى متى سيصمد؟

-بقدر المستطاع! سيمنعُ كلّ السّحرة والعفاريت، لكنّه لا يخلو من الثّغرات.

انطلقَ الإنذارُ فجأة:

-إنّها التّنانين! إنها التّنانين!

نهضَ سيّد الأدفل من مكانه:

-كم عددها؟

-واحدٌ يا سيّدي.

-واحدٌ فحسب؟ اهتمّوا بأمره حالا!

...

في غرفة البعوضة بريغيل -أخ توشوشت-جاء الضّيفُ الذي صارَ يأتي كلّ ليلة منذُ مدّة، إنّه سبب نجاحه فهو يطلعُه على كلّ الأسرار الّتي يحتاجُها، أخبَره عن إمكانية بعث العفريت الأوّل موايّ مجدّدا وجعلِه يخدُمُه باستعمال دماء الأجناس الموجودة في العوالم، ضيفُه اليومي هو الغريبة الّتي تدعى "ددان" عالمة بشكل غريب وهادئة بشكل مخيف، سألها:

-ماذا بقي لكي أهزمَ أقمد؟

-تحتاجُ إلى كتاب التعاويذ.

-وأينَ أجدُه؟

-هو الآن لدى حاصدِ اللّيل.

-من هو؟ كيفَ يمكنني أخذه منه؟

-أخذه منه؟ يجب عليك طلبه، إنّها الطّريقة الوحيدة لذلك.

-وماذا سيأخذُ بالمقابل؟

-كلّ الظّلام الّذي في قلبك، لكن إنّ لم يكن كافيا أخذَ روحك.

كانت ددان مصابة بلعنة، لم يكن بوسعها إيذاء أحد جسديّا ولا الكذب على أيّ كان، قوّتها الوحيدة هي الوسوسة والإقناع، لكنّها تستولي على العقول وتجعلُها منوّمة بطريقة ما، فكّر بريغيل قليلا ثمّ قال:

-لا بأس أين أجده؟

أخبرتْهُ ددان بمكانِه، يبدو وكأنّها لا تريد شيئا مقابلَ مساعدتِها، لكنّ أخ توشوشت كانَ مدركا أنّها مستفيدة بطريقة ما، لذلك لم يمزج دم الرّاحفين والدي أقمد مع بقيّة الدّماء كي لا تكتمل التّركيبة، تحتاجُ التّركيبة إلى دماء الأفاعي الصافية وذلك الأمر الوحيد الّذي كانَ ينقصه.

...

أقمد الآن يواجِه لأوّل مرّة مخلوقات الأدفل القويّة، لكنّه قبلَ ذلك التقى العفريتَ آبانوخ الّذي يدينُ له بحياتِه وطلبَ منهُ شيئا ما ووافقَ عليه عرفانا بجميل أقمد وفضله عليه، كانتِ الأدفل قويّة جدّا كما هو متوقّع، حتّى النّيرانُ السّوداء الأسطورية لم تنفع ضدّها، كانتْ أجسادُها الثّلجية تتبخّرُ ثمّ تعودُ كما كانتْ، قامت بقذف أقمد بكراتِ الثّلج الصّلبة، راوغَ معظمَها بقدراتِ طيرانِه العالية وحين أصابته ولّى هاربا على الفور، استغربت مخلوقات الأدفل الأمر، التّنانين معروفة بقتالِها حتّى النّفس الأخير، إنّه أوّل تنّين يهرب ولعلّه أحكمُها، ما فائدة الموت إن كانَ الهربُ سيمكّنك من العودة مجدّدا لتقاتل بشكل أقوى؟ لكن أقمد الّذي هرب أو على الأرجح جعلَهمْ يتوهّمون هروبه، كانتْ خطّته منذ البداية الدّخول إلى هذه الأرض لوضعِ شيء ما ثمّ الخروج، فقبلَ مجيئه إلى هنا طلبَ من آبانوخ عفريت الرّياح والزّوابع طلبه قائلا:

-أحتاجُ إلى رمالكَ أيّها العفريت العظيم أبانوخ.

-ولِمَ تحتاجُها؟

-لأستعيد حقّ قومي الّذي سرقته الأدفل.

اهتزّ آبانوخ العظيم لطلب أقمد وهو أحد العفاريت السّبعة العظمى، فلا أحدَ يتجرّأ أبدا على اقتحام أرضٍ كهذه، في الأخير تمكّن أقمد من إقناعه أنّ الأمر لن يكونَ بالسّوء الّذي يظنّه.

-حسنا، ماذا تريد؟

-أريد أن تغيّر هيأتك العظيمة وتختفي في فكّي، وتنثرَ رمالك على كل أرضِ الأدفل عند دخولي إلى هناك.

-أهذا كلّ شيء؟

-هناكَ أمرٌ آخر...

قبضَ أقمد قبضة من الكيس الّذي يحملُه وأخرجَها، بدا أنّ كفّه فارغة، لم يكن يرى شيئا بلْ كانَ يحسُّ بطاقة ما، أبانوخ كائن مختلف استطاع رؤية الكائنات الشّاردة على كفّ أقمد.

-أريد أن تضع هذه الكائنات على حبّات غبار زوبعتك قبلَ نثرها على أرض الأدفل.

لقدْ فكّر أقمد في كلّ الجزئيّات، حتّى أنّه أخفى العفريتَ أبانوخ في فكّه لأنّه وحدَه ما كانَ ليستطيع العبور عبر الحاجز السّحريّ الّذي وضعتْهُ الدّمى السّاحرة والّذي يمنَعُ الكائنات الميتافيزيقية من الولوج إلى أرضهمْ.

هربَ أقمد وقد أتمّ أوّل خطوة بنجاح ونثَر الكائنات الشّاردة على أرض الثّلوج النّقيّة في مملكة الأدفل، لكنَّ سؤالا واحدا ظلّ يشغل باله:

– لمَ لمْ تحلّ السّاحرة أريناس بنفسِها مكان آبانوخ مادامت قادرة على إنهاء الأمر؟ ولماذا تريدُ بشدّة القضاء عليهم؟

كانتْ هنالِك المزيدُ من الأسرار والمفاجآت في انتظار التّنين العظيم.

القفلُ

كنتُ بدأتُ بالشّعور أن قصّة أقمد أصبحت تتّجه إلى الانغلاق وأنّها مجرّد قصّة انتقام كلاسيكيّة، لكن ما روتْهُ لي ابنة عمّ ميلين في هذه المرّة جعلَ الأحداث تشتعل، طفلة دموية متعطّشة وفزّاعة معتوهة وحاصد غامض...

في هذا اليوم بدا على أريام كثيرٌ من الحماس، حماسٌ لقصّ بقيّة الحكاية، لكنّها فاجأتني حينَ توقّفتْ في مرحلةٍ ما، كمنْ يريدُ أن يأخذَ استراحة من سفرٍ طويل، سفر حملتني خلاله إلى كمّ هائل من الخيال، كنتُ متعجّبا جدّا من قدرة البشر على سبكِ أحداثٍ من أخوامِ العدم، نظرتْ إليّ نظرة ثمّ قالت:

-تكادُ القصّة تنتهي، لكن يقالُ أنّ هنالك منها بقيّة لا نعرفه رغمَ أنّي لا أصدّق ذلك.

-مادامَ لا أحدَ يعرفُ البقيّة فهي غير موجودة.

-ممم، ألا ترى أنّ المصوّر هو الشّخص الوحيدُ الّذي لا يظهرُ في الصّور؟ كيفَ لكَ أن تكونَ مادّيّا جدّا وتدّعي عدم حضوره أثناء التقاطِها؟

-أقصدُ أنّ أمرَ البقيّة هي أسطورة أكثر حتّى من الأسطورة التي تروينَها، لو كانَ أحدٌ على علمٍ بها لكانَ الجميع قد علمَ بأمره.

-يقالُ أنّ هنالكَ شخصا يدعى "عمّي موسى" وهو الوحيدُ الّذي كانَ يحفظ عن الأجداد الرّواية كاملة.

-كان؟

-نعم رحمه الله توفّي قبلَ ولادتي حتّى.

-يا عيني... على كلّ حال، لا يمكن الوثوقُ بتلك الإشاعات الّتي يردّدها الجميع.

-عليكَ الوثوق بأمر ما لأوّل مرّة دائما، قد تكونُ في حالة يأس عندها كمريض جرّب كلّ الأدوية ثمّ لم يجدْ بُدّا من اللّجوء إلى طبيب الأعشاب الّذي لم يثقْ به وبأدويته يوما.

-سمّها ما تشائين لكنّها ليست ثِقة، بالنسبة لي هي حاجة تولّدت من اليأس، حينَ يخالُ المرء أنْ لم يعُدْ لديهِ ما يخسره، سيبدأ بخسارة أموالِه ليشعرَ بالرّضى وأنّه فعلَ كلّ ما يمكنه... في حالة متقدّمة من ذلك سيخسر أمورا أخرى كعائلته ونفسه وإيمانه وعقله... لو كانتِ الثّقة واقعا فمَا سبب وجود كلماتِ السرّ في كل تعاملاتنا وفي كلّ مكان؟

ابتسمتْ قليلا وقالت:

-للسّبب نفسه الّذي وُضع من أجله قفلٌ على باب المرحاض.

-وضّحي أكثر!

-ربّما وُضعتْ أساسا لتجنّب خسارة الثّقة، لأنّنا حينَ نقتربُ بقدرٍ ما من بعضنا سنصلُ إلى ذاكَ العمقِ الّذي تختفي فيه صفاتُنا الأسوء، لذلك كلماتُ السرّ تحفظ الحدّ الأدنى الّذي يسمَح باستمراريّة الثّقة.

-إذاً وضعُ القفلُ سببه ألّا نفاجئ أنفسنا ونرى من بعضنا ما نكرَه أن يُرى منّا... وِجهة نظر متفرّدة! سأضيفُها إلى مجموعة الكلمات الّتي غيّرت حياتي.

-وكم كلمةً جمعت إلى الآن؟

- واحدة... هي كلمتك، سأشتري دفترا من أجلها لاحقا...

ضحكتْ أريام، شعرتُ أنّها تشتاق إلى هذه الضّحكاتِ كصديقٍ قديمٍ تلتقيه مجدّدا، كانَ ذلك دافعا لي لإلقاء مزيدٍ من الدّعابات، باتَ عليَّ اختراعُ شيء ما فالدّعابات الّتي أحفظها قضيتُ عليها في أوّل لقاء معها... بعدَ أن هدأت ضحكاتُنا أردفت:

-أمزح فحسب... مجموعتي كبيرة لستُ أذكرُها كلّها، لكنّي أذكرُ أوّلها وهي كلمة قالَها لي أستاذ الرّياضيات العراقي وكانَ رجلا شديدا، قويَّ الملامح والحضور.

صمتُّ في هذه اللّحظة كي أدفعها لسؤالي عن التّالي، أومأتْ برأسها لي باهتمام لأكمل قائلة:

-وماذا قال أستاذك؟

- "برّا عليّا!"... طردني من القسم حين صفعتُ زميلي بالمسطرة ممازحا إيّاه.

ضحكت أريام مجدّدا وأضحكتني معها، رويدا بدأت تهدأ ملامحي إلى أن أصبحتْ جدّية أكثر، تناولتُ كأس العصير وارتشفتُ قليلا، كنتُ أنوي طلبَ القهوة لكنّي غيّرتُ رأيي في آخر لحظة دونما تفسير لذلك، ضممتُ يديّ إلى بعضِهما ناظرا إليهما ومتلمّظا بلساني أتذوّق الطّعم العالق على شفتي:

-في الواقع قالَ لنا ذاتَ يوم وأظنّه اقتبسَ ذلك من قولِ أحد المشاهير:

"لا تخبر أحدا عن وِجهتك، دعهم يظنّونَ أنّك تائه."

لقدْ كانَ محقّا فبعضُ البشرِ بارعونَ في حفر خنادق في السّبل الّتي نمضي عليها، وأشرُّ منهم أولئك الذين يموّهونها كي نقعَ فيها.

-المهمّ ألّا تقعَ مرّتين!

أجبتُها وأنا أقصد نفسي:

-حمدا للّه أنّك لم تذكري من وقع عشر مرّات!

ضحكتْ وقالتْ:

-لا بأس مادام لم يدقّ عنقه أو يكسر أطرافه، من يدري... لعلّ هدفَهُ هو السّقوط في الحفرة منذ البداية.

داخلي، اعتبرتُ الذّكريات الّتي تنتابني أكبرَ حفرة أقعُ فيها باستمرار، ربّما أتعمّد حقّا الوقوع فيها تواليا، لا يمكننا إعادة الماضي لكنْ بإمكانه زيارتنا متى شاء ما دمنا لم نوصد الأبواب في وجهه، وحدَه السّفر كفيل بأن ينسينا إياه بسرعة للحظات، معرضُ الكتاب سيكون فرصة مثالية لذلك.

-تدرين؟ أفكّر في كتابة جزء ثانٍ لروايتي ما رأيك؟

-أشجّعك!

-أحتاجُ لبقيّة حكاية أقمد، ما الّذي حدث بعد آخر فصل؟

الفصل السادس عشر

جلسَ حاصدُ اللّيل واضعا روحيه أمامه وراح ثلاثتُهم يحدّق الواحد في الآخر طيلة ساعات، كانتْ الرّوح الطّيبة أضعفَ من أيّ وقتٍ مضى لذلك شعر أنّ الحلمَ قريبٌ جدّا من التّحقّق، لقد قدّمت له ددّان الكثير من القلوب السّوداء خلال القرون الماضية، العالمُ الآن لا يشعرُ بوجوده، إنّه كالدّاء المستفحل حينَ تشعرُ بوجودِه فذاك يعني أنّ الأوان قد فات، هو من أوائل المخلوقات الّتي وُجدت في العالم السّفلي، قليلون من يعرفونَ تاريخَه، حاولَ التهام العالم في قديم الزّمان لكنّ العفريت الأوّل موايي تصدّى له ووضعَ داخِلَهُ لعنة الرّوح المقيّدة وهي روحٌ طيبةٌ تمنعه من ارتكاب أيّ عمل يضرّ بالعالم.

بمرور السّنوات لاحظ أنّ هذه الرّوح الطّيبة تضمحلّ كلّما التهم مزيدا من الشرّ الّذي يسكن القلوب، لذلك ارتدى ثوبَ النّاسك الّذي يداوي القلوبَ الّتي تعاني من الحقد والغِلّ، ساعدتْهُ ددّان أو ما يسمّى بالطّفلة الدّموية في ذلك كثيرا، في كلّ مرة جلبتْ له من يرجونَ حاجتهم عندَه وغالبا ما كان ينتهي بهم الأمر هالكين، لأنّ الحقد تعلّق بشغاف قلوبِهم وحينَ يُنتزعُ يترك خلفه نزيفا لا يهدأ، استمتعت ددّان بشربِ تلكَ الدّماء في كلّ مرّة، لكنّ طموحَها كانَ الحربَ الّتي سيبدأها حاصدُ اللّيل على العالم فورَ تخلّصه من الرّوح الطّيبة الّتي تقيّده.

حاصدُ اللّيل هو المخلوقُ الوحيد الّذي يحتفظ بكتابِ التّعاويذ بعدَ أنّ استخلصَهُ من قلبِ الفزّاعة "ترڤو" ذاتَ يوم، بإمكانِه تحقيق الكثير مقابل تضحية ولطخة دم حينَ تفتح البوابة الزّمكانية في السّاعة المقدّسة.

الكلّ يريد كتابَ التّعاويذ لتحقيق أهدافه الخاصّة، احتاج بريغيل أخ البعوضة توشوشت كتاب التّعاويذ أيضا، هو يملك مصل الدّماء ولم يتبقَّ إلّا إضافة دماء الزّواحف الّتي يحتجزُها إليه، هدفُهُ الآن إيقاظ العفريت الأول موايي واستعمالُه ليكونَ قوّة لا تُقهر في حربه ضدّ أڤمد، تحوّلُ موايي إلى حجر بجزيرة القيامة لا يعني نهايته، هنالكَ طرقٌ مظلمةٌ لإنعاشِه، ددّان تعلمُ أنّ استيقاظَهُ مجدّدا سيكون خطرا كبيرا عليها وعلى حاصدِ اللّيل، فقوّته الجبّارة وحدَها بإمكانِها العصفُ بهما معا، لكن لسبب ما دلّت البعوضةَ بريغيل على السّبيل لإيقاظِه، في الموعِد المحدّد التقيا، شعَرَ حاصدُ اللّيل بالانتشاء وهو يتحسّس هذا البغض والحقدِ المتدفّقين من قلب البعوضة، حينَ يتعلّق الأمر بالثّأر يصبحُ المنطقُ منفصلا عن الرّؤى والقرارات، سألَهُ حاصد اللّيل:

-متأكّدٌ من أنّكَ تريدُ هذا؟

-نعم.

-أمسِكْ بيدي وضعها على قلبك.

فعلَ أخ توشوشت ذلك وحينها أحسّ أنّ روحَهُ تُسحبُ إلى جسد الحاصد، شعر بألم لم يختبرهُ من قبل، قلبُه بدأ بالتّمزّق في الحين... سقط البعوضة صريعا ولم يتحمّل قلبُهُ ذلك ككلّ من كانوا قبلَه، إنّ الّذين يرفضون الاعتبار دائما ما يصبحون عبرة، تغيّرتْ ملامحُ حاصدِ اللّيل، رمى البعوضةَ في زاوية جحره مع الجثث بعدَ أن أخذَ منهُ مصلَ الدّماء الجامع لكلّ أجناس العوالم، رشفت ددّان بشراهة الدّماء الّتي ساحت على الأرض، ظهرَ وجهُ حاصد اللّيل الشّرير أكثرَ شرّا من أيّ وقتٍ مضى، لقد وهنتْ الرّوح

الطّيبة داخلِه! العالم الآن مقبلٌ على الجحيم، ستسفك دماءٌ كثيرة قريبا! لكنّ الأمر الّذي لم يضعهُ في الحسبان هو أنّ المصلَ لا يزال يحتاجُ إلى الدّماء الصّافية للأفاعي، لقد كانَ بريغيل محقّا بحذره من ددّان.

...

بإلقائه المخلوقات الشّاردة في أرض "الأدفل"، صارَ مصيرُهم الآن بينَ يدي أقمد، عاد التّنين أقمد إلى أرض الأدفل حاملا المخلوقات الأخرى مستعدّا لتحريرِها، المخلوقات الصّاعقة الّتي جلبَها مسلوبة الرّغبة، تتصرّف وفقَ ما تمليه عليها الطّبيعة، لكنّ ضررها أحيانا لا يمكنُ حصرُه، زرعَ أقمد وتدين حديديّين على حدود أرضهم، سينفّذ خطّة السّاحرة العظمى أريناس والّتي من شأنها القضاء على الأدفل إلى الأبد.

-هذا الأحمق لا يكتفي أبدا، بعض المخلوقات لا تعرفُ حجمَها إلى أن تطأها وتسوّيها بالأرض.

قالها أسميد ملك الأدفل بعدَ أن عادَ أقمد مجدّدا لاختراقِ أرضِهم، هبّت مخلوقات الأدفل بكلّ شراسة مدافعة عن مملكتِها ضدّه في هذه الأثناء...

أقمد أعدّ لهم مفاجأة لم تخطر على بالهم مطلقا، كانتِ المخلوقات الشّاردة قد توغّلت في الثّلوج الصّافية بينَما ثبّت هو الوتدين على حدود قطبي مملكتِهم لسبب ما، قبضَ مجدّدا قبضة من الكيس الثّاني وصرخَ:

" فلتختفي أيّتها المخلوقات اللّعينة!"

...

سكتت أريام وتركتني متسائلا، ما الّذي سيفعلُه حاصد اللّيل؟ وماذا جنى "بريغيل" أخ توشوشت من كلّ هذا؟ ومن سيوقفُ الدّمويّة ددان الآن؟

صارتِ الأمور أشدّ إثارة! انغمستُ تماما في الحكاية الّتي ترويها أريام، أتساءلُ عمّا شعرَ به أحمدْ وهو يسمَعُ كلّه هذا الخيال من عمّي يغموراسن في بيت طوبٍ قديم على ضوء شعلة ناريّة، كم أحسده على ليلةٍ كهذه!

ذكريات لن تأتي

إنّه الواحد والثلاثون من أكتوبر أخيرا، بعدَ رحلةٍ قصيرة على متنِ الطّائرة وصلتُ إلى العاصمة أينَ سيقامُ معرضُ الكتاب، تمنّيتُ أن ترافقني أريام خلالَها، أفكارُها تلهمني وتمنعني من الاستغراق في الوحدة والتفكير، لا أشعرُ بالارتياح هنا فالبشر أكثرُ برودةً وقليلو الحديث، كأنّهم يدرونَ جيّدا ما يريدونَه ويقتصدونَ الجهدَ من أجله.

أوّل خطوة عليّ القيام بها هي إيجاد مأوى للمبيت، لا بأس بتغيير الفندق هذه المرّة واللّجوء إلى فندق أرقى قليلا، رحتُ أطوفُ بالفنادق الّتي كانتْ ممتلئة، بدأ الأمر يغدو أصعب بوجود الحقيبة الّتي أحملها على ظهري، أخيرا استسلمتُ وعدتُ إلى فندقي المعتاد المتديّ المقاييس بحيّ القصبة، سيكون أفضل من النّوم خارجا فأنا لا أعرفُ أيّا كانَ هنا، بل دعنا نقول أنّ الّذين أعرفهم غيرُ مستعدّين لاستقبالي، لقد أتيتُ هنا مرّاتٍ عديدة وكانوا يتحجّجون في كلّ مرة عن القدوم لاحتساء كأس شاي أو قهوة معي.

-عفوا، هلّا ساعدتَني سيّدي؟

التفتُ على مدخل الفندق وكانتْ فتاة جالسة على كرسيّ متحرّك رفقة فتاة أخرى تدفعه، كانتا عاجزتين عن صعود الدّرج الصغير الّذي على المدخل، ساعدتُهما بكلّ سرور، حجزتُ غرفة وهممتُ بالصّعودِ إليها، حينها فكّرتُ في أمر الفتاة الّتي لم تقوَ على صعود الدّرج الصغير كيف عساها تتعامل مع الدّرج الأكبر؟ انتظرتُهما متظاهرا بانشغالي بهاتفي رغمَ أنّها صارتْ حيلة مكشوفة حينَ لقيتاني عند الدّرج وعرضتُ عليهما المساعدة، أثناء ذلك تبادلنا الحديث.

-تسكنان بعيدا؟

-نعم...

-ما السبب الّذي دفعكما للمجيء بمفردكما؟

-جئنا من أجل معرض الكتاب، سنلتقي أحد الكتّاب هناك، صديقتي يسرى تريد ذلك بشدّة.

في هذه الأثناء تذكّرتُ الفتاة الّتي تواصلت معي من أجل صديقتِها المريضة، قالتْ أنّ قلبَها ضعيفٌ جدّا، أخبرتني باسمها مرّات عديدة عبر الفايسبوك لكنّ الحقّ عليّ، فلم أكن حريصا على تذكّره رغمَ ندرة الأسماء الّتي عليّ تذكّرها، تلك الفتاة المسكينة المقعدة صاحبة العيون الباهتة، بدتْ نظراتُها المتحمّسة وسط محجريها كطلقة ناريّة متفجّرة تحاول الانطلاق مسدّس مهترئ، كانَتْ أعراض المرض بادية عليها، عيناها وزرقة شفتيها وضمور عضلاتها... من الواضح أنّها كانتْ جميلة قبلَ أن تُبتلى به... من جديد ولأتأكّد سألتها:

-ما اسمك آنستي؟

-سلمى سيّدي...

حينَها تأكّدتُ من أنّها هي، هذه المريضة اسمها يسرى إذن... يا لها من مصادفة غريبة، في تلكَ الأثناء قرّرتُ ألّا أكشفَ عن هوّيتي، أردتُ أن أجعلَها مفاجأة لهما يومَ غد حينَ تجدانني في المعرض، لا أبرحُ أرتجلُ وأتمنّى ألّا تكونَ العواقب مخيّبة جدّا.

شعرتْ يسرى بضعف جديد لذلك قمتُ بحملِها كطفلة صغيرة، كانتْ خفيفة الوزن، ظلّت تنظرُ إلى عينيّ وأنا أتجاهلُها متظاهرا بأنّي لم ألاحظ، أنا شديد الخجل حينَ يتعلّق الأمر بمبادلة أحدهم نظراتِه، أخيرا وضعتُها على الكرسيّ عندَ باب غرفتِها وقد حفظتُ رقمَها، قلت لهما وأنا لا أنفكّ أقطعُ مزيدا من الوعود وأثقلُ كاهلي بأشياء قد لا أنجزها، في الوقتِ الّذي يكون من الممكنِ تركُها مجرّد خطط جميلة ومفاجئة:

-سأمرّ بكما صباحا لمساعدتكما في النّزول، إن احتجتما أي شيء فأنا في الغرفة هناك.

أشرتُ في هذه اللّحظة إلى باب غرفتي بإصبعي المرتجف، كثيرا ما تتشنّج يدي حينَ أحملُ شيئا ثقيلا نسبيّا لبعض الوقت أو أبذل جهدا كبيرا في زمن قصير، كنتُ أتوق للنّوم تلك اللّيلة لكنّ ملمس الفراش لم يرقني، كانت الجدران قريبة منّي كأنّها تعتزم خنقي، تجوّلتُ في صفحات الفايسبوك واليوتيوب ثمّ قرّرت الاتصال بأريام لتقصّ عليّ الحكاية، شكّلتُ رقمها لكنّ الهاتف قاطعني مقترحا اسمَها كأنّه يدري بمدى رغبتي في الاتصال بها اليوم، لعلّه السّبب الّذي جعله أحبّ إليّ من معظم البشر، هو يفهمني ولا يعترضُ على قراراتي أبدا حتّى أنّه لا يمانِعُ أن أضرب به عرض الحائط لأنفّس عن غضبي، لم يكدْ يرنّ إلّا وأنا أسمع صوتَها وعليه بحّة النّعّاس:

-كنتُ أعلمُ أنّك ستتّصل...

أدركتُ حينَها أنّنا نطلقُ وعودا ضمنيّة للآخرين حينَ نعوّدهم على سلوك ما، أنّهم ينتظرون منّا الوفاء لعاداتنا وقد تكونُ أهونَ من الوعودِ الشّفهيّة.

"يا إلهي، كم عدد الوعودِ الّتي قطعتُها لها دونَ أن أدري؟"

تساءلتُ داخلي!

-وكنتُ أعلمُ أنّك ستنتظرين..

-لا تكن واثقا جدّا، لربّما كنتَ ستغيّر رأيك لو اتّصلت بعد خمس أو عشر دقائق...

قالتْها ثمّ انتبهَتْ إلى ذاك الأمر الّذي أريدُه:

-قل لي، أ لا تودّ أن تعرفَ ما حدثَ مع أقمد؟

أشعرني سؤالها بقليل من الارتياح، كانَ فيه إيحاء على أنّها تظنّ أنّها ليست سبب اتّصالي بل فضولي هو كلّ ما في الأمر، إن كان الأمر كذلك فلا يمكنُ اعتبار اتّصالي المستمرّ بها وعدا!

-بلى عزيزتي، أودّ ذلك!

الفصل السّابع عشر

الأمور تنذر بسوءٍ سيحلّ قريبا على العوالم الوسطى، كثيرٌ من الأبرياء والسّاعين للثّأر ماتوا، شنّ أڤمد حربا على الأدفل وخرج حاصد اللّيل إلى العلن بعدَ حصولِه على ما يحتاجه من الحقد وهو يملك كتاب التّعاويذ، ددّان تمنّي نفسَها بكثير من الدّماء بعدَ الحربِ الّتي ستقوم عمّا قريب بمباركة حاصد اللّيل، ستكون أكبرَ حربٍ منذ قرون طويلة.

في أرضِ القيامة كان النّاسك جالسا كما يفعلُ دائما، تاريخُ هذا المكان حافلٌ بالأحداث الغريبة، لم يعدْ أحدٌ يسكنُ المكان، هجر الجميع في اليومِ نفسه الّذي حلّ فيه النّاسك بالقرية، في كلّ ليلة ينتظرُ ظهور نجوم "حزام الجبّار"، يجمع رجليه إلى بعضِهما ويضع يديه على فخذيه ولا يفعلُ شيئا غير هذا، يغمضُ عينيه مقابلا للتّماثيل الخمسة في مرحلة ما من اللّيل وفي السّاعة المحدّدة يبدأ التمثال الأكبر المعروف باسم موايِ بالغناء مرّة كلّ سنّة، لا يقولُ أيّ كلمات، صوتُه مطابقٌ لصوتِ الكمان الجهير على سلّم الموسيقى "دي"، النّجوم تسدّ أفق السّماء منها ما يشعّ بالأبيض وآخر بالأزرق الفاتح ثمّ يميلُ إلى الأخضر ومنها ما يميلُ إلى الأحمر، جوٌّ مهيبٌ جدّا ورياحٌ خفيفة تجعلُ العشبَ يتموّج على مساحات شاسعة، فوقَه حمرة شفقيّة تشبه الدّوامة، حينَ يغنّي تمثال موايِ، يتردّد الصّدى مالئا الدّنيا، تخشعُ الجبال والآفاق وينصتُ الجميع، كأنّ الدّنيا خالية من الأحياء ولا يوجدُ فيها سوى التّمثال والنّاسك، أحدُهما يجيد الغناء والآخر يجيد الاستماع، تقولُ الأسطورة أنّ التّمثال هو للعفريت الأوّل موايِ، فبعدَ أنْ وهبَ أبناءه العفاريت العظمى قواهُ تحوّل إلى هذا التّمثال وقربه ستة تماثيل أخرى جامدة لم تتحرّك يوما، في البداية كان سبعتهم خامدين، لكنّ تمثال العفريت الأوّل موايِ شعرَ بالحزن الشّديد يومَ ضيّع العفريت العظيم "أبانوخ" الأمانة التي أوكلها إليه بحفظ العالم وحراسة باب العالم السّفلي وقتلَ أخاه العفريت "أغوليد"، من يومِها أصبحَ يبكي كلّما حلّت ذكرى هذه الحادثة مجدّدا، لن يتوقّف عن الغناء إلى أن تعودَ الأراضي إلى حالِها أيّام كانَ موجودا وحكمَ فيها بالعدل ونشرَ فيها الأمن، تروي الأسطورة عن يومٍ سيعودُ فيه موايِ إلى الحياة، في تلكَ اللّيلة وأثناء السّاعة المقدّسة ستسفكُ الدّماء على الشّجرة المقدّسة وستسكن أرواحِ العفاريت الستّة الأخرى التّماثيل بحضور حارس البوّابة الزّمكانية الفاصلة بين عالم الفانين والخالدين، ستغنّي التّماثيل الخمسة الألحان الكونيّة وسينتظرُ القمرُ مكانَه ولن يتحرّك حتّى تمسّه حمرة الشّفق، عندئذ سيأذن ببداية حقبة جديدة تنتهي فيها العوالم أو تصحّح وتعاد إلى الطّريق السويّ.

...

في العالم السفليّ كلّ شيء على ما يرام، في كلّ دقيقة تقتلُ المخلوقات المرعبة بعضَها بلا رحمة ودون سبب، هذا الأمرُ الّذي يجعلُ الملك "أوملك" هادئا بعض الشّيء، محاولا تجاهلَ الحادثة الّتي جرتْ قبل آلاف السّنين، تركت هذه الحادثة في نفسِه أثرا عميقا جدّا ولم يتخلَّ يوما عن فكرة الانتقام.

يعودُ الأمر لسنين غابرة، أينَ وُجدَ العفريتُ الأوّل موايِ الّذي علمَ مِن ذرّات الكون بقربِ قدومِ أخٍ له عمّا قريب، استطاع بقدرته الخارقة معرفة أنّ العالمَ لن يكونَ بخير إذا حكمَه حاكمان، لذلك انتظرَ قدومَ أخيه ثمّ طلبَ منه التخفّي ومقابلَ ذلك وعدَهُ بإعطائه جزءا من العالم ليكونَ تحتَ تصرّفه ليسيّره

كيف يشاء، موايكانَ عفريتا بكلّ ما للكلمة من معنى ووفى بوعدِه لأخيه، شريطة أن يكتمَ وجودَه ويختفي من هذا العالم.

أولمك كانَ مختلفا عن موايمن نواحٍ عديدة، فهو مثلا كانَ يستطيعُ التّكاثر والأكل والتّألّم ويمتلكُ كلّ الشهوات البشرية عكسَ أخيه المتكامل موايي، اختلى أولمك بنفسِه في عالمِه الّذي كانَ يحملُ مخلوقات غريبة تعيش بينَها في سلام، كانَ على علاقة بالفزّاعة ترقو أمينة كتاب التّعاويذ وحارسته، كانَ مغرما جدّا بها أيّامها، إلى أن خانتهُ معَ أخيه موايحينَ قرّر أن يتحصّل على شهوات الفانين ويتزاوجَ مع الأحياء الموجودة حينَها، ما نتجَ عنهُ عفاريت كثيرة، منها عفاريت البرّ والبحار والأشجار والزوابع... والعفاريت السّبع العظمى المعروفة: آبانوخ، أغوليد، حمو-قيّو والبقيّة.

ما كانَ على موايالتّزاوج مع الفزّاعة ترقو، لقدْ أغضبَ هذا أولمك وولّد الحقدَ في قلبِه... يوما بعدَ يوم صارَ قلبُهُ مظلِما، قلوبُ العفاريت تنعكسُ على وجوهها، غدا وجهه قبيحا لدرجة تثير الرّعب في القلوب، لذلك انتشر خبره في الآفاق والأكوان وعُرف بلقب "الشّيطان أولمك".

الخيانة لا تغتفر عندَ الخالدين شأنهم شأن الفانين، كانَ يُعدّ لشنّ حربٍ يجعلُ أخاه فيها يدفعُ الثّمن، غير أنّ أخاه تعجّل الرّحيل عن عالم الخالدين لسبب وحدَه يعرِفُه... ابتكرَ الشّيطانُ أولمك أسلحة مرعبة كأصفادِ النّاب وفكّ العالم السّفلي الّذي كانَ هو من أعطاهُ للعفريتِ آبانوخ والّذي قتلَ به أخاهُ أغوليد بدوره.

سجنَ أولمك الفزّاعة في سجونِه وعرّضها إلى كلّ أنواعِ العذاب إلى أن تمّ كسرُ أصفاد النّاب بطريقة ما وتهريبُها ذاتَ يومٍ من هناك، لكن قبلَ ذلك حملتْ معها كتاب التّعاويذ في قلبِها، بحكمِ أنّها كانت أمينة الكتاب ثمّ لاذت بالفرار حيثُ التقت السّاحرةَ أريناس بعدَ أن تجاوزت بوّابة العالم السّفلي، لكنْ أثناء ذلك قامَ أحدهم بتهريب حاصد اللّيل وددّان كذلك، لا أحدَ يعرفُ ما مصلحتُه مِن فعل هذا... مِن تدمير العالم!

...

قبضَ أقمد قبضة وألقاها على أرضِ مخلوقات الأدفل، إنها المخلوقات الصّاعقة! بعدَ مدّة ستندثر الحياة من هذه الأرض، أريناس السّاحرة العالمة بأسرار الكون كانتْ تدري أنّ السّبيل الوحيد للقضاء على مخلوقات الأدفل هو بتحليل مكوّناتِها، لذلك دلّت أقمد على غرس وَتَدين مشحونين بقطبي أراضيهم ونثر المخلوقات الشّاردة الّتي كانتْ فوقَ رمال العفريتِ آبانوخ على الثّلج النّقيّ، بهذا أصبح الثّلجُ ناقلا للمخلوقات الصّاعقة وأصبحت هذه الأرضُ مسرحَ تجربةٍ كبير فحسب، بعدَ قليل ستّتجه ذرّات الأكسجين في اتّجاه معاكس لذرّات الهيدروجين، حينَها ستتفكّك أجساد الأدفل جميعا.

وقفت الدّمى السّاحرة عاجزة عن المساعدة، فقوّتُها لا تؤثّر في المخلوقات الفيزيائية كالتّنين أقمد، بينَما تعالتْ صرخاتُ الأدفل وأجسادُها تتحلّل شيئا فشيئا، سمعَ أقمد صوتا يترجّاه:

-توقّف... أرجوك توقّف!

لمْ يرَ سببا للتوقّف، ما أوقحَ الأشرار حينَ تتعلّق المصائب والآلام بهم، تعودُ إليهم الرّحمة والمشاعر والأحاسيس من جديد، أولئك الأشرار الّذين يموتون بأنفة أحقّ بالاحترام من هؤلاء الملاعين.

-ستقضي على العالم توقّف... لديّ شيء تريده بشدّة!

لم يكن مجرّد فردٍ من مخلوقات الأدفل، بل كانَ هذا الرّجاء والتوسّل خارجا من سيّد هذه المخلوقات الملك أسميد، استطاعَ أقمد معرفة ذلك من هيئته وحجمه المختلف، حينَ ذاك أعاد المخلوقات الصّاعقة وأغلقَ قبضَتَه.

-سأجعلكَ تندم إن قلتَ ما قلتَ لتخدعني!

أصيبَ أغلب من على الثّلوج بالإغماء، لم يختبروا طيلة حياتِهم ألما مماثلا، لأوّل مرّة منذ وُجدوا تعرّضوا للهزيمة، حطّ أقمد على الثّلوج متوجّسا مستعدّا لشنّ الهجوم مجدّدا.

-اتبعني...

تبع أقمد الملك أسميد ولم يتخلّ عن حذرِهِ طرفة عين، عيونه وسمعه والثّقوب الحراريّة في جسده تلتقط أيّ شيء وكلّ شيء، هو يعلمُ ممّا روي له خبثَ هذه المخلوقات ومقدرتَها على تحويل الهزيمة إلى نصر وبراعتَها في التّفاوض... أخيرا وصلَ الملك أسميد إلى مكانٍ يشبه الكهف المغلوقَ بصخرة ما، أزاحها بمساعدة بعض جنوده، كانَ المنظرُ مدهشا جدّا بالقدر الّذي لم يتحمّله التنّين الأسطوريّ أقمد، فخرّ جاثما على ركبتيه وظلّ ينظرُ... نظر فحسب لدقائق طويلة جدّا.

كان صوت أريام أهدأ من موسيقى البيانو حين لا يوجدُ غيرها، تلك الموسيقى الّتي تجعلُ السّامعين يصمتون ويسرّون صوتَ أنفاسهم العاليّة ويقاومون رغبتهم الملحّة في التّصفيق، صرتُ مستعدّا لدوس كلّ الأفكار الّتي تدبّ في رأسي والنّوم، ومستعدّ لتجاهلِ الجوع الّذي يتضخّم صوتُه في أمعائي كلّما توغّلتُ في ساعات اللّيل أكثر، ما أشدّ حاجتي إلى أطباق السّيّدة مخطاري وهي تتذكّرني بنصيب من عشائها وفطورها وترسِلُ به إلي عن طريق ابنها، غالبا ما أدركُ أيّ طعامٍ حضّرتْه قبل حتّى أن يطرق ابنها بابي، فنافذتها هي الأقرب إلى غرفتي مقارنة ببقيّة الجيران الّذين أجّرتُ البيت لهمْ، لقد أصبحت كلّ عائلتي في وقتٍ وجيز، استمعت لي وحاولت التّخفيف عنّي يومَ تخلّت عنّي إيمان وأخبرتني أنّها لم تعدْ تستمرّ في هذه العلاقة، أخبرتُها كلّ شيء وهي تتأمّلني بعينيها الكبيرتين البنّيّتين، لم تكنْ تهتمّ كثيرا بمظهرها ولعلّ أبرز ما يدلّ على ذلك لجوؤها إلى قصّ شعرِها القليل التجعّد ليسهل عليها تمشيطه ثم جمعهُ إلى الخلف بشريط خاصّ بالشّعر ولم يهمّها أن يبرز هذا جبهتها العريضة، كانَت أقربَ إلى السّمنة منها إلى النّحافة وحلقُها قليلُ التدلّي لكنّه يعلنُ بوضوح أنّها لم تعدْ شابّة كالسّابق، تعرّفتُ عليها في السّنة الثّانية بعدَ تخرّجي أي قبل عام من فراقِ إيمان، ساعدتُها حينَها على استعادة حياتِها والحصول على عمل، تحسّنتْ أحوالُها بسرعة خلال سنة وكانتْ سببا مباشرا في انتقالي للعيش في المجر، فقد حصلتُ بمساعدةِ أحدِ الّذين تعرفهم على إقامة سياحيّة هناك، ثمّ ما لبثتُ أن بدأتُ تعلّم اللّغة الهنغارية (magyar nyelv) إلى درجة الإتقان بينما أعملُ حارسا في إحدى المتاجر الكبيرة ببودابست، ما مكّنني من العمل بعدها في إحدى الشّركات بمدينة بودابست كمترجم، ومن حينِها صار تمثال إمري ناجي صديقي الوحيد هناك...

لم تكنْ أريام مستعدّة للنّوم اللّيلة، لقد جفاها بعدَ أن أيقظتُها وهي على بابِه، لعلّها جرحتْ كبرياءه كأيّ مضيفٍ يفتحُ لها بابَه داعيا ثمّ تستنكفُ عنه، ما باليدِ حيلة سأسانِدُها وأنازلُه إلى أن يتمكّن من جفنيّ المتثاقلين سلفا.

-حسنا عزيزي سأكملُ لك القصّة...

الفصل الثّامن عشر

لم يستطع أقمد أن يحرّك ساكنا برؤيته ما يوجَدُ داخلَ الكهف، لا لم يكن كهفا بل مجرّدَ بابٍ سرّيّ للجزء المخفيّ من أرضِ الأدفل، خالٍ من الثّلوج ومعتدل الجوّ، ليس هذا ما أدهش أقمد، بل العجيب أنّه كانت هناك العديد من التّنانين تطير محلّقة في الأرجاء أو تنامُ بهدوءٍ وسلام.

قاطع أسميد ملكُ الأدفل دهشتَهُ قائلا:

–هذه التّنانين الّتي جاءت من أرضكم وظنّ الجميع أنّه قضي عليها، في الواقع عاشت هنا بسلام طيلة السّنوات الماضية.

– لم تفعلونَ هذا؟ لم لمْ تقضوا عليها فحسب؟

–على عكسِ ما يشاعُ عنّا، نحنُ مخلوقاتٌ مسالمة لا تحبّ الحرب، كلّ ما قمنا به هو الدّفاع عن أراضينا، لم يسبق لنا التهجّم على شعبٍ ما.

–كيف تقولُ هذا وقد تجرّأتم على اختطاف شعلة أرض التّنانين؟

–الشّعلة ليست لهم، إنّما هم من قاموا بسرقتِها من الفزّاعة.

–كيف حصل هذا؟

–يبدو أنّ اضطلاعك ضيّق جدّا، هذا غريبٌ بالنّسبة لملك التّنانين الأسطوري، على كلّ حال... في زمن غابر من الأزمان، قبلَ تواجدِ معظمِ المخلوقات، خانَ العفريتُ الأوّل موايَ أخاه الشيطان أولمك وتزاوج مع الفزّاعة ترڤو الّتي كان يهيم أولمك فيها حبّا، حينَها لمْ يتمالكْ أولمك نفسَه وقرّر الانتقام من أخيه موايَ، في هذه الأثناء كانَ موايَ قد غادر العالم وتحوّل إلى حجر وبقيت الفزّاعة ترڤو تحتَ رحمة أولمك يعذّبها كيفَ يشاء، كانتْ هنالك في السّجن رفقة أبنائها المعروفين بالدّمى السّاحرة، ذاتَ يوم جاء غريبٌ إليها وفتَح باب السّجن وأحضرَ معه الشّعلة الّتي تراها، لقد أخبرَها أنّه هنا لإنقاذها وإنقاذ العالم، فبمجرّد اختفاء "شعلة الشّيطان" ستختفي قوّة أولمك الّذي يستعدّ لتدمير العالم العلوي عمّا قريب، حملتِ الفزّاعة–أمينة كتاب التّعاويذ– الدّمى والشّعلة وهربت من الباب الّذي كانَ يحرسُه العفريت العظيم "آبانوخ" قبل أن يُنفى، بعدَ دخولِها الأرض الوسطى قصدت كلّ الأجناس تطلبُ منهم المساعدة وإيواءها، لكنّهم رفضوا وعندَ وصولِها إلى أرض التّنانين الثّائرة، تظاهروا بإيوائها وإكرامها، لكنّهم في الحقيقية كانوا يخطّطون لاختطاف الشّعلة الّتي تحملُها فحسب، لم تملك الفزّاعة القوّة الّتي تردّهم بها، فقدراتُها وقدراتُ الدّمى الّتي تحمِلُها لا تؤثّر سوى في المخلوقات الميتافيزيقية... وهكذا وجدتْ نفسَها مشرّدة مجدّدا تبحثُ عن جنسٍ يضمنُ لها الحماية، إلى أنْ بلغتْ أرضنا... أرض الأدفل، كانتْ مثاليّة جدّا، استقبلناها بسعة خاطر وقالتْ أنّها تريد أن تعقدَ صفقة معنا، طلبتْ منّا الحماية الجسدية وبالمقابل ستحمي أرضناَ من أيّ عدوّ سحريّ كالعفاريت والجان والسّحرة، وافقنا بيدَ أنّه كانَ لديها شرط وحيد وهو أنْ نستعيد الشّعلة من أجلها لسببين، السّبب الأول أنّها لن تكونَ بمأمنٍ هناكَ مع التّنانين الّتي استغلّتها لإنتاج مزيد من الطّاقة وتقوية أجسادها، أما السّبب الثّاني هو أنّ الدّمى السّاحرة لن تصمدَ طويلا في درجة الحرارة المتدنّية هذه، ستحتاجُ لمصدرٍ حراريّ يساَعدُها على الصّمودِ هنا، حينَها فككنا عنها أصفادها "أصفاد النّاب" وعاشت بيننا

مذّاك... هذا سبب مهاجمتنا أرضكم واستعادة شعلة الشّيطان، كانَ ذلك للأفضل فلو وقعت في يد إحدى الجهات المظلمة لربّما انتهى أمر هذا العالم.

– لم أكنْ على دراية بشيء من هذا، عليّ الاعتذار على ما بدرَ منّي، لديّ طلبٌ منكَ أيّها الملك، دعِ التّنانين تعودُ معي إلى المملكة.

فكّرَ أسميد للحظة ثمّ أبدى موافقته شرطَ أن يحفظوا أسرار المملكة وماضيها، حينَها أجابه أڤمد:

–لا عليك، سأستعين بالسّاحرة أريناس لمحو ذاكرتهم، إنّها صديقة قديمة لي ولن تعارض.

بدا التّعجّب واضحا على وجه الملك أسميد، نظرَ قليلا إلى أڤمد ثمّ قال:

أريد أن أطلعك على شيء ما، السّاحرة أريناس –إن كنّا نقصد نفس الشّخص–أتقولُ أنّكما صديقان؟

–نعم بالتّأكيد أنقذنا العوالم من الاندثار مرّة.

–لا تثق بها مهما حصل!

كلامُ أسميد كانَ مفاجئا جدّا، أڤمد يعرفُ أريناس تمام المعرفة وخاضا سويّا معارك حياة أو موت، لم يستوعب ما قاله له أسميد للتوّ، واصلَ الملك كلامه قائلا:

–أريناس... السّاحرة أريناس استعانتْ بقوى مظلمة منذ زمنٍ بعيد، القدامى يعلمون أنّها تحصّلت عليها من الشّيطان أوملك، ما مكّنها من العيش لقرونٍ عديدة ولازالت تحتفظ بشبابها!

في هذه الأثناء تبادرت إلى أڤمد ذكريات قديمة، تذكّر ولَه العفريت حمّو–قيّو بها وكيف أنّ ذلك يعود لقرونٍ بعيدة، تذكّر قدرتَها ومعرفتها الكبيرتين، أدركَ أنّ قربَه منها منعَهُ من رؤية الصّورة الكاملة، ربّما ليست حقّا طيبة كما ظنّ دائما، خاصّة وأنّها تريدُ بشدّة القضاء على قوم الأدفل الطيّبين والفزّاعة ترڤو المظلومة وأبنائها الدّمى السّاحرة، واصل الملك قائلا:

–أريناس كانتْ على دراية تامّة بقدوم الفزّاعة إلى هذا العالم، لذلك دلّتها على أرضنا مقابلَ التخلّي عن كتاب التّعاويذ، أعطت الفزّاعةُ كتابا مزيّفا للسّاحرة لأنّها أدركتْ أنّها تهدفُ إلى شيء سيّء، لذلك غضبت وعقدتْ صفقة أخرى مع التّنانين الّذين تظاهروا بإيواء الفزّاعة ثمّ اختطفوا الشّعلة منها قبلَ أن تصلَ إلينا ودلّتهم على الطّريقة الّتي تمكّنهم من استغلال طاقتِها ولم تكفّ يوما عن محاولة غزونا، أمّا نحنُ –يا سيّد التنانين–أڤمد نستعمِلُ الشّعلة من أجل الحفاظ على حياة التّنانين والدّمى ونحميها من الأشرار.

–لكن لماذا تريدُ أريناس أن تحتفظَ التّنانينُ بالشّعلة؟

–الأمر واضحٌ جدّا! لأنّ التّنانين ضعيفة... الشّيطانُ أوملك يخطّط للعودة، سمعتُ إشاعات تقولُ أنّه وجد طريقة لنقل الشّعلة مجدّدا عبر باب العالم السّفلي المحروس من طرفِ العفريت الرّوح أغوليد الآن، رغمَ صعوبة ذلك إن لم أقل استحالته، لكن إن حصلَ ذلك فسيكون من الأفضل لهم تواجد الشعلة لدى التّنانين، لأنّه من الصّعب جدّا اختراق أرضنا... أرض الأدفل.

فهم أڤمد الآن كلّ شيء، بالقضاء على الأدفل والدّمى ستتمكّن كل الأرواح والمخلوقات الخارقة من ولوج هذه البقعة وبالتّالي ستتمكّن أريناس من استعادة الشّعلة وإعادتِها بطريقة ما إلى العالمِ السّفلي أينَ سيكون الشّيطان أوملك في انتظارِها ليستعيد قدرته على غزو العالم والانتقام منه، حينَها شعرَ كأنّ صاعقة نزلت عليه، كانَ على وشكِ إفساد كلّ شيء، لقد تلاعبتْ به أريناس ولن يغفر لها ذلك.

...

حاصدُ اللّيل وددّان وحدَهما كانا شرّين كافيين لإهلاك العوالم، لقد هربا منذُ زمنٍ عبرَ باب العالم السّفليّ، لقد ساعدَهما أحدهم على ذلك، في الواقع كانتْ أريناس من قدّم لهما المساعدة، ما كانَ أحدٌ ليتوقّع هذا، كيفَ يُعقلُ للسّاحرة أريناس أن تنقذ العالم ثمّ تجلبَ إليه من سيدمّرونه؟ يبدو أنّ علاقتَها بالعالمِ السّفلي وطيدة جدّا، أعطاها أولمك حياة أبديّة وبالمقابل صارتْ تمهّد لخروجِه والقضاء على العوالم، لكن ما فائدة أن تعيشَ وحيدة؟ ما معنى التّرف في عالمٍ ليسَ فيه فقراء؟ لا بدّ أنّ السّاحرة العظمى أريناس وجدتْ ضالّتها في شيء ما يجهله الجميع.

...

بعدَ أنْ استوعبت الرّوح الشّريرة لحاصد اللّيل الحقد الّذي كانَ في قلب بريغيل أخِ البعوضة توشوشت، فُكّ عن الحاصد قيدُه وسيبدأ عمّا قريب مراسيمَ إحلال العالمِ في ظلامٍ دامس، سيقومُ على رأسه ويشعلُه بالكراهية، ددّان أيضا ستكون مستفيدة حينَ تروي تعطّشها بالدّماء الّتي ستراقُ قريبا، لكنّ شيئا لم يكنْ في الحسبان كانَ يحصلُ في هذه الأثناء.

-للبعوضة ثلاثةُ قلوبٍ أيّها الأحمقْ!

غادرَ حاصد اللّيل كهفَه تاركا البعوضة أخ توشوشت هناك، ظنّ أنّه قُضي عليه بعدَ أنْ انفجر قلبه، لكنّ القلبَ الّذي انفجر هو ذاك الّذي كانَ يحملُ الحقدَ اتّجاهَ أثمد، حاصدُ اللّيل باستطاعته استشعار القلوب الّتي تحمل الحقد فحسب، لذلك خال أنّ بريغيل قد هلك، حملَ بريغيل كتابَ التّعاويذ وفرّ من هناك حالا عائدا إلى منزلِه، حرّر السّجناء وحمل والدَيْ توشوشت إضافة إلى والدتَه وهربَ فورا ثمّ اختفوا في مكانٍ لا يعرفُه أحد، حاصدُ اللّيل الآن في ورطة، لن يستطيع إكمالَ مراسيم الظّلام الدّامس دونَ كتابِ التّعاويذ الّذي استخلصَهُ من قلبِ الفزّاعة منذُ قرونٍ عديدة واحتفظَ به لنفسِه، كما أنّه إلى حدّ السّاعة يجهلُ أنّ المصل الّذي يمتلكهُ ينقصُهُ دماء الزّواحف النقيّة.

المقاعد المظلمة

اتّصلتْ بي دار النّشر في الصّباح الباكر، فتحتُ عينيّ على المصباح الأصفر المتدلّي من السّقف الأصفر كساق نبتة يشقّ الأرض من حولِه، لطالما كرهتُ هذا اللّونَ، كنتُ أظنّ هذا الكره متعلّقا بذوقي الخاصّ، لكنّي غيّرتُ رأيي لما علمتُ أنّ معظمَ أقراني بمدينة بشّار كانوا يشاركونني هذا الذّوق وتوصّلتُ إلى أنّ مردّ هذا الكره هو انتماؤنا إلى الصّحراء، فأغلبُ الإدارات اتّخذتْ هذا اللّون زيّا لها ما انتزعَ التّباين من شوارع المدينة انتزاعا وجعلَها تبدو في موسمِ الحرّ تتمايلُ كالسّراب.

لم أذكر متى نمتُ بالتّحديد فقد تمكّن منّي النّعاس أثناء مكالمة أريام، وها أنا أضطرّ للنّهوض كسلانا وما كادتْ تقوم لي قائمة لولا الحماس الّذي بدء يصبّ مفعولَه في دمائي، طلب منّي النّاشر القدومَ من أجل أمورٍ تنظيميّة، سيتوافد الزّبائن قريبا وعلى كلّ الأمور أن تكونَ مضبوطة بحلول ذلك الوقت، من شدّة عجلتي نسيتُ أمر يسرى وصديقتِها سلمى تماما، لقدْ وعدتُّهما بالمساعدة ونسيتُ أخذ رقمِ إحداهُما على الأقلّ، إن اتصلت بهما على الفايسبوك سيُفضح كلّ شيء وسأفسِد بذلك المفاجأة الّتي أعدّها لهما، لا بأس... ستتفهمان الأمر وسأعوضّهما عن ذلك.

كانَ المعرضُ كبيرا جدّا، كتابي يبدو مجرّد كتابٍ هنا، رأيتُ أغلفة أجملَ من غلافِه، لمَ أنا وقحٌ جدّا لأظنّ أنّ نصوصَه ستكون الأفضل؟ أخشى أن الشّيء الوحيدَ الّذي يميّزه هو نظرتي إليه، أخشى أن يختفي بريقُه وسط سطوع البقيّة، إنّه كالصّوتِ الأجملِ في الدّنيا حينَ يختلطُ بأصواتٍ كثيرة أو يغلبُ عليه عزف الجوقة المرافقة، لن يندثر جمالُهُ لكنّه سيحتجب، في لحظة ما تمنّيتُ أن أكونَ كتابا، أن يحتفظَ بصورتي عدد كبيرٌ من الأشخاص في هواتِفهم بينما لا أحتفظ بصورة لأيّ منهم ولا أعرف لهم عنوانا، لقد قضيتُ ثلاثة أشهر في تأليفه، قطعت رُبعَ دورة حولَ الشّمس جالسا أمام حاسوبي، إنّه مولودي الّذي حملتُهُ داخلي ربع سنة وفُطمَ خلال ربعٍ آخر لأتشاركه مع العالم، ما يفوق المئتيْ صفحة لأقول أمرا واحدا: "الإنسان يتغيّر دونَ أن يشعر يا سادة!"

بعدَ تعيين الرّكن الّذي سأجلسُ فيه وإعلامي عن كيفيّة سير الأمور الخاصّة بعمليّة التّوقيع، بدأت الوفودُ تتوالى بجناح الأهقّار، أغلبُهم كانَ يلقي نظره متفحّصة على الكتاب، يتأمّل صورة تمثال موايّ الّتي وحدَها تحكي ألفَ حكاية دونَ الولوج إلى ما بعد الغلاف، كنتُ أسمَعُ نظراتَهم تقول منبهرة: "اختيار موفّق، يا له من ذوق!"

لعلّني كنتُ أرضي غروري وأقولُ لنفسي ما أتمنّى سماَعه وأبحثُ في عيونِهم عن الدّليل كي أصدّق نفسي. مع حملِ عددٍ كبيرٍ لروايتي، التحق آخرون من أجلِ الاضطلاع على هذا الأمر الّذي استدعى الاهتمام، واقع مؤسف... للحصولِ على جمهور عليك الحصول على جمهورٍ أوّلا وإلّا ماتَ إبداعُك في رفّ منسيّ.

بعدها توافَد كثيرون على طاولتي طالبين توقيعي، بعضُهم كانَ يعرفني وحيّاني بحرارة وأثنى على عملي، كانوا معجبين وكنتُ منبهرا، كانوا عارفين بي وكنتُ أجهلهم، كانوا على المقاعد المظلمة يتفرّجون وكنتُ العاري على خشبة المسرح... إنّها إرهاصات الشّهرة، لن يطلبوا منّي أكثر ممّا أقدّمه لهم ولن يرفضوا أيضا شيئا منه، حينها أدركتُ أنّ الأمرَ بات حقيقة.

نظرتُ إلى السّماء مبتسما وقلت: " مجدّدا... صدقتِ يا إيمان!"

أخيرا... أبصرتُ سلمى مقبلة ومعها يسرى على الكرسيّ، هما بدورِهما أبصرتاني، أخرجتُ النّسخة الّتي احتفظتُ بها من أجلِ يسرى ورحتُ أكتبُ عليها الإهداء وتمنّياتي بالشّفاء لها، في هذه الأثناء وقفَ على طاولتي أحدُهم قائلا:

-من الصّعب العثور عليك!

لم أستطعِ التّعرّف على صاحب الصّوت، كنتُ متأكّدا أنّي لم أسمعهُ من قبل، رفعتُ نظاراتي على مضض لأرى ذاك الوجهَ المألوفَ جدّا، إنّه "عليّ " صديق إيمان، حبيبتي إيمان! شعرتُ بكومة من الغضب والألم تصفعانني تلطمان وجهي بقسوة، لم يكن آخر شخصٍ أتوقّع رؤيته بل أوّل شخص أتوقعُ عدمها، تمالكتُ دهشتي وغضبي وأجبته:

-ومن الصّعب ألا يلتقيك المرء!

في هذه الأثناء كانتْ يسرى وسلمى تقفان عند طاولتي بالمعرض، كنتُ أنظرُ إليهما أحيانا لكن لا أراهُما، كلّ ما استطعتُ رؤيتَه هو عليّ، تواجهتْ نظراتُنا المليئة بالتحدّي، ماتتْ إيمان ولا زلنا خصمين كالسّابق، هذا أشبه بالسّيف الّذي يبترُ إصبعَ أحدهم، قد يندثر السّيف من الوجود ولن يعودَ الإصبع إلى مكانه باندثاره، علاقتي بعليّ كانتْ أسوء من ذلك حتّى، في لحظة ما تخلّى عن نظرتِه تلك وقالَ لي:

-أحتاجُك في أمر مهمّ!

-أعتذر! أنا مشغولٌ كما ترى.

-الأمر يتعلّقُ بإيمان...

اهتزّ قلبي كما في كلّ مرّة يُذكر فيها اسمها أمامي، تملّكتني الرّغبة في معرفة هذا الأمر الّذي يخصّها، كبريائي منعني من قبول الحديث إليه قبلَ أن يقاطعني واضعا بطاقة معلوماته على الطّاولة ويرحلَ قائلا:

-اتّصل بي من فضلك، الأمر مهمّ للغاية!

المقدّمة

عادتْ يسرى وسلمى إلى الدّيار مجدّدا، لم يطل بقاؤهما ولم تقرآ أيّة عناوين خلال زيارتِهما للمعرض الّتي دامتْ بضع دقائق، الكاتب الأحمق المغرور أفسدَ كلّ شيء، كسرَ قلبَ يسرى المريض سلفا، لا بدّ أنّ هذا كان رأيهما بي، الأمل والتّفاؤل ساعداها على العيش رغمَ المرض، لكنّ هذا الانهيار قد يكلّفها حياتَها، أرادتْ جوابا وقد حصلت عليه، كلّ ما كتبَه في روايتيه هو المثاليّة في أجمل صورِها، دقيقة من الوقوف معه محقتْ كلّ تطلّعاتها وأفكارِها الجميلة، فضّلت سلمى أن تبيت ليلتَها معها خوفا عليها، قصّت عليها بعض النّكتِ لتخفيف وطأة الصّدمة...

في الصّباح تلقّت سلمى رسالة نصّيّة من الكاتب...

-المغرور... الوقح، يقولُ أنّه يعتذر على ما بدر منه و....

خطفتْ يسرى من يد سلمى الهاتفَ في خطوة مفاجئة منها، يسرى صاحبة الكبرياء والأنفة تخلّت عن ذلك للتوّ متلهّفة لقراءة الرّسالة، يبدو أنّها تقبّلت اعتذاره!

-قولي له أنّي قبلتُ اعتذاره شرط أن يضيفني على حسابه.

فعلتْ سلمى ذلك مستغربة كلّ الاستغراب، هل هذه حقّا يسرى؟

-يقول أنّه بعثَ إليك بطلب صداقة...

قبلتْ يسرى طلبَ الصّداقة وفي الحينَ بعثت برسالتِها إليه:

"حينَ نبدأ نحدّد النّهاية الّتي نودّ الوصول إليها، لكنّ النّهاية وجهة وليست نقطة، فخلال اقتحامِنا معترك الأحداث تتشعّب بنا السّبل كلّ منها يتجاذبنا لنهايته الخاصّة الّتي تشبه تلك الّتي نريدُها، يحدثُ أثناءها أن تعجبنا إحداها وينتهي بنا الأمر إلى نهاية قريبة من الّتي نريدُها، هل حصلَ أقمد على نهايتِه التي يريدها؟ بل هل حصلَ على واحدة قريبة منها حتّى؟ لا أدري لكنّ أظنّ أنّ أحمد فعلَ ذلك بإيجاده ميلين والزّواج بها، لا بدّ أنّ ما كتبتَهُ هو ملخّص الحياة، هو كمقدّمة قصيرة لكنّ المقدّمة لا تقدّم الكتاب فعلا، كما أنّ ملخّص الكتاب ليس الكتاب، إنّه بمثابة عنوان من كلمتين لنصّ بمليون كلمة، قرأتُ كتابك وداخلي داعٍ وحيد للشّعور بالرّضا، يتعلّق الأمر بإجابتك عن سؤالي: "هل قصّة أحمد وميلين حقيقيّة؟"

حينها سقطتْ يسرى مغمى عليها وتعالت صرخات سلمى قبلَ أن تنضمّ بقيّة العائلة، حملَها أبوها على ذراعيه جثّة هامدة! على الأقل استطاعتْ أن تطرحَ السّؤال الّذي أرادتْ دوما طرحه وهي لا تدري هلْ كانَ شغفُها بالسّؤال أم بجوابه!؟

لا يزال ينبض!

سعى عليّ كثيرا للّتواصل معي منذ علمتُ بوفاة إيمان، حتّى أنّه اتّصل بي من رقمها في محاولة يائسة خلال الأيّام الماضية، وانتهى به الأمر إلى بعثِ رسالة نصّيّة يخبرني فيها أنّه المتّصل لكنّي تجاهلته تماما، بل وأوّلتُ نيّتَه الّتي دعتْهُ إلى ذلك بأنّه يريدُ إغاظتي أكثر باستعمال رقمِها، لكنّي لم أكنْ لأجيب على الاتّصالات، تطلّب منهُ الأمرُ ملاحقتَي والوصولَ إليّ أخيرا في معرض الكتاب أينَ كانَت تُعرضُ روايتي للبيع بالتّوقيع، عادَ إلى المنزلِ مساء آملا في أن أتواصلَ معه قريبا، فلم يعدْ بإمكانه التّماطل أكثر من أجلِ إيمان، في آخر مرّة كانا معا على الجسر قرب كاتدرائية كولونيا، جعلَتْهُ إيمان يعدُها ببذلِ قصارى جهده لإنجاح الخطّة، قال لها يومها:

-ليت طريقا مختلفة جمعتني بك، لكنتُ أسعد البشر بجوارك.

-لو أعطيتَ قلما لأيّ شخصٍ وطلبتَ منهُ رسمَ طريقه فلنْ يرسمَ غير الطّريق الّتي مرّ منها، علينا أن نسعدَ بما لدينا.

-وماذا إن لم يعدْ لدينا؟

-حينها يجب علينا نسيان الأسباب الّتي اشترطناها داخلنا للسّعادة وإيجاد أسبابٍ غيرها... أتظنّ أنّ للسّعادة حدودا؟

-لكلّ شخصٍ فضاءٌ يسبحُ فيه وهو وحدَه يحدّد حدودَه.

قالت وهي تقصدُ حبيبها السّابق:

-كان يقولُ دائما أنّي والكتابة مبلغ حدود سعادته، خربشات مضمومة ومشاعر مكسورة وأحلام منصوبة وخيبات مجرورة وذاكرة مسكونة، هكذا كانَ يستعملُ الآلام كحقنة تيسّر ميلاد كلماتِه.

مرّت مدّة على هذا اللّقاء، بعده مرضتْ إيمان بشدّة ونامتْ على فراش المستشفى طويلا كانتْ آخرُ وصاياها لعليّ: "عدني بأنّك ستفعلُ ذلك!".

وعدهُ الذي قطعه لها هو السّبب الوحيد الّذي جعله يتجاوز كبرياءه ويجلسَ معي على مائدة واحدة في المقهى، بعد أن تواصلتُ معَه لأنّ الأمر يتعلّق بإيمان بطريقة ما، هناك أينَ كانَ يحملُ لي المفاجأة.

تملّكتني الحيرة، هل أوصت لي إيمان بإرثٍ ما مثلا؟ أم أنّها لا تزال حيّة، لا لا مستحيل، الكلّ يعلم أنّها ماتت منذ مدّة، بعدَ استفاقتي من شرودي بحثتُ عن يسرى وسلمى فلم أجدهما، تذكّرت الآن! كأنّي سمعتُهما تكلّمانني وتقدّمان نفسيهما، لكنّي كنتُ مأخوذا حينَها بعيدا، بدتا شبيهتين بتلك الأصواتِ الّتي تتسرّب إلى أحلامِنا وتندمِجُ معها بدلالات مختلفة ثمّ ندرك بعدَ استفاقتنا أنّها حقيقية، تبّا لي أفسدتُ كلّ شيء، لم تعد بوسعي رؤيتُهما لقد رحلتا الآن.

بقيّة أحداثِ اليومِ لم تعدْ مهمّة بالنّسبة لي، أمرانِ ينتقصان من الفرحة، قصرُها والفرحة الأكبر منها، عدتُ إلى غرفتي بالفندق في نهاية اليوم وأوّل أمر اعتزمتُ القيام به هو الاعتذار من يسرى وسلمى ومصالحتُهما، المبالغة في العناية بالتّفاصيل يفسدُ جوهرَ الأمر في كثير من الأحيان، كانَ عليّ اخبارُهما بأنّي الكاتب الّذي تبحثان عنه في أول لقاء لنا عند الدّرج، فات الأوان سأكلّم سلمى لاحقا على حساب الفايسبوك، أمّا الآن سأتّصلُ بأريام، ما زلتُ أشعُر بالذّهول من هذا الوضع المفاجئ، هل حقّا من الممكن من رؤيتِها مرّة أخرى؟ لا هذا مستحيل، ماذا يريد عليّ منّي؟ لا أريد التّفكير في أيّ شيء الآن، أحتاجُ لسماعِ بقيّة القصّة وأندمج فيه، الخيال... المكانُ الوحيد الّذي لم يخذلني يوما إذا التجأت إليه، كنتُ أخترعُ ما أشاء وأحصل على كلّ ما أريد، لي سرير هناكَ يعجّ بالأحلام ومقهى ينتظرني فيه كلّ الّذين أحبّهم، لا يبرحونَ مكانَهم إلى أنْ أزورَهم مجدّدا، لي هناكَ ثلّاجة فيها كلّ الأطعمة الّتي أشتهيها ولي بحرٌ أسبحُ فيه وأقطعه بالغا كلّ الأماكنِ البعيدة، لي هناكَ عرشٌ وخدم وحشم ولي خلوة محاطة كلّيّا بالزّجاج الشّفّاف في الغابة المطيرة، أستمتعُ بالعواصفِ والأمطار من داخِلها الدّافئ... وأسخرُ من جبروت الطّبيعة.

كانتْ في انتظار اتّصالي، اطمأنّت على حالي وعدّلتُ نبرتي ومزاجي على طول الموجة الّذي اعتادتْ عليه، أخشى أن ترهقني بالأسئلة، ليسَ ذاك لأنّ أسئلتها صعبة فحسب بل لأنّي لا أملكُ أجوبة مناسبة ولا وصفا لما أشعرُ به، الأمر بديهيّ فحسب، كي يصفُ المرءُ لونا لم يرهُ غيرُه في عالمٍ آخر؟ ما عددُ الأصواتِ الّتي تحفظها ذاكرتنا وتعجزُ حناجِرنا عن تأديتِها؟ كم نحنُ مخلوقاتٌ غريبة! نلتقط ما لا يمكننا تأديته ونؤدّي أحيانا ما لا يمكننا إعادتُه، كخطابٍ ملهمٍ يخرجُ من تلقائه مرّة خلال مشوارٍ بأكمله وكأغنية سحرتْ العقول لكنّها كانتْ الوحيدة طيلة مسيرة بأكمَلها.

-كيفَ حالكِ اليوم؟ خلتكِ نائمة الآن.

-إذا لا بدّ أن خيالك واسع جدّا، ما كنتُ لأنام قبلَ اتّصالك، كيفَ سارتِ الأمور اليوم؟

-بخير، كانَ عدد المبيعات كبيرا والتقيتُ بكثير من الأشخاص الّذين قرأوا لي سابقا، لم أتوقّع نجاحا مماثلا.

-مبروك، إنّه النّوع الجيّد من الأمور الّتي لا نتوقّعها.

-وما هو النّوع الآخر؟

-النّوع الّذي لا تريدُ التّحدّث عنه!

يبدو أنّي فشلت، لقد تحسّست الانزعاج الّذي في صوتي، حينها غيّرتُ الموضوع مباشرة، هي غير مدركة أصلا أنّي أعرفُ حبيبَها السّابق عليّ، إن علمتْ بذلك فسيكون عليّ توضيح الكثير من الأمور

لها، لا يمكن تخيّل بشريّ عاري النّفس، هنالكَ مزيدٌ من الأسرار دوما، أليسَ هذا سبب اختراع كلمة السرّ؟

السّبيل الوحيد لتغيير الموضوع هو إدخالُ أريام في نقاش فلسفي والابتعاد عن جوهر سؤالها، لم يكن بوسعها مقاومة الانجراف رغمَ علمِها بنيّتي الأساسية في الابتعاد قدر الإمكان عن الإجابة، كطفلٍ يسمَحُ لك بخداعهِ ما دام الثّمن عملة نقديّة.

-إرادتنا ليست المقياس الوحيد، معظمُ الأمور المثمرة نقومُ بها قسرا، الأمر نفسُه بالنّسبة للأمور الّتي لا نريدُها وتقترفنا رغمَ ذلك، كبعض الذّكريات بنوعيها.

-نوعاها؟

-نعم، الّتي عشناها والّتي لم نعشها.

-قرأتُ أمرا مشابها في كتاب "همس بين غيمتين" حين قالت الكاتبة[3]:

"نتنبأ بالأخطاء ونصحّحها بأن نمحوها، لذلك لم نلتقِ، لذلك لم نكنْ، لذلك... ذكرياتُنا لم تأتِ بعد؟"

أردفتْ قائلة:

-أعتقدُ أنّ هناكَ نوعا آخر من الذّكريات يمكنُ إضافتُه إلى ما ذكرت.

-وما هو؟

-الذّكريات الّتي لن تأتي يوما!

فكرانا... أنا وأريام كانا متشابهين جدّا، أذكرُ أنّها ذاتَ يوم قالتْ لي:

-أنا وأنت واحد.

-إن كنّا واحدا فهل هذا يعني أنّه في وقتٍ ما كانَ على كلينا التّنازل عن نصفهِ أو بعضه لنتلاءم؟ إن كانَ الأمر كذلك فوحدتُنا تدلّ على اختلافنا وتكاملنا لا تشابهنا.

-طبعا لن تدلّ على تشابُهنا ككلّ، لكنْ تشابه الحواف الّتي تتلاحم.

-حوافُ ماذا؟

-حوافُّ الرّوح... قد نختلفُ في كلّ شيء ولا نتشابه إلّا في أمر واحد وهو نفسُهُ الأمرُ الّي يجعلنا نتقبّل من بعضنا كلّ شيء، فمثلا كثيرا ما يجمعُ العملُ الأشخاص المختلفين ويجعلهم متقبّلين لبعضهم.

-معك حقّ، علينا أن نختلفَ ليتعرّى التشابه الكامنُ بيننا، مثلما يبدي تشابُهُ الأشخاص الاختلاف بينهم، لأنّه حينَها ستصبحُ نقاط الاختلاف معدودة وجليّة...

طلبتُ من أريام بعدَها أن تحكيَ لي بقيّة القصّة، حتّى لا نعودَ إلى موضوع أحداث المعرض الّتي أخفيها عنها... ماذا حدث مع أقمد بعدَ أن أدركَ أنّ السّاحرة أريناس متواطئة في الشّرّ الحاصل والقوى المظلمة، ماذا حدث للبعوضة بريغيل وأمّه بعدَ اختفائهما وماذا سيفعلُ حاصدُ اللّيل دون كتاب التّعاويذ؟ هل سيقف الّشيطان أولمك مكتوفَ اليدين وحاملا الانتقامَ داخلَه؟ وماذا عن النّاسك بجزيرة القيامة؟ من هو وما قصّته وما الدّور الّذي سيلعبهُ في القصّة؟

---

[3]للكاتبة رحمة بن مدربل

الفصل التاسع عشر

لم يكنْ على حاصدِ اللّيل إلّا صلبُ الرّوح البيضاء داخلِه على شجرة البان العملاقة، بعدها سينتظرُ الساعة المخفيّة، تلكَ السّاعة الّتي يلامسُ فيها القمر المكتملُ الشّفق في كلّ سنة، نادرة هي المخلوقات الّتي تعرفُ موعِدها، حتّى أعتى السّحرة لم يتمكّنوا يوما من ذلك، لكنّ حاصد اللّيل يعرف أنّها تتزامن مع غناء تمثال مواي مرّة كلّ سنة، لقدْ أخبرتْهُ أريناس ذاتَ قرنٍ عن نبوءة ما، فحواها أنّ تمثال العفريت الأوّل مواي ستعود إليه الرّوح في هذه السّاعة، لكنْ ما لمْ تعلَمْه هو أنَّ شخصا آخرَ أعطاهُ مزيدا من المعلومات الخطيرة وأخبرَه المزيدَ عن هذه السّاعة الّتي تمارسُ فيها كلّ الطّقوس الخارقة، فيها تولدُ أنواع جديدة في العالم وتلجُه مخلوقات أخرى مجهولة، تُفتَحُ البوّابة الزّمكانيّة مرّة كلّ سنة، هناكَ أين يوجدُ ذاكَ الهامشُ الرّفيع بين العوالم الباقية والفانية، ثمت شخصٌ وحيدٌ استطاعَ أن يعودَ منها بعدَ مغادرته العوالم الباقية وهو العفريت "أغوليد"، بعدَ أن ساعدتهُ الأرواح في ذلك، لكنّ أيّ شيء يعود من هناكَ يعودُ مختلفا، تتغيّر طبيعته وهيأته وليسَ حفاظُهُ على قلبِه بالأمر المضمون، عاد أغوليد لكنّه عاد كروحٍ مضيئة تقبعُ وسطَ الجبالِ تحرسُها، لطالما عاشت العوالم الباقية والفانية بجوار بعضِها...

بقيت سبعة أيّام على الموعد، تستلزم الطّقوس أن تصلبَ الرّوح الطّيبة سبعة أيّام كاملة قبلَ أن تراقَ دماؤها على جذع البان النقيّ، شجرة البان العملاقة الّتي نشأت من البذرة الّتي لم يستسغها أحدُ زعماء أقدم المخلوقات الجبّارة فقامَ ببصقِها على الأرض، البذرة كانتْ الأولى من نوعها ذاتَ خصائص مسحورة، كان باستطاعتِها أن تأخذَ خصائص الأشياء الّتي تتمازج معها، نمت وكبرت انتقاما لنفسِها وحينَ كبرتْ بالقدر الكافي التهمتْ زعيمَ المخلوقات الجبّارة وبصقت عظامَهُ فتطايرت على بعدِ مئات الكيلومترات في إحدى البحيرات، فسرى السّحرُ في مياهها، سحرٌ غريبٌ لا يستجيبُ إلّا للأماني القويّة الّتي يعجزُ أصحابُها عن تحقيقها وتصيبُهم بالحنق، حينَها هدأت الرّوح الّتي تسكن الشّجرة ودخلتْ في سباتٍ عميق... عميق جدّا، تذكرُ النّبوءة أنّها لن تستفيق منْهُ إلى حينَ يحلّ اليومُ الموعود، حينَ تراقُ الدّماء على جذعِها، الدّماء الطّاهرة تبعثُ الشرّ والدّماء الخبيثة تبعثُ الخير، لم يكنْ السّرّ من وراء هذا التّناقض عبثيّا، بل إنّها حكمة كونيّة عميقة، فالشّرّ لم ينتشر إلّا بالتّضحية بالخير والأخيار، كما لن يعودَ الخيرُ إلا بمزيدٍ من التّضحيات... بالقضاء على الشرّ أينما وُجدْ، تركتْ العدالة الكونيّة للمخلوقات حرّية الاختيار وتقرير ما تريده، إذا سمحت المخلوقات لشرذمة فاسدة بالنّيابة عنها فستدفعُ ثمنَ سكوتِها غاليا جدّا.

جنّ جنون حاصدِ اللّيل بعودتِه إلى كهفه رفقة الدّمويّة ددّان، لم يجدْ كتابَ التّعاويذ الّذي استخلصَه بنفسِه من قلب الفزّاعة، شخصٌ ما اهتدى إلى مخبئه وسرقَ الكتاب في غيابه، لن يكونَ مصلُ الدّماء ذا معنى بدون الكتاب، صارتْ لديه سبعة أيّام لاستعادتِه، المشكلة أنّه لم يعدْ بوسعِه رصد الطّيبة ورؤيتهُا في العالم، فبعدَ أن تخلّص البعوضة بريغيل من قلبه المليء بالحقد، صار مستحيلا على حاصد اللّيل رؤيته وإيجاده، خاصّة وأنّ الروحَ البيضاء لحاصد اللّيل انتفت عنه وهي مصلوبة على شجرة البان تنتظرُ إراقة دمائها الآن، أمّا ددّان فليست لها مواهب في رصد الأشخاص، باتت خُططهما الّتي أعدّاها خلال قرون مرهونة بمنعطفات الأيّام القليلة القادمة، هل سيثبتان أم سترميهما بعيدا؟

...

اعتذرَ أقمد من الأدفل ومن الفزّاعة بعدَ أنْ كادَ أن يقتل مخلوقات بريئة لا ذنبَ لها، قرّر التّوجّه نحوَ السّاحرة أريناس ليعاقِبَها جزاءً بما أقدمتْ عليه، لكن بداخلِهِ كانَ يعلمُ أنّه أضعفُ من ذلك، ربّما ما يريدُهُ حقّا هو تفسيرٌ ما، هو يتوقُ لتبرئتها من التّهم المنسوبة إليها، غيرَ أنّه باتَ متأكّدا من أنّها تواطأت من أجلِ جلبِ الشّرّ لهذا العالم، لم تنقذهُ في الماضي إلّا لِيجد الشّيطانُ أولمِك عالما صالحا للانتقام منه، لن يكونَ المقتَصُّ سعيدا بالانتقامِ من جثّة هامدة، متعة الانتقام في سلبِ الآخرين ما يحبّونه وأكثر منه ما يحتاجونه.

طارَ أقمد محلّقا بين المدن المعلّقة بين الغيوم وعبر القرى إلى أن وصلَ إلى المملكة مجدّدا، هناكَ أين باتَ يحظى بكلّ الترحيب بعدَ أوّل زيارة وبعدَ إنقاذه السّاحرة أريناس من قبضة سكّان العالم العلويّ ذاتَ يوم... كعادتِها، كانتْ أريناس على علمٍ بقدومِه، هي مطّلعة على ما يجري في العالم بفضل بلّورتِها "عين تيثريت"، إحدى الأدوات الثّلاثة النّادرة الّتي نتجتْ عن هلاك عظيم المخلوقات الجبّارة الأولى.

-أهلا بسيّد التّنانين الأسطوري.

-يا لكِ من كاذبةٍ لعينة!

-من السّهل التّلاعب بك، أليسَ كذلك؟

-تلاعبتِ بي بسببي ثقتي العمياء فيك، لم يكن ذلك غباء منّي!

-يبدو أنّ حكمتك تضاءلت منذُ أصبحتَ بهذا الشّكل الجديد، ما فائدة ضخامة جسدك إن تقلّص عقلكَ؟ كنتُ أقصِدُ أنّها تلاعبت بكم جميعا.

-من تقصدين؟

-الفزّاعة!

أقمد الثّائر، وجدَ في كلام السّاحرة أريناس بعض العزاء، كانَ يبحثُ عن تفسير ما، أراد بشدّة أن يعلمَ أنّها ليست كما يقولون، لذلك بدا راضيا ومتحمّسا جدّا وهو يسألها:

-كيف ذلك؟

-أخبركَ ملك الأدفل بكلّ صدقٍ بكلّ شيء، كلّ شيء إلّا الحقيقة!

مسحتْ أريناس على بلّورتها "عين تيثريت" حينها دخلَ عالمَ الحقيقة، شاهدَ كلّ الغرائب الّتي لم يرَها أحد يوما، رأى الجبابرة الأولى ورأى أحداث اندثارها، رأى شجرة البان وهي تلتهم زعيمَها وتلفظ عظامه، رأى العفريت الأول موايي والشّيطان أولمك وكلّ ما لا يصدّقه عقل.

-هذا الجزء الّذي لم يرَه أحد، إنّه يشبه الدّودة الّتي تسلّلت إلى لبّ التّفاحة ونخرتها ثمّ تساءل الجميع: "لمَ تبدو التفّاحة عجفاء؟"، تتبادل كلّ من الشّجرة والماء والزّارع الشّتائم، لأنّه لا أحدَ رأى الدّودة حينَ تسلّلت...

-وضّحي أكثر!

–العلاقة بين الفزّاعة والشّيطان أولمك معقّدة نوعا ما، لن يكونَ فهمُها الآن مفيدا على كلّ حال، لقد قامَ النّاسك بمساعدة الفزّاعة على الهروب ويجهلُ الجميعُ طريقة تسلّله إلى السّجن، لكنّ المؤكّد أنّه ليسَ من سكّان العالم السّفلي.

–وكيفَ تعرفين ذلك؟

–لأنّه تمكّن من كسر "أصفاد النّاب" وهي أصفادٌ أوجدها الشّيطان أولمك وبإمكانها قهر كلّ مخلوقات العالم السّفلي... حينَ التقيتُ الفزّاعة ترقو بعدَ هروبها دللتُها على أرضِ الأدفل أينَ ستتلقّى الحماية وسيخلّصونَها من بقيّة الأصفاد الّتي على يديها مقابل إعطائي كتابَ التّعاويذ، لكنّي نظرتُ مجدّدا إلى البلّورة لأكتشف فداحة الخطأ الّذي ارتكبتُه وخداعها لي، حينَها جعلتُ التّنانين تأخذُ الشّعلة منها، لأنّها إن أخذتها إلى أرضِ الأدفل، لن يتمكّن أحدٌ من استرجاعها منها وستنهي مخطّطها، والآن هي تملكُ الشّعلة بجانِبها مجدّدا وستستعملُها في الوقتِ الأنسب لإعادة بعث الشّيطان.

–لحظة لحظة!

–أليستْ هي من سرقَ الشّعلة من الشّيطان؟ فلمَ تستعمِلُها الآن لإعادة أولمك؟

–في الواقع لم تسرِقها منه، إنّما كانَ من سلّمها إيّاها.

بدتْ الحيرة على ملامحِ أقمد، هو حقاّ لم يعد يفهم شيئا، واصلت أريناس حديثها:

–ستستعملُ الفزّاعةُ الشّعلة في السّاعة المخفيّة، لخلق ممرّ عبرَ باب العالمِ السّفلي الّذي يحرسُه العفريتُ أغوليد، ما عليكَ فعلُهُ الآن هو أن تستعيدها منها وتستعمِلها لإيقاظ العفريت الأوّل مجدّدا فوحدَهُ سيتمكّن من إعادة الدّمويّة ددّان أو حاصد اللّيل إلى عالمِهما وإصلاحِ الخلل بالباب السّفلي، هذه كانتْ خطّتي منذ البداية.

–ولمَ حرّرتِ حاصد اللّيل وددّان إن كنتِ صادقة فيما تقولينه؟

–لأنّه وحدَه كانَ بإمكانِه استخلاصُ كتابِ التّعاويذ منها، أمّا ددّان فهي من أقنعته بخططه وساندته، لم أجدْ حلّا غير ذلك، سنهتمّ بأمرهما حين يعود موايَ مجدّدا، كلّ ما عليكَ فعلُه الآن هو استعادة الشّعلة.

– لم لمْ تفعلي ذلك بنفسك حينَ كانتْ الفرصة سانحة؟

–مستحيل! أنا الآن أحيا بالطّاقة المظلمة للعالم السّفلي ويمنَعُ عليّ استعمالها ضدّ سكّانها، لذلك لم يكن بمقدوري أذيّة الفزّاعة.

–قلتِ أنّه عليّ إعادة واحدٍ منهما إلى العالم السّفلي، ماذا بشأن الآخر؟ وكيفَ سأفعلُ ذلك؟ ماذا سيحدث الآن؟

–إن أخبرتك فلن يحدث! كلّ ما أطلبُه منكَ هو الوثوق بي كما فعلت سابقا.

كانَ أقمد مجبرا على تصديقِها، أريناس كانتْ مطلعة على ما جرى وما سيجري، فقبلَ رحيله، لقّنها أبوها العرّاف الّذي كانَ مختبئا في البوّابة الزّمنية كلّ النّبوءات الّتي يعرفها، لذلك هي الشخصُ الوحيدُ الّذي بإمكانه تجنيبُهم شرّ هذه الكيانات المرعبة المتربّصة بالعوالم.

كثيرٌ من الأمورِ كانَ يجهلُها الجميع بمن فيهم السّاحرة العظمى أريناس، النّاسكُ الّذي حرّر الفزّاعة سيكون له شأنٌ عظيمٌ في مستقبل العوالم، لقد حرّر الفزّاعة وأعطاها الشّعلة وساعدَها على الهروب باتّفاقٍ

مسبق مع الشّيطان أولمك، النّاسك صاحب السّرّ العظيم هو نفسُه حارسُ البوّابة الزّمكانية الفاصلة بين عالم الفانين وعالم العالم الآخر، لا أحدَ يتوقّع تصرّفاته الّتي تميلُ إلى مساعدة الأخيار بقدر ميلِها إلى مساعدة الأشرار، حاولتْ أريناس القضاء على أرض الأدفل لتهلكَ الفزّاعة الّتي ترمي —حسب ظنّها– إلى إعادة الشّيطان وتحصُلَ هي على الشّعلة الّتي بفضلها ستعيد بعث العفريت موايِ، كانتْ أريناس تعلَمُ من النّبوءة بأنّها ستفشل، رغمَ ذلك حاولتْ عبثا تغيير مسار الأمور، اضطرّها ذلك إلى الحلّ الوحيد الممكن وهو تحرير ددّان الّتي أقنعت حاصدَ اللّيل بمخطّطه الشّرير، ما دفع حاصد اللّيل لاستخلاص كتاب التّعاويذ من قلب الفزّاعة أمينة الكتاب والوحيدة المطلعة عليه إلى تلك اللّحظة، بفضل الكتاب ومصل الدّماء سيحرّر قواه الكامنة ويأسر العالم تحت ظلاله، بهذه الطّريقة تأكّدت الساحرة أريناس أنّ كتابَ التّعاويذ سيكونُ حاضرا من أجلِ إعادة بعث العفريت موايِ الّذي سيعيد إحلال التّوازن في العالم مجدّدا حسب النّبوءة ذاتِها، هي تعلمُ أنّ الكتابَ سيكونُ حاضرا هناكَ أمام التّماثيل في جزيرة القيامة في الوقت المحدّد ولا تدري كيف.

التبست الأمور لحدّ أصبح فيه التّمييز بين الشّر والخير مستحيلا، تشابكت الخيوط بقدر أصبح التخلّص منها أيسر من محاولة فكّها، هذا هو حال الأمور الآن والكونُ ليسَ راضيا البتّة!

ورقة ممزّقة

روتْ أريام بما يكفي اليوم، تصاعدت الأحداثُ أكثر من أيّ وقتٍ مضى، الشيطان يتّفق مع النّاسك الّذي حرّر الفزّاعة وأعطاها الشعلة قبلَ أن تلتقي حاصد اللّيل ويستخلصَ من صدرِها الكتاب بطريقة أو باتّفاق ما، أريناس تظنّ أنّ الفزّاعة شرّيرة بينَما ليست الفزّاعة إلّا بيدقا يُستعمَلُ من طرفِ الشيطان دونَ أن تشعر، أريناس تساعدُ حاصدَ اللّيل في الفرار لكي تحصلَ بفضلِ قدراته على الكتاب الّذي هي نفسُها لا تدري كيفَ سيصلُ إلى متناولِها في النّهاية... يا إلهي كيفَ ستنتهي الأمور؟ غدا الوضع جنونيّا!

نمتُ بعدَ ذلك ولم تفارق رأسي نظراتُ عليّ إليّ، لم يكن التحدّي الأمر الوحيد الّذي تحملُهما، بل حملتا الحزن والرّجاء أيضا، أراد بشدّة أن أتواصل معه، لا بدّ من أنّ الأمر بالأهمّية الّتي تسحبُ رجلا مثلَه إلى لقاء غريمه، إيمان لم تكنْ سبب خصومتِنا الوحيد، ما لا تعلَمُهُ أريام أنّ لقائي بها لم يكن صدفة، نعمْ! في مرحلة ما من الغضب واليأس، تصرّفتُ بحقارة حينَ بحثتُ في ماضيه تتبّعا لعوراته، علمتُ أنّه كانتْ في حياتِه فتاة مميّزة، ثمّ قرّرت الحصولَ عليها كنوعٍ من الانتقام أو ردّ الاعتبار، لا أدري بما يجبُ أن أدعوه لكن أفترضُ أنّ الصبيانية وصفٌ أدقّ له، مع ذلك لم أشعر قطّ أنّنا تعادلنا، إيمان كانت الفردوس وحصلتُ على الجنّة، هو حصلَ على ما أريد وأنا أردت ما تركه... الآن حصلتُ على أريام ثمّ ماذا؟ سأحاولُ أن أحبّها، هذا الشّعور الّذي يتملّكني... الشّعور بأنّه عليّ أن أحب فتاة ما، كأنّي فقدتُ ثقتي في قدرة الحبّ على إيجادي بعدَ إيمان، يحصلُ للجميع أن يعيشوا لحظاتٍ مميّزة ويكونوا على يقين أثناءها أنّه لن يحصلوا على أفضلَ منها مجدّدا، لذلك يتقبّلون اللّحظات الأقلّ منها لزمنٍ طويل وقد يستمرّ ذلك إلى الأبد، حين كنتُ صغيرا قمتُ بقطعِ ورقة من كرّاسي وبعدَ انتصاف العامِ وجدتُ ورقةً ممزّقة منه، تساءلتُ طويلا من فعلَ هذا، قبلَ أن أدركَ أنّ تمزيق ورقة في إحدى جهتي الكرّاس يؤدّي إلى تمزّق الأخرى المتّصلة بها، حينَها أدركتُ أنّ الحزن الّذي نلاقيه ما هو إلّا ذنبٌ أذنبناهُ ونسيناه تماما وأنّ أفعالنا غير المحسوبة تؤذي الآخرين دونَ علمٍ منّا، لعلّ أريام ضحيّة شعوري هذا وصبيانيّتي، الجميلات يشعرنَ بالحزن أيضا، أ تعلمُ لماذا؟ لأنّهنّ يشعرن على الدّوام أنّ الآخرين يقدّرون كلّ ما فيهن إلا حقيقتهنّ، يرونَ المسحة الملائكيّة على ميسمهنّ ويعمَونَ عن النّقص البشريّ فيهنّ، طبعا لا أقصدُ الغبيّات منهنّ بحديثي، الغبيّات لا يتمتّعن بالذّكاء الكافي لإدراك غبائهنّ لذلك من المستحيل أن تعترفَ إحداهن بغبائها فهو بالنّسبة لها غير مُدرك ولا محسوس، ذاتَ يومٍ كنتُ محاطا بالأشخاص لأنّي تظاهرت لزمن طويلٍ بالقوّة وأخفيتُ ضعفي وحاجتي واحزر ماذا؟ لم يشعرني ذلك بالسّعادة مطلقا! سعادة المرء في أن يجدَ من يكمّل نقصَه ويساعده ليكونَ أفضل، لا فائدة من إعجاب شخصٍ ما بجوانبنا الأقرب للكمال طولَ الوقت، حينَ يحبّ الرّجل امرأة غيرَ جميلة تشعر أنّه يحبّها كبشر لا كملاك، يقف بجانبها فتحسُّ أنّه هو جمالُهُا الّذي كانتْ تفتقده في المرآة، لذلك... لذلك الجميلات يشعرن بالحزن أيضا.

صباحَ اليومِ التّالي نهضتُ قبيلَ شروق الشّمس، طرقتُ بابَ غرفة يسرى وسلمى لكنّه كانَ موصدا، سألتُ عنهما وأخبرني العاملُ أن أصحاب الغرفة غادروا منذ الأمس، سحقا لي! كم كنتُ قاسيا وأحمقا... أرسلتُ لسلمى رسالة اعتذارٍ أبرّر فيها ولم تكنْ تبريراتي قادرة على إقناعي، كيفَ أخبرها أني نظرتُ إليهنّ

ولم أرهنّ وكيفَ أجعلهنّ يصدّقن أنّ تأخري عن التّعريف بنفسي كانَ لمفاجأتهنّ لا استعلاءً عن الحديث معهنّ؟

ردُّ سلمى كانَ قاسيا...

في النّهاية، طلبتْ منّي إضافة صديقتِها يسرى على حسابي بطلب منها، فورَ فعلي ذلك تلقّيتُ رسالة منها فيها كثيرٌ من التّساؤلات الجميلة، لكن يبدو أنّ جلّ اهتمامِها كانَ طرح الأسئلة، سألتني إن كانتْ قصّة أحمد وميلين من روايتي "جواب بين نظرتين" حقيقيّة، وددتُ الاستفاضة في الحديث معها فبعض الأجوبة تبدو حقيرة إن اقتصرت على احتمالين فقط "نعم" أو "لا"، يحتاجُ الأمرُ لكثير من الشّرح للخلاص إلى إحداهما، ويتطلّب تفكيكهما لمعرفة على كم تنطوي كلمة نعم من "لا" و"ربّما" و"ممكن"، وعلى كم ينطوي الشكّ من يقين وتردّد، ماذا لو سألتني فتاةٌ أحبّها كصديقة: "هل تحبّني؟"، سأكون كاذبا إن قلتُ نّعم بالنّظر إلى نوع الحبّ الّذي تقصده وسأكون سفيها إن قلتُ لا فأنا أحبّها في كلّ الأحوال وإن كانَ حبّا مختلفا عمّا تَنشدُه من سؤالي، من أجل هذا وودتُ الاستفاضة لكنّها لم تجبْ على رسائلي الّتي أرسلتُها إليها، كم هي غريبة هذه اليسرى!

أدخلتُ يدي في جيب معطفي، "المعطف" كلمة تبعث على الشّعور بالدفء والسّكينة، تذكّرني بمعطف صديقي أحمد الأسود والّذي كانَ يلقي فيه أشعاره ثمّ ينساها هناك، أتمنّى ألّا تكونَ ميلين قد غسلتهُ متناسية إيّاها داخله...

أخرجتُ البطاقة الّتي أعطاني إيّاها عليّ ورحتُ أنظرُ إليها، أوشكتُ على تمزيقِها ورميها لكن حملتُ هاتفي في النّهاية واتّصلتُ به، هو نفسه لم يتوقّع أنْ أفعل ذلك... لكنّه حصل! بعدَ العصر التقينا في أحد المقاهي، على خلافِ العادة لم أكنْ مهتمّا لتلك التّفاصيل الرّوتينيّة كألوان الكراسي ونوعيّة الأشجار وتهذيب النّادل... كانَ انتباهي مغيّبا ومشدودا إلى الموضوع الّذي حضرتُ من أجله، أخيرا تفعّلت ذاكرتي لحظة قال لي:

-اهتمّ بأريام هي فتاة رائعة...

-لا تقلق سأفعلُ ما عجزتَ عن فعله.

-أنتَ لا تحبّها صحيح؟

-إذا نحن هنا للتّحدّث عن أريام، هذا ما في الأمر؟

-أريد أن أحذّرك، لا تكسر قلبَها مجدّدا!

-يا لك من وقح عديم المشاعر، كيف تجرء على قول هذا بعدَ أن فعلتَ فعلتك؟!

رغمَ غضبي إلّا أنّي شعرتُ ببعضِ الرّضا، كنتُ أنظر إليه وهو يتحدّث عن أريام وأدركتُ أنّه لازال يكنّ لها شيئا ما، هو يهتمّ لأمرها جدّا ما يعني أنّي أنجحُ في الانتقام منه، رغمَ أنّي لم أعد أسعى لذلك الآن... هدأ في الوقتِ الّذي انتظرتُ منه أن يثور أو أن يلكمني ربّما...

-بشأنِ إيمان، أردتُ إخبارك أنّها لم تمت!

خفقَ قلبي خفقة كادَ على إثرها يغادر صدري، تدفّقت الدّماء في عروقي بشكل أسرع، نهضتُ من مكاني وصرختُ:

-ماذا تقول؟
-أقصد أنّها ماتت لكنْ ليسَ تماما...
-إن كنتَ تقصدُ الاستهزاء بي، أريدك أن تدركَ أنّ وقتك انتهى...
-على رسلك! اجلس من فضلك!
جلستُ ويدي ترتجفُ باحثة عن مقبضِ الكرسيّ خلفَ ظهري وجارّة إيّاه على غير اكتراث.
-في الواقع، إيمان ماتتْ دماغيّا رغمَ أنّ قلبَها لا يزال ينبض!
عمّ الصّمتُ المكانَ... "لم عليكِ أن تفعلي بي هذا يا إيمان...؟"

بعدَ عودتي من لقاء عليّ كنتُ متشوّقا لرؤية إيمان مجدّدا، لكنْ كنتُ أعلمُ أنّي سأحزنُ جدّا عندَ رؤيتِها ممدّدة، كنتُ مصرّا على رؤيتِها وما زاد من إصراري هو أنّي قد سمعتُ من قبل عن حالات مماثلة أفاقتْ بحضور مؤثّر قويّ، هل من الممكن أن يحقّق الله لي هذا الطّلب وأن تحدثَ المعجزة عندَ سماعِها صوتي ولمسي يدها وتقبيلي جبينِها، يا الله لستُ أطلبُ منك سوى هذا، شيء ما جعلني أحسّ أنّها لن تموت، ليس الآن على الأقل! قرّرتُ تركَ المعرض والعودة لرؤيتِها، قالَ عليّ أنّ ذلك ضروريّ لأنّها أرادتْ ذلك... كانتْ وصيّتها، جعلَتْهُ يعِدُها أنّه سينفّذها.

عدتُ إلى الفندق وأوصدتُ بابَ الغرفة طيلة النّهار ولازمت مكاني حتّى أنّي لم أشعل الأضواء، ولما جاء اللّيل اتّصلتُ بأريام، ليلتَها طلبتُ مِنها أن تروي لي القصّة، أن تتكلّم ولا تتوقّف.

الفصل العشرون

دقائق تفصلُ الكونَ عن السّاعة المقدّسة، هذه السّنة مختلفة عن كلّ السّنوات السّابقة، إنّها سنة نبوءة النّهاية الثّانية، هل ستشهد العوالم حربا طاحنة أم سينجح أحد ما في إخماد الفتنة المتلهّفة للبروز؟

أحلام المخلوقاتِ تعيشُ في سلام بعيدا عن كلّ ما يحدث كالمزارعين الّذين يغرسون الجنّات في تربة جزيرة تغرق، النّاسك حارس البوّابة جالسٌ واضعا يديه على فخذيه في انتظار غناء التّمثال، يكتفي بمراقبة شجرة البان العملاقة متشوّقا لاستفاقتِها مجدّدا، لقد حرسَ البوّابة الزّمكانيّة دهرا طويلا وليس من أحد يعرفُ سبب ذلك، فمن المستحيل لأيّ كان عبورُها إلّا أن يكونَ ذلك مشيئة الأرواح كما فعلت مع العفريت أغوليد، كانت المرّة الأولى والأخيرة، يعتقد الكثيرون أنّ ذلك كان خطأ فادحا، لقد حدث خلل في توازن الطّبيعة، حين يعطيك نظامُها شيئا فيجبُ أن تعطيه شيئا بالمقابل.

كانَ بريغيل مختبئا حيثُ لا يدري بوجوده أحد، لكنْ فجأة اقتحمَ أحدهم المكان، وجّه إليه بريغيل لسعة قاتلة، لم يتأثّر هذا الغريب ولم يسقط، كانَ الغريبُ التّنين الأسطوري أڤمد، شعر بريغيل بالدّهشة، ليس بسبب صمود أڤمد أمام لسعته فهو محصّن ضدّ السّموم لكن بكيفية العثور عليه، لم يكن الأمر بتلك الصّعوبة فبلّورة تيثريت باستطاعتِها إيجادُ أيّ شيء في هذا العالم وبهذا وجد بريغيل، وقف أڤمد والدّهشة تعقدُ لسانه وتغُلُّ أطرافه، امتلأت محاجر عيونه بالدّموع، لم يصدّق ما رآه، كيف يعقلُ هذا؟ أبواهُ هنا... لقد ضرب لهما القدرُ موعدا بأبعد الطّرق خطورا على البال، عانقهما طويلا وبكا ثلاثتهم لوقتٍ طويل، سرعانَ ما استدار إلى بريغيل قائلا:

-ليسَ لدينا وقت، يجبُ عليكَ أن تعطيني كتاب التّعاويذ!

- لم عليّ فعل ذلك؟

كان بريغيل قد نسي حقده اتّجاه أڤمد بسبب حاصد اللّيل الّذي استخلَصه من قلبه قبلَ أن يتمزّق إلى أشلاء.

-العالمُ يحتاجُ إليه، علينا بعثُ العفريتِ مواي قبلَ أن تسوءَ الأمور أكثر.

شرحَ أڤمد لبريغيل كلّ شيء، أخبره بريغيل بعدها أنّه لم يمزج دمَ أبويه مع المصل الّذي يحتوي دماء كلّ الكائنات الأخرى، لذلك سيحتاجُ إلى أخذ بعضٍ من دماء أحدِهما، دم أڤمد لن يفي بالغرض لأنّه لم يعد صافيّا كأيّام كان أفعى، لذلك أخذ من أبيه بضع قطرات وبعدَ أن عانقهما مرّة أخيرة نظرَ إليهما قائلا:

-سأعود ذاتَ يوم... أعدكما.

انطلقا معا إلى أرض القيامة لكن قبلَ ذلك مرّا بأرض الأدفل أينَ طلب غرضا ما من ملكهم أسميد وروى له كلّ شيء، حينَ علم أسميد بما يحصل وافق على إعطائه الشّعلة المقدّسة إضافة إلى الغرض الآخر، كانَ غرضا مهمّا جدّا! لم تُبدِ الفزّاعة ترڤو أيّ اعتراض على الأمر ما جعلَ أڤمد يتأكّد أنّها هي الأخرى لا تنوي شرّا، كانتْ قلقة على الدّمى فحسب، ستصمد عدّة أيّام بفضل الدّفئ الّذي تحتفظ به في أرض الثّلوج، لكن إلى متى؟

...

يئس حاصد اللّيل من العثور على بريغيل الّذي سرق منه الكتاب، لكنّه كان واثقا من أنّه سيأتي إلى أرض القيامة في الوقت المحدّد، لأنّه مصرّ على تحقيق هدفه والقضاء على أڤمد وحضوره هو الطّريقة الوحيدة لفعل ذلك، لم تخبْ توقّعاته، فبعدَ دقائق حلّ بريغيل لكن برفقة التّنّين الأسطوري أڤمد، كان منظرا غريبا، تساءل الحاصدُ كيف لهما أن يصبحا متعاونين بعدَ كلّ ذاكَ الحقد؟ لكن الأعجب هو بقاء بريغيل على قيد الحياة بعدَ انفجار قلبه، ربّما خاله انفجر فحسب! لم يكن مدركا بأنّ داخل هذه البعوضة ثلاثة قلوب وأنّ ما انفجر كانَ أحدها وكانَ مليئا بالبغض والحقد... على الشّجرة كانتِ الرّوح الطّيبة مصلوبة لليوم السّابع على التّوالي، خطّط الحاصد لإراقة دمائها في الوقت المحدّد، هو يمتلكُ المصل ولا ينقصه سوى الكتاب.

-أعطني الكتاب وسأكون رحيما بكم!

خاطب حاصد اللّيل كلّا من أڤمد وبريغيل.

-بل أعطنا المصل ودعنا نتوصّل إلى تسوية!

في هذه الأثناء بدأ تمثال مواي بالغناء وارتجفت الجزيرة بأسرها، إنّها هي! السّاعة المقدّسة حلّت، يجبُ عليهم التّحرّك فورا، المشكلة الأكبر هي أنّهم مخلوقات من أبعاد مختلفة، ليس بإمكانهم التّأثير على بعضهم، بإمكان ددّان شرب الدّماء المسفوكة وإقناع الأشخاص الّذين يدعونها تقنعهم، كما بإمكان الحاصد استخلاص المشاعر الدّاكنة من القلوب بعدَ موافقة أصحابها، عدا هذا ليس هنالك مجالٌ لسطوة أحدهم على الآخر، سيكون حاصد اللّيل مضطرّا للانتظار قرونا أخرى، الأكيد أنّه سيعود ومعه الكتاب ذات يوم، لكن بالنّسبة لأڤمد وبقيّة مخلوقات هذا العالم، هذه فرصة قد لا تتكرّر لإيقاظ مواي الّذي سيعيد موازين العالم إلى نصابِها، نظر إلى بريغيل قائلا:

-لديّ فكرة!

-ما هي يا أڤمد؟

-فلنعطه كتاب التّعاويذ!

-ماذا؟

-هاتِ كتاب التّعاويذ فحسب!

كانَ طلبُ أڤمد غريبا ومخيفا لبريغيل وللعالم ككلّ، مع ذلك لا مفرّ من مجاراته، من بين كلّ المخلوقات هو معروف بحكمتِه وتخطيطه وإرادته الّتي تجعل المستحيل ممكنا، كما أنّ الوقت ينفد وقد تنقضي السّاعة في أيّ لحظة!

الأمرُ هنا خطرٌ جدّا، صلبُ روحٍ طيبة سيبعثُ الشّرّ في العالم وصلب روح شرّيرة سيبعثُ الطّيبة، ناولَ أڤمد الحاصد الكتابَ وتركَه يتلو التّعاويذ، لقد أخبرته أريناس بأنّ الفرصة ستحين لذلك عليه ألّا يغفل، حاصدُ اللّيل لا يرمشُ أبدا، لكنّه سيكون مضطرّا لذلك حين يستحضرُ لعنة الكتاب المقدّس وينتشيها، راقبَهُ وهو يتلو التّعويذة، أخرج الحاصد المصل وبإصبعه وضع علامة على إحدى صفحات الكتاب، تحوّلت تلك العلامة إلى نورٍ ثمّ استحال إلى الأسود وتجلّى على شكل نصلٍ أسود، أمسكَهُ حاصد اللّيل واتّجه إلى الرّوح الطّيبة المصلوبة على شجرة البان، تسرّب الشّكّ إلى صدر بريغيل وصرخ في أڤمد:

-ما الّذي تنتظره؟

-ثق بي فحسب... انتظر أرجوك!

كان الموقف صعبا جدّا، هل عليه الوثوق به حقّا، لماذا لا يهجم على الحاصد ويحاول أن يمزّق الكتاب فحسب؟ لكنّه كانَ يذكّر نفسه في كلّ لحظة باستحالة النّيل منه، عليه الانتظار فحسب ويأمل ألّا تموتَ الرّوح الطّيبة.

أحدث حاصد اللّيل جرحا في كفّ الرّوح الطّيبة المصلوبة على الشجرة بواسطة النّصل، حينها تدفّقت دماؤها على الشّجرة الّتي بدأ الظّلام ينبعثُ منها، في هذه الأثناء شعر الحاصد بالانتشاء، لكن فجأة توقّف الظّلام عن الانبعاث قبلَ أن تغمضَ عيناه، لم يدرك الحاصد أنّ مصل الدّماء غير مكتمل، لذلك أعاد الكرّة مجدّدا، كانَ واثقا أنّ أقمد وبريغيل لن يتمكّنا من بعث موايّ حتّى ولو أعطاهُما الكتاب والمصل، فالشّرط الأخير لبعثه هو وجود أضحية تصلبُ لسبعة أيّام كاملة على الشّجرة!

في المرّة الثانية انبعثت الظّلمات مجدّدا ولشدّة تلذّذه بها أغمضَ الحاصد عينيه، كانت تلك الإشارة! انطلقَ أقمد كالسّهم وأخرجَ أصفاد النّاب الّتي جلبها من أرض الأدفل قبلَ قدومِه، لفّها حول الحاصد بسرعة خاطفة وقيّده إلى الشّجرة، ثمّ حرّر الرّوح الطّيبة قبل أن يشعر الحاصد حتّى، أخذَ أقمد النّصل والكتاب والمصل واستعدّ لطعن الحاصد الّذي ضحك ضحكة سمعت على بعد أميال عديدة.

-لقد نسيتَ أمرا أيّها التّنّين... تحتاجُ إلى صلبي سبع ليال قبل التّضحية!

ابتسمَ أقمد وردّد تعويذة استحضار العفريت الأوّل موايّ بعدَ أن وضع قطرة من دمِ أبيه، دم الأفاعي الصّافي على الكتاب، عندئذ أقدمَ على طعنِ الحاصد بالنّصل وقال:

-لكنّك نسيتَ أنّ الرّوح الطيبة جزء منك، ما يعني أنّك كنتَ مصلوبا لسبع ليال هنا!

جحظت عينا الحاصد كأنّه يستدرك ما فاته، حدث كلّ شيء بسرعة وعكسَ ما توقّعه، لكنّ دهشتَهُ لم تدم طويلا قبلَ أن تلفّ الشجرة حولَه لسانَها وتمضغَ أشلاءه بين أنيابِها... انطفأت الشعلة المقدّسة فجأة وتصاعدَ دخانها ودخلَ جوفَ التّماثيل الستّة الأخرى، حينَها بدأت كلّها بالغناء معا بتناغم يدعو للخشوع ويملأ النّفوس بالرّهبة، كانَ الجميع يشعرُ بالذّعر والقلق، غنّت التّماثيل ثمّ بدأت أيديها تميط التّراب عن أجسادِها وتخرج إلى الأرض، اضطربت البوّابة الزّمكانية، يبدو أنّ روحا عظيمة ستمرّ من خلالِها، حدثٌ لم يسبق له مثيل، اهتزّت العوالم وحلّت العواصف وماجت البحار...

بعدَ أن هدأ كلّ شيء قامتِ التّماثيل وقد عادتْ أرواح العفاريت السّبع فيها وعلى رأسها قام تمثال العفريت الأول والأعظم على الإطلاق، العفريت موايّ!

روى الأجداد أنّه أعاد ددّان إلى الأرض السّفلى وصوّب الأمور في العالم ومنعَ الكائنات السّفلية من الولوجِ مجدّدا إلى العوالم المتبقّية، وخابَ مسعى الشّيطان أولمك في الاستحواذ على العوالم الوسطى لينتقم منها، أمّا أقمد فانتزَع أحدَ قلوبِه الّتي نمت بعدَ أكله البعوضة توشوشت وأعطاهُ لأخيه بريغيل، كانَ شعورُ بريغيل لا يوصف وهو يشعرُ بقلب أخيه توشوشت يخفقُ داخلَه، سيظلّ توشوشت حيّا داخلَهُ إلى الأبد!

كان الجميع سعيدا بهذه النّهاية، إلا أقمد الّذي تخلّى عن فكرة الانتقام من قريته السّابقة، بدلَ ذلك قرّر أن يعودَ إليها ذاتَ يوم كما وعد والديه... اطمأنّ الجميع بعد عودة موايَ كحارسٍ للعوالم لكن ما لم يعلموه هو أنّه أثناء عبوره البوّابة الزّمكانية... تسلّل شيء ما إلى هذا العالم أمام أنظار النّاسك!

ليست إيمان!

كلّ ما يحدث هو جزء من ذكرياتنا لكنّنا لا نتذكّرهُ إلى أن نقومَ بفعلِه، لذلك نحنُ لا نعرفُ إن كانتْ حياتُنا ذكرياتٍ نفعلُها أم أفعالا نتذكّرُها، الأكيدُ أنّهما سيكونان الأمر عينَه مع آخر نفَسٍ نلفُظهُ، حينَ نتحوّل أخيرا إلى ذكرى ويخذُلُنا الفعل.

-واو قصّة غريبة وآسرة بالفعل، يبدو وكأنّها تحملُ المزيد من الأحداث.

-كما أخبرتك سابقا، كانَ يشاعُ أنّ هنالك مزيدا من الأحداث، عمّي موسى هو الشّخص الوحيدَ الّذي قيلَ أنّه يعرفُها لكنّه مات!

-رحمه الله... هل له أبناء أو أقارب؟

-لا كانَ يعيشُ وحيدا للأسف!

لقد استطاعَ أقمد مجدّدا أن ينقذَ العالم، كانتْ الأسبابُ تهيّء له لفعل ذلك في كلّ مرّة دونَ أن يدري، بريغيل بدورِه حصلَ على السّلام داخلَه بعدَ أن ورث قلبَ أخيه الّذي سينبض داخلَهُ إلى الأبد، التقا والدا أقمد ابنَهما الّذي تخلّى عن فكرة الانتقام، لكن هل سيستطيعُ مغالبة نفسه الّتي تتوق إلى العودة إلى قريته؟ يبدو أنّه عليّ اختراعُ تكملة لهذه القصّة لأشعرَ بالرّضى، لا بأس! أعلمُ أنّه في الأخير استطاعَ إيجاد طريقة ما للعودة، لقد كانَ بوسعِه تحقيق الأمور الّتي يريدُها دوما.

لمّا انتهت أريام من قصّ الحكاية، أخبرتُها أنّي سأنام لكنّي لمْ أفعل ذلك تلك اللّيلة، شغلني التّفكير والذّكريات، كنتُ معتادا على فعلِ ذلك لحدّ أنّي كثيرا ما شككتُ في بعضِ ذكرياتي... في كونها حقيقة أو أنّها من اختراعي، يشعر الحالمون بالراحة في أحلامهم لذلك يستمرّون فيها، شيئا فشيئا تصبحُ واقعا ويصبح الواقع مجرّد واقعٍ بمعايير متدنّيّة، إنّها سجنٌ فيه كثيرٌ من الغرفِ الجميلة الّتي تقدّم خدماتٍ تكفي نزيلَها وتغنيه عن أيّ طلب غير محتمل، تقدّم كلّ شيء إلّا تركَه يرحل، حينَ يكتشف ذلك بعدَ بضعة أحلام، سيكونُ الأوانُ قد فاتَ ليهربَ من هذه الغرفة، من هذه الزّنزانة الّتي زجّ فيها بسبب تهمته التي لا تغتفر، تهمة "الرّغبة في البقاء داخلها! "، الغريبُ أن تبقى مسجونا في يومٍ لم يأتِ بعد، كذاكَ اليومِ الّذي كنتُ سأعرضُ فيه الزّواج على إيمان وتقبل، كنتُ عرضتُ الزّواج عليها فعلا سابقا، لكن حينها كانتْ طالبة صيدلة في سنواتِها الأولى، سألتها:

-ما الّذي تنتظرينه؟

أجابتني:

-أنتظرُ الوقتَ المناسب!

بعدها انتظرنا طويلا قدومَ الوقتِ المناسب وحين أتى لم يكنْ مناسبا...

كانَ الأمر وكأنّنا لا ننتظر الوقتَ المناسب طولَ الوقت الّذي انتظرناه فيه، كانتْ إيمان فتاة ساذجة فوّتت الرّحلة الوحيدة إلى وجهتنا وركبت رحلة أخرى وهي تتناسى أنّ المركبة ذاهبة إلى وجهة لا ترضيها، تنتظر مفاجأة أو معجزة ربّما، سايرتُها لأنّها وحدَها تأشيرتي إلى ذاكَ المكان الّذي أردناه دوما، كنتُ مخيّرا بين المكان وتأشيرة دخولِه واخترتُ التّأشيرة، اليومَ أكثر من أيّ يومٍ آخر أتساءل ماذا لو اخترتُ ذاكَ المكان؟ لربّما وجدتُ من تهرّبني عبرَ حدوده وتساعدني على الانتماء إليه... كنتُ مصابا بحبّ إيمان،

بالتأشيرة الّتي انتهتْ، حينَ تغرمُ بصيدلانيّة سيكونُ عليكَ أنّ تحبّها ثلاث مرّاتٍ يوميّا بجرعات مضاعفة وأن تخبِرَها أنّها الأجمل مرّة في الأسبوع، هذا بالتّأكيد أغبى من أن تثني على رجلٍ أصلعٍ قائلا: "قصّة شعركَ جميلة" وأن يجيبك: "شكرا"، بدلَ أن يغضبَ من تهكّمك.

الأمر مضحك بعض الشّيء، بعدَ مرورِ سنواتٍ وحينَ نكبرُ نصلُ إلى سنّ لا تستطيعُ الأمور الّتي اعتدنا الضّحك عليها إضحاكنا، أتدري ماذا فعلتُ حينَ حدث هذا؟ كبرتُ أكثرَ فحسب وها أنا أضحكُ على نفسي طول الوقت.

اليومَ أعيشُ في برزخ لا متناهٍ بينَ الشّعور بالذّنب والرّغبة في المضيّ، التّساؤلات عن نتائج أفعالنا ونتائج عدم فعلِها وحدَها تخوضُ بنا في هذه المتاهات الشّعورية، هل تكونُ محقّا إن عاقبت مثلا شخصا على فعلة لم يفعلْها لكنّك كنتَ متيقّنا أنّه يوشك على ذلك؟ هل أطلقتَ النّار على شخصٍ يحملُ مسدّسا قبلَ جزء من الثّانية من إطلاقه النّار عليك سابقا؟ لو انتظرتَ تلقّي رصاصته ألن تكونَ نادما أيضا على غبائك الّذي أمهله؟ كأنّ حياتَنا تجبرُنا على النّدم وتعطينا خيارين فقط: ندم على الفعل وندم على عدمه.

في الصّباح الباكر ركبتُ مع عليّ أوّل رحلة عائدا إلى بشّار لأرى إيمان أو ما تبقّى منها، ذهب معي إلى مستشفى "تورابي بوجمعة" أينَ ترقدُ إيمان فورَ وصلِنا، لم أكنْ بخير تماما لكنّي حينَ وضعتُ قدمي داخلَه واستنشقتُ رائحته المليئة بالأنين والحزن والمرض والأدوية وكلّ تلك الرّوائح الّتي لا تتغيّر أبدا، شعرتُ بالوهن يتوغّلُ في أطرافي ومغصٍ في بطني، كنتُ أبتلعُ ريقي باستمرار إلى أن وصلتُ إلى تلكَ الغرفة أينَ كانَت ساكنة تتظاهر بأنّها لا تنتظرني، هناكَ كانتْ حبيبتي إيمان ترقد مربوطة إلى أجهزة كثيرة تبقيها على قيد اللّحظة الأخيرة، من الّذي آذاك يا إيمان؟ من فعلَ بك هذا يا حلوتي؟ خرجَ عليّ وأغلقَ الباب وتركني معها، تقدّمتُ إليها وقبّلتُ جبينَها باكيا ثمّ استلقيتُ قربَها واضعا رأسي قربَ رأسها.

"أ لن تفتحي عينيك من أجلي يا حلوتي؟ لقد عدتُ من أجلك، أنا هنا! كنتُ بائسا جدّا دونك، لمَ لمْ تدعيني أكونُ بجانبك؟..."

كانَت أصعبَ لحظة أعيشها طيلة حياتي، لم أغادرها مطلقا ولم تغادرني يوما، بقيتُ مع إيمان لوقتٍ طويلٍ لكنّها لم تُفق! لم تقع المعجزة الّتي انتظرتُها، الحبّ كانَ عاجزا عن إنعاشها، حبيبتي إيمان لم تعد موجودة... لقد رحلت!

دخلَ عليّ وقال أنّ لديه ما يقوله لي، لذلك ذهبنا إلى مكتبِه وقال:

– لم أكن على علاقة بإيمان.

كنتُ في غاية الحزن وقلت:

–فيما يهمّ هذا الآن، لقد رحلت في كلّ الأحوال...

–لقد حاولتُ جعلَها تحبّني كثيرا لكنّ اسمكَ كانَ على شفتيها طيلة الوقت، لم تكفّ عن تذكّرك ولا حبّك لحظة واحدة... لقد طلبتْ منّي أمرا يهمّك.

–ما هو؟

–تركت لكَ شيئا!

أخرجَ عليّ نسخة من بعض الأوراق الّتي وقّعتها إيمان قبلَ رحيلِها وقال:

–لقد تنازلتْ عن قلبِها لك!

لم يكنْ ما قالَهُ عليّ مجازا بل قصد حقّا أنّ إيمانَ تنازلت عن عضوٍ منها، تنازلت عن قلبِها لي بعدَ رحيلها، تذكّرتُ شيئا الآن... إيمان لم تعدني بالبقاء يوما، لكنّها وعدتْ أن قلبها سيكون لي دوما، حتّى بعدَ رحيلِها كانتْ حريصة على الوفاء بوعدِها لي، إلى هذا الحدّ كانت مجنونة بحبّي! لم أستطع كبح دموعي مطلقا، في هذه اللّحظة وصلت أمّها وحين رأتني عانقتني فحسب وبكينا طويلا، لمْ أرَ خالتي منذ زمنٍ طويلٍ، مذ اعتبرتني ابنَها بعد رحيلِ أهلي ومذ كنتُ أمرّ على بيتِ إيمان لنذهب سويّا إلى الثّانويّة، كنتُ أنتظرُ أن تلومني لكنّها كانتْ ترى في وجهي الروحَ الّتي غادرت جسد حبيبتي إيمان، كانت ترى الرّجل الّذي أحبّته إيمان إلى درجة استودعته فيها قلبَها، وجبَ عليّ التّوقيع بعدها على بعض المستندات، لكنّي طلبتُ مهلة لأرتاح، لقد كانَ اليومُ شاقّا عليّ... أحتاجُ جدّا للرّاحة.

بعدَ عودتي إلى المنزل لم يطل سهري ونمتُ حالا، رأيتُ مجدّدا في الحلم إيمان وهي تعطيني ذاك القلبَ الّذي أهديتها إيّاه، كانَ عبارة عن حاملِ مفاتيح على شكل قلب مكتوب عليه اسمُ الجلالة، وكناية عن تسليمِها مفاتيح قلبي والاستسلام تماما لها، الحلم نفسه يتكرّر... ما الّذي تقصدينَه يا إيمان؟ استفقتُ في منتصف اللّيل مشتاقا جدّا لها، لماذا أعطتني قلبَها وما الّذي سأفعلُه به؟ الأمر الوّحيد الّذي يمكنني فعلهُ هو التّبرّع به ليبقى نابضا داخلَ أحدهم ويظلّ حيّا، لا أظنّ أنّه ثمتَ ما قد يرضي حبيبتي بقدر هذا، فجأة تذكّرتُ أمرا ما، تذكّرت... يسرى!

ليست إيمان

كانتْ جثّة يسرى محمولة على ذراعي أبيها، بدت ميتة في حالتِها تلك، لعلّها تعيشُ لحظاتِها الأخيرة، أُخذت إلى المستشفى أينَ تمّ إنعاشُها مجدّدا، لكنّ الخبرَ السّيء أنّ حصولَها على قلبٍ في أقرب وقتٍ صارَ ضروريّا، ضاقتِ الدّنيا بعائلتِها الّتي لم تكن تعلمُ أنّ اتصالا واردا لسلمى حملَ في طيّاته بعض الأمل... كثيرا من الأمل:

-أحتاجُ إلى الحديث ليسرى!

-هي في المشفى حالتُها حرجة، تحتاج لقلب قريبا ولم تجد متبرّعا.

أجبتُها والسّعادة الحزينة تتلاعبُ بنبرتي:

-لقد وجدتُ متبرّعا!

كانتْ فرحة سلمى لا توصف بهذا الخبر، اتّصلتْ فورا بعائلة يسرى لتبدأ الإجراءات...

مرّت شهورٌ منذُ هذه الحادثة، الآن أعيشُ حياة هادئة أتنقّل بين البحر والوطن باستمرار، أعتزمُ الزّواج بأريام والانتقال إلى هناك لنعيش معا، إيمان استطاعتْ أن تُحيي قلبي وتُحيي نفسا دونَ أن تعلم، لقد تركتْ لي الميراثَ الأغلى، تركتْ لي قلبها الّذي لطالَما نبضَ بحبّي تماما كما وعَدَتْ.

أجلسُ الآن هنا مع أريام في المقهى وهنالكَ امرأة جميلة تحاول خلقَ تواصل بيننا، علمتُ لاحقا من السّيدة مخطاري أنّها ذاتُ المرأة الّتي جاءتْ للبحثِ عنّي في البيت أثناء غيابي، لكنّي حقّا لا أكترث، حانَ الوقتُ لأستقرّ وأكفّ عن العيشِ كمتشرّد في أزقّة العبث، داخلي كانَ سؤال واحدٌ يُطرح:

"هل سينبضُ قلبُ إيمان داخلَ يسرى دائما من أجلي؟"

لا أدري ما الّذي سيحدث حينَها لكن أيّا يكن، هي يسرى... وليست إيمان!

عليّ وأريام وأنا وإيمان كنّا أقطاب كونٍ يعيشُ في استقرار خادع، فجأة تفكّك وفقد أحدَ أركانِه بحثا عن الاستقرار، لكنّ الأركانَ الباقية ستظلّ تبحثُ عنه ولن تحصلَ عليه أبدا، ستبحث الذّرات عن الذّرات دوما لتكوّن الدّارة المغلقة الّتي يعيشهُا الوجود منذ ملايين السّنين.

من سيكرهُ من لاحقا؟ ومن سيحبّ من؟ ستجيبُ الأيّام عن كلّ التساؤلات ومن يدري؟ قد يسعفُنا الحظّ لنسمَعها...

النّهاية؟

بعدَ أن أنهينا كلّ شيء رافقني عمّي يغموراسن وأحمد وميلين لإتمام ما بدأه أحمد وحيدا، لا أظنّه تخيّل للحظة أنّه سيسلك هذه الطّرق مجدّدا وهو محاطٌ بأشخاص يحبّهم، على المرء الإخلاص لأمانيه وستجعل منهُ أمنيةً لغيرِه ذات يوم، الحبّ من أوّل نظرة ليس نادرا، فأنا أفعل ذلك كلّ يوم مع نفس الشّخص مشينا وكلٌ منّا ينظرُ للآخرين وتُخبرهم نظراتُه بكلّ ما يبوح به الرّضى، كلّ مرّة أرى فيها أريام هي مرّة أولى، المرّة الأولى هي مجرّد مرّة أخرى حين نلغي التّرتيب، لذلك قرّرتُ أنّه يمكنني العبثُ بها كما أشاء، التفتُّ إلى أحمد لأسلّمه نصيبَه أيضا من النّظرات، حينها تذكّرتُ قولَه وهو يصفُ ميلين قائلا: "الشّخص الوحيد الّذي يحبّها أكثر منّي هو أنا غدا!"، نظرتُ إليه تلك النّظرة الّتي مفادُها: "تبّا لك يا صديقي، كيف يمكنني اختراع شيء يجاري بلاغتك لأتفاخر به أمامها؟!"

مقتبس من الجزء الثالث (الزنزانة 905)

عبد الرحيم بلغانمي : كاتب من الجزائر.

ISBN : 978-9931-06-068-0

خيال

khayaleditions@gmail.com